راوول فولّيرو

رسول البُرص، ومتشرّد المحبّة

سلسلة النوابغ
١٣

راوول فولّيرو
رسول البُرص، ومتشرّد المحبّة

أديب مصلح

٢٠٢١

طبعة أولى

٢٠٢١

* * *

حقوق الطبع محفوظة للمؤلّف

إهـــداء

طوبى لمن تُوجِعهم آلام الأبرياء

ويضحّون بذواتهم من أجل مواساتها

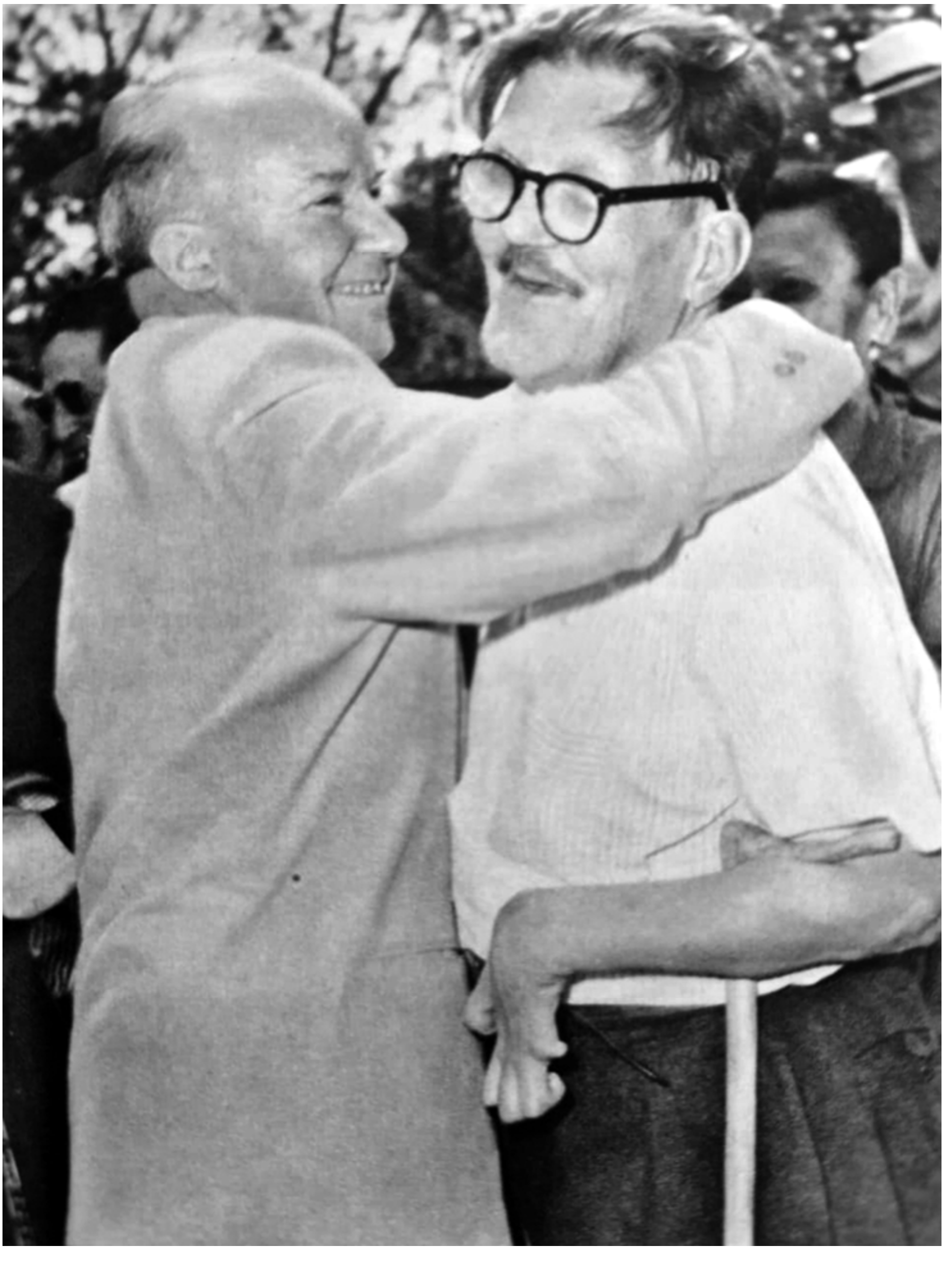

"الحقيقة الوحيدة هي تبادل المحبّة"

تقديم

الأب الياس زحلاوي

للمفكر الفرنسيّ المعاصر "جان غيتّون" (Jean Guitton) (1901-1999)، كتابٌ هامٌّ بعنوان "يسوع"، صدر عام ١٩٥٦. وقد جاء في مطلع فصله الأخير، "يسوع والقدّيسون"، هذا القول:

« أخيرًا، لا بدّ من أن نستكشف نمطًا آخر من الاختبار والتأمّل لدى الصوفيّين والروحانيّين، الذين ارتبطوا بيسوع. وهنا أيضًا سيتّضح لنا أنّ يسوع يمتلك أقصى فرادةٍ. فهو أبدًا حاضرٌ في الآلاف من الضمائر، لأنّه استنهض في كلّ جيلٍ، أفرادًا تشبّثوا به، أكثر من تشبّثهم بذواتهم. وذلك لأنّهم وجدوا فيه مبدأ حياتهم. ولنُسَمِّهم، وفق الكلمة المستخدمة، قدّيسين. وإنّي لأرى أنّه يجوز لنا أن نقول إنّ يسوع كان عبر التاريخ كلّه، الكائن الأوحد الذي تفرّد بإنجاب قدّيسين ».

وهل من يجهل أنّ يسوع قد مات صلبًا، وهو دون الخامسة والثلاثين؟ ومع ذلك، فهو، طوال ألفَي عامٍ ونيف من تاريخ البشر، المضطرب أبدًا، والمتوغّل أحيانًا، كما هو اليوم، في ضياعٍ وتوحّشٍ عالميّين، لم يعرف التاريخ لهما مثيلاً، كان وما يزال يشكّل قوّة استقطابٍ روحيٍّ وإنسانيٍّ، لا يُجارى، تجلّت على نحوٍ استثنائيٍّ، في حياة الكثيرين، ممّن كان لهم تأثيرٌ حاسمٌ في مجتمعاتهم المختلفة.

بعض هذه الشخصيّات المؤثّرة، وجد في الغرب من يُؤخذ بها، ويستكشفها، ويكتب سِيَرها المذهلة. وأمّا في العالم العربيّ، فإنّها لم تجد مَن يتصدّى للكتابة عنها، إلاّ العدد القليل، وفي مؤلّفاتٍ كثيرًا ما كانت وجيزةً، بل خجولةً.

وكان أن جاءنا ذات يومٍ من عام ١٩٩٠، مَن يتصدّى لإحداها، في كتابٍ بعنوان "قدّيسةٌ من بلادنا، مريم يسوع المصلوب". وقد تناول فيه سيرة راهبةٍ فلسطينيّةٍ، تخلّلت حياتها حوادث خارقةٌ، بعضها يشبه ما كان يحدث، منذ أواخر عام ١٩٨٢، في ما بات يُعرف بعد ذلك، بـــ "بيت العذراء"، في حيّ الصوفانيّة بدمشق.

ولقد كان هو هو واضع كتابنا اليوم. ففي عام ١٩٩٢، فاجأ المثقّفين العرب بكتابٍ موسوعيٍّ، تناول فيه، على نحوٍ غير مسبوقٍ، سيرة المهاتما غاندي، حتى إنّ أحد أبرزهم في دمشق، نصحه باعتماد سِيَرٍ مقتضبةٍ، لسببٍ وجيهٍ، وهو... إعراض العرب المتفاقم عن القراءة، وعن القراءة الجادّة تحديدًا.

وتبيّن، بمرور الزمن، أنّ نداء القمم كان أبدًا يستهوي كاتبنا دون هوادةٍ، على كونه تاجرًا متمرّسًا، وربّ أسرةٍ، وكاتبًا مجلّيًا، دأب، منذ عشرات السنين، على إغناء المكتبة العربيّة، والمسيحيّة تحديدًا، بمقالاتٍ جادّةٍ، وكتبٍ، موضوعةٍ أو مترجمةٍ، أغنت الفكر العربيّ المسيحيّ، بعطاءٍ ثرٍّ، يعتمد لغةً عربيّةً قلّ نظيرها.

وتتابعت مؤلّفاته الموسوعيّة هذه، بإيقاعٍ مثيرٍ، فصدرت له، عام ١٩٩٢، سيرةٌ للقدّيس فرنسيس الأسّيزيّ، بعنوان "فرنسيس، أصلح كنيستي"، وعام ١٩٩٧، سيرةٌ للكاهن الفرنسي المعروف باسم "الأب پيير"، بعنوان "الأب پيير، صوت من لا صوت لهم"، وعام ١٩٩٨، سيرةٌ للأمّ تيريزا، بعنوان "حتى يوجع العطاء"، وعام ١٩٩٩، سيرة لراهبةٍ بلجيكيّةٍ تعرف باسم الأخت إيمّانويل، بعنوان "أنا الأخت إيمّانويل، أشهد"، وعام ٢٠٠٣ سيرةٌ للقدّيس بولس، بعنوان "بولس، رسول يسوع وقلبه ولسانه"، وعام ٢٠٠٣ أيضًا، سيرةٌ لشخصيّةٍ كنديّةٍ اهتمّت بالمنغوليّين على نطاق العالم بأسره، بعنوان "جان ڤـــانييه وسفينته"، وعام ٢٠١٥ سيرة "البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني"، وعام ٢٠١٩، سيرةٌ لصوفيّةٍ ألمانيّةٍ شهيرةٍ، في ثلاثة

مجلّداتٍ، بعنوان "الأخت آنّا كاتارينا إيمّيريك"، وعام ٢٠٢٠ سيرةٌ للأب القدّيس "جوزيف كُتّلينغو"، بعنوان "معجزة العناية الإلهيّة، البيت الصغير"، وفي عامنا هذا ٢٠٢١، سيرةٌ لمن بات يُعرف باسم رسول البُرص، "راوول فولّيرو" الفرنسيّ، بعنوان "راوول فولّيرو، رسول البُرْص ومتشرّد المحبّة"...

ما من شكٍّ أنّ مَن يستعرض فقط، بعضًا من هذه السيَر– القِمم، بما تنطوي عليه من إيمانٍ قاهرٍ وعطاءٍ استثنائيٍّ، ينتهي حتمًا إلى التساؤل في حيرةٍ، عن سرّ هذه الاستجابة العنيدة والثابتة، لدى المؤلّف، لنداء مثل هذه القمم الروحيّة والإنسانيّة. وقد يذهب الظنّ ببعضهم إلى اتّهام الكاتب بالاكتفاء باقتباس المعلومات العامّة، والتفاصيل الدقيقة، والصراعات المختلفة، بل الأزمات الكثيرة، العاديّة منها والاستثنائيّة، التي تخصّ هذه الشخصيّة أو تلك، ممّن كُتِبَت سِيَرها في الغرب، لينقلها من ثمّ إلى لغةٍ عربيّةٍ، دقيقةٍ بقدر ما هي راقيةٌ!...

هؤلاء وسواهم، أدعوهم لقراءة أيٍّ من هذه السِيَر المذهلة، في موضوعيّةٍ ويقظةٍ، كي يتسنّى لهم أن يكتشفوا دونما أيّ عناءٍ، قدرة هذا الكاتب بعينه، على معايشة جميع "أبطاله"، في يسرٍ وحبٍّ جليَّيْن، بل في فرحٍ يتحدّى به أعباء عمرٍ جاوز التسعين، وقد قضاها كلّها في عملٍ منتظمٍ، نظيفٍ، ودأبٍ خفيٍّ، وعطاءٍ ثرٍّ، في الظروف البالغة القسوة، التي عاشها ويعيشها كلّ إنسانٍ، في هذا الشرق المصلوب أبدًا، بأيدي أبنائه والغرباء معًا!

ويبقى السؤال الصعب قائمًا: ما سرّ هذا الكاتب والمفكّر، في تصدّيه على هذا النحو العنيد والراقي، لمثل هؤلاء الأفذاذ، الذين بصموا التاريخ المسيحيّ والإنسانيّ معًا، ببصمةٍ خارقةٍ، تجلّى فيها، في ظروفٍ تكاد تكون عصيّةً على أيّ اختراقٍ، وجه الله ووجه الإنسان في آنٍ واحدٍ، وفي تكاملٍ بهيٍّ، يستحيل على مطلق إنسان ألاّ يُؤخذ به، ويشتهي تمثّله، بل وتجديده!

والحقيقة، كما أراها، هي أنّ ما أُتيح لكاتبنا هذا، أن يضع من كتبٍ باهرةٍ، عن يسوع وأمّه مريم، يكشف بكلّ جلاءٍ، السرّ المكنون في روحه وحياته، وقلبه وعقله، وفي قلمه. ذلك هو السرّ العظيم والحقيقيّ، الذي لولاه، ما كان لكلّ من كَتَب عنهم، ولا لسواهم الكثيرين، أيّ وجودٍ، لا في الشرق، ولا في الغرب.

ولقد كانت فاتحة ما كتب عن يسوع، قبل كلّ شيءٍ، ترجمته الرائعة، لرائعة المفكّر الإيطاليّ "جيوفـــاني پـــاپيني"، "سيرة المسيح". وقد نقلها صديقنا إلى لغةٍ عربيّةٍ ساحرةٍ، تحمل العنوان نفسه، عام ٢٠٠٣.

وأتبعها عام ٢٠٠٦، بثلاثة كتبٍ زاخرةٍ، تناول فيها، في عشقٍ روحيٍّ حقيقيٍّ، شخصيّة يسوع، وتعاليمه وتأثيره، وهي "يسوع في إنجيله"، و"يسوع في حياته"، في مجلّدين. ولقد توّج كلّ ذلك بكتابين جديدين، صدرا عام ٢٠٠٩، كان أوّلهما بعنوان "أمّ الله، أمّنا"، وهو عبارةٌ عن تأمّلٍ لاهوتيٍّ شاملٍ ومعمّقٍ، حول دور السيّدة العذراء، في حياة يسوع وتاريخ الكنيسة، وكان ثانيهما بعنوان "مختاراتٌ مريميّةٌ"، وقد جمع فيه بعض أجمل ما كُتِب عن السيّدة العذراء، بدءًا من الإنجيل، فبدا أشبه بوثيقةٍ لاهوتيّةٍ كانت تفتقر إليها المكتبة العربيّة المسيحيّة. وأمّا كتابه الأخير عن العذراء مريم، وهو بعنوان "أمّ الرحمة"، وقد صدر عام ٢٠١١، فقد جاء خاتمةً بهيّةً لحديثه الثرّ عن يسوع وأمّه مريم.

ثمّة ملاحظةٌ أخيرةٌ، تبدو لي في غاية الأهمّيّة، أودّ الإشارة إليها، في ختام هذا التقديم.

مَن يستعرض جميع السِير التي وضعها الكاتب، باستثناء سيرة غاندي، يتّضح له أنّها كلّها تتناول شخصيّاتٍ مسيحيّةً ليس إلاّ، معظمها كهنةٌ أو راهباتٌ، والقلّة من العلمانيّين. وحده، "بطل" هذا الكتاب كان متزوّجًا، ولكنّه لا يقلّ غيرةً وحماسةً والتزامًا عنها، بل قد يتفرّد عنهم جميعًا بقدرته على الحركة بحرّيّةٍ وسرعةٍ

أكبر بكثير، من تلك التي يستطيع الكهنة أو الراهبات العمل بها، تحت قواعد صارمةٍ تفرضها الطاعة والقوانين الرهبانيّة المختلفة... ومع ذلك استطاعوا أن يسجّلوا إنجازاتٍ، وَسَمت التاريخ المسيحيّ بمنارات مضيئةٍ، تشهد على قدرة يسوع المذهلة في التكيّف مع شخصيّاتٍ مختلفةٍ في المكان والزمان والطباع والبيئة...

إلاّ أنّ بطلنا "فولّيرو" كان رحّالة المحبّة بامتياز، يمضي حيث تناديه بحماسٍ وثقةٍ، ويعود محمّلاً بالإنجازات الواجبة التي تتوقّد في فكره الخلاّق...

ومع أنّه عُرف بـــ "رسول البرص" - وقد كانوا في طليعة اهتماماته - إلاّ أنّه كان يشعر بمسؤوليّةٍ مباشرةٍ، تجاه ما تعانيه البشريّة برمّتها، ولم يقتصر نشاطه على بلاده أو قارّته... بل كان لا ينفكّ يذكّر بالفقراء والجياع على امتداد العالم. ولم يتردّد في فضح المنهجيّة المدمّرة التي تقود أصحاب القرار في الدول الكبرى، ولم يتوانَ عن التنديد بأساليبها الدنيئة، وشهوتها المريضة نحو التسلّح وتطوير ترساناتها العسكريّة... وكان أن تساءل مرّةً في نشرته (مهمّة فرنسا):

"ألا يجوز اقتطاع هذه الأموال من ميزانيّات الموت؟!
ولن تكون تلك سرقةً، بل هي إعادة مالٍ مسلوبٍ".

وقد دعا لحملةٍ حاذقةٍ لا تخلو من مكرٍ، أواخر الحرب العالميّة الثانية عام ١٩٤٤، كانت أشبه بامتحانٍ للضمير العالميّ، وكانت تحت شعار "يوم حربٍ من أجل السلام"!

فبما أنّ كلّ حربٍ تنتهي باتّفاق سلامٍ، اقترح أن تُمدّد الحرب يومًا إضافيًّا، ولكن دون قتلٍ وتدميرٍ. وليتنازل المتقاتلون عن كلفة الحرب في هذا اليوم، ولتودَع المليارات المقدّمة في صندوقٍ مشتركٍ يموّل إعادة إعمار الممتلكات التي دمّرتها الحرب، وليكنْ أوّل اتفاقٍ سلميٍّ بين الذين سيضطرّون غدًا إلى إعلان الاتّفاق...!

ولم يكتفِ بذلك، بل وصل به الأمر إلى أنّه أرسل رسالةً إلى رئيسَي الدولتين الكبريَيْن، وطلب من كلٍّ منهما ثمن قاذفة قنابل واحدةٍ، بعد أن علم أنّ كلفة الواحدة سبعة مليارات فرنكٍ فرنسيٍّ... وهذا المبلغ كان كافيًا لشفاء جميع بُرْص العالم آنذاك، وفق إحصاءاتٍ دقيقةٍ كان قد قام بها...

وأجد من المهمّ في هذا الإطار، الإشارة إلى مقالةٍ وجيزةٍ بقلمه، نُشرت في جريدة الـڤـاتيكان الرسميّة "أوسرڤـاتوري رومانو" بتاريخ ١٩٧٦/٢/٥، وكانت بعنوان "هؤلاء المتخمون، وأولئك الجياع". يصف فيها ما حدث في "مؤتمر الأغذية العالميّ"، الذي عُقد في روما في شهر نوفمبر عام ١٩٧٤... أقتطف منها بضعة أسطرٍ متفرّقةً:

« ...

النتيجة: أربعة عشر قرارًا صاخبًا، وُلدت ميتةً... ولم يُقَرّ أيٌّ منها، لأنّ الدول الغنيّة رفضت بشكلٍ مخزٍ أن تقدّم أدنى التزامٍ لإنقاذ الجياع.

...

في سياق المناقشات، تعلّمنا بعض الأشياء المفيدة التي، يمكنها بدون شكٍّ، أن "تقطع شهيّة" الجياع.

على سبيل المثال:

تمتلك حاليًا، الدول المتحضّرة المزعومة، مخزونًا من المتفجّرات يبلغ ١٥٠٠٠ كيلوجرامٍ، لكلّ فردٍ من سكّان الكوكب، للقضاء على الجنس البشريّ. بينما، المخزون الغذائيّ يكاد يؤمّن ٣٠٠ كيلوجرامٍ من الخبز أو الأرزّ، للفرد من أجل تمكينه من العيش.

...

أنا خجلٌ من كوني إنساناً! ».

هذا الالتزام العنيد المفعم صدقًا وكرامةً، كان لا بدّ له من سندٍ ثابتٍ يستند إليه في إنجازاته الكبرى، ويتّكئ عليه لمواجهة قسوة الإرهاق والفشل الطاحنة... وقد أجابني شخصيّاً، عندما زرته في مركزه في باريس في ثمانينيّات القرن الماضي، وسألته عن سرّه العميق والأقوى، فأجابني بوجهٍ مشرقٍ بنورٍ عجيبٍ: "يسوع ومادلين"! وكانت تقف بقربه، باسمةً، بوجهٍ لا يقلّ إشراقًا عن وجهه!

والحقّ أنّ لزوجته "مادلين" دورًا هامًّا جدًا إلى جانبه، فوجودها كان يمدّه بالشجاعة لاقتحام معاقل البرْص، فكانت جواز المرور إلى قلوبهم القلقة والمتحفّظة، ممّا جعل الملايين منهم يدعونها: "ماما مادلين"...

أجل، كانا معًا في كلّ شيءٍ، وكانا واحدًا في كلّ ما يستأثر بصلاتهما، وفي كلّ ما كانا يصمّمان على القيام به، وفي كلّ ما حاولا إنجازه!

والحقّ أنّ ما كاناه، كلاهما، وما أنجزاه، كان خارقًا بكلّ المقاييس.

وقد آن لي أن أترك للقارئ أن يكتشف بدوره في تصاعدٍ مبهرٍ، ما احتواه هذا الكتاب من حقائق ووقائع وإنجازاتٍ، فريدةٍ حقًّا، وسط مصاعب لا تُحصى، وعراقيل تتحدّى كلّ ممكنٍ.

وإنّي لأرى لزامًا عليّ أن أشكر لأخي وصديقي أديب مصلح، حرصه على تقديم هذه السيرة الجذّابة والخارقة، في زمنٍ دأب فيه الغرب، في تخطيطٍ وغباءٍ غريبَيْن، على تدمير الأسرة فيه وعلى نطاق العالم، علمًا بأنّها الخليّة الأساس في جميع المجتمعات.

عسى أن يكون بطلا هذا الكتاب- الشهادة، "راوول فولّيرو" وزوجته "مادلين"، نموذجَيْن قادرَيْن على استنهاض الكثيرين والكثيرات، في مجتمعاتنا العربيّة المتهاوية، من أجل بعث مجتمعٍ عربيٍّ سليمٍ، لن تقوم له قائمةٌ، دون وجود أسرةٍ سليمةٍ، قويّةٍ بإيمانها ومحبّتها.

دمشق ٢٠٢١/٥/٢٠ — الأب الياس زحلاوي

تمهيـد

« ليس مسيحيًّا من لا يمدّ يده لمساعدة سواه »

(پيغي)

عمرُ البَرَص مجايلٌ لعمر التاريخ، وقد دوّن أثره على سجلاّت أجدادنا الأوائل.

فموسى الذي كان مشرِّعًا يهوديًّا في القرن الثالث عشر قبل المسيح، قد فرض تدابير شديدة الصرامة على المصابين بهذا الداء، وألزمهم بالعيش بعيدًا عن مجتمع الأصحّاء، وتغطية وجوههم بنقابٍ، وبتحذير المارّة من خطر عدواهم، وهم سائرون في الشارع، بهتافهم: "نجسٌ، نجسٌ!".

وقد ورد ذِكر داء البرَص في كتب الهند وفارس في القرن السادس قبل المسيح. وذكر المؤرّخ اليونانيّ "هيرودوتُس" في القرن الخامس قبل المسيح، أنّ دخول المدن، والاتّصال بسكّانها محظوران على المصابين بهذا الداء، من جرّاء ارتكابهم ذنوبًا بحقّ الشمس. وكانوا يُمنَعون من اقتناء طيور حمامٍ بيضاء.

على امتداد تلك العصور كان البَرَص يُعدّ لعنةً إلهيّةً، والآفةَ الكبرى التي تضرب إنسانًا، وكان المصابون به يُحكَم عليهم بالإهمال، والنبذ، والعقاب الأبديّ.

إلى أن وطئت قدما يسوع الناصريّ أديمَ كوكبنا، واستهلاله عهدًا جديدًا، عهد الرحمة والمحبّة والعطف على كلّ ضعيفٍ، ومريضٍ ومنبوذٍ، فصافح البُرْصَ، وشفاهم أفرادًا وجماعاتٍ، وجالسهم على موائدهم.

وفي إثر يسوع، وحبًّا به، تمثّل به أتباعٌ أبطالٌ، أبرزهم القدّيس فرنسيس

الأسّيزيّ، الذي كان يسكنه نفورٌ فطريٌّ لا يُقاوَم من أولئك الذين تفسّخت أعضاؤهم، وباتت تبعث روائح إنتانٍ تزكم الآناف. وكان لهؤلاء محجرٌ على مسافة ثلاثة كيلومتراتٍ من مدينة أسّيزي. وكان فرنسيس الشابّ، في مطلع عهد عودته إلى يسوع، كلّما رأى أحدهم من بعيدٍ، يلوذ بالفرار، وإذا خطر له أن يحسن إليه، فكان ينتدب رفيقًا له بأن يحمل إليه ما جاد به قلبه.

واتّفق أن التقى أحدهم وجهًا لوجهٍ، وهمَّ بليِّ عنان فرسه والفرار، ولكنّه، بغتةً، قمع نفوره، وترجّل مصارعًا بركان التقزّز الذي تفجّر في داخله، وضمّ الأبرص بين ذراعيه، وقبّله. وتدعيمًا لهذا الانتصار على ذاته، شخص برفقته إلى المحجر، وجمع سكّانه البُرْص، واستصفحهم عن كلّ ما أبداه لهم، سابقًا، من نفورٍ حيالهم، وازدراءٍ لهم؛ ولم يغادرهم إلاّ بعد أن قبّلهم، فردًا فردًا. ومنذئذٍ بات يدعوهم "إخوتي المسيحيّين".

وعلى غراره نهج الملك القدّيس لويس الثالث عشر، الذي كان يتجوّل، يومًا، في أزقّة مدينةٍ فرنسيّةٍ، فصادف إنسانًا شوّه البَرَص محيّاه، وأمعن في أعضائه فتكًا، وكان يطقطق خشبتين، منذرًا المارّة بالابتعاد عنه، فمضى إليه الملك مباشرةً، ولم يكتفِ بإيداع حفنةٍ من الذهب بين يديه، بل أقبل على تينك اليدَين المشوّهتَيْن تقبيلاً.

وكان الملك قد اعتاد زيارة ديرٍ، فيه راهبٌ أبرَص، فدأب على خدمته بنفسه، وعلى إطعامه بيده، وكان يجلب له الطعام والحلوى التي يعدّها له خدّام قصره. وكان يركع أمامه، متأمّلاً صورة المخلّص فيه.

في القرن التاسع عشر، بذل الأب البلجيكيّ، القدّيس "داميان" نفسه في خدمته بُرْص "مولوكاي"، في جزيرة هواي، حتّى التقط عدواهم وسقط شهيدَ محبّته لهم وليسوع.

وفي العصر الحديث، استحقّ لقب "رسول البُرْص" و"مشرّد المحبّة" علمانيٌّ، شاعرٌ، التقى، صدفةً، بُرْصًا في أفريقيا، فجرحت مأساهم قلبه، وفجّرت كنوز المحبّة الكامنة في أعماقه، فكرّس ذاته، ومؤهّلاته كلّها، من أجل رفع الضيم عنهم، واستعادة حقوقهم الإنسانيّة، وكرامتهم السليبة.

هذا الرسول، مجنون المحبّة هو "راوول فولّيرو"، الذي شنّ معركةً "ليست كسائر المعارك"، وظّف لها أسلحة العطف، والكلمة، واستهدف منها غوث المنكوبين بالبَرَص جسديًّا وروحيًّا، واجتثاث الداء من جذوره، بالتعاون مع علماء أكبّوا على استنباط علاجٍ يقضي على الداء وتوفيره على نطاقٍ عالميٍّ، بكلفةٍ زهيدةٍ.

كان فولّيرو قد تيقّن، باكرًا، من قدرة العلاج الصحيح على الشفاء الجسديّ من المرض، ولكن ظلّت تؤرّقه عواقب الشفاء، وأحكام المجتمع العنيدة الخرقاء، التي تدّعي أنّ اللعنة التي تحلّ بأبرص هي لعنةٌ مؤبّدةٌ، لا تُمحى ولا تزول، وتوجب نبذ المصاب، وسجنه في لعنته، حتّى بعد شفائه. وتقتضي نبذه، وحرمانه من حقّ العمل الذي يؤكّد إنسانيّته الجوهريّة، ويُتيح له وسائل العيش الكريم.

تساءل فولّيرو، إذن، عن جدوى انتشال أبرص من مرضه، إذا استمرّ تعنّت المجتمع، جهلاً، وأنانيّةً، وظلمًا، يعدّه ملعونًا، حتّى يحين أوان إيداعه تحت التراب. وعقد العزم على متابعة معركته على جبهتين: تقديم العناية والعلاج الشافي للمريض، والذود عن حقوقه وكرامته الإنسانيّة، وفي الآن عينه السعي من أجل شفاء أصحّاء الأجساد من أوهامهم الخرقاء، ومخاوفهم الباطلة، وغبنهم الإجراميّ.

وفي تلخيصٍ لمراحل كفاحه، صرّح فولّيرو:

« لقد آتتني رحلاتي عبر العالم دواعي رجاءٍ رائعةً، وفرحٍ جمٍّ، وأيضًا، دواعي مآسٍ فاجعةٍ. فمن المحزن أنّه ما زال في آسيا وأفريقيا، بُرْصٌ مُهمَلون،

بائسون، يائسون، منبوذون. ولكن هناك، بالمقابل، ما يُشعر بفجرٍ جديدٍ: بُرصٌ سابقون، تحرّروا من وصمة البَرَص، وأصبحوا بشرًا كسائر البشر، مسؤولين قابضين على زمام مصيرهم، يكسبون معيشتهم بعملهم، وينعمون بالاحترام.

"لقد رأيتُهم في السينيغال يقودون شاحناتٍ على الطرقات، ويبنون مساكن، ويصيدون أسماكًا، ويبنون مساكن لرفاقهم وللآخرين في أماكن متعدّدةٍ. ورأيتهم في الهند حائكين ونسّاجين، وصانعي دمًى. وفي مواقع أُخرى شاهدتهم يعملون في المكاتب، ورأيت منهم ممرّضين، وحرّاسًا ليليّين. ورأيت أحد أوائل "أبنائي"، وقد أمسى مدير مدرسةٍ في مدينةٍ أفريقيّةٍ كبرى. ولم يستلزم تحقيق هذه التحوّلات المعجزة سوى الزهيد من الجرأة، والجمّ من المحبّة.

"وها إنّ أرهاطًا من البُرص الذين كانوا، سابقًا، ملعونين، منبوذين، مقهورين، يؤرّقهم الخوف، ويذلّهم الظلم، وقد باتت قلوبهم تضجّ فرحًا واعتزازًا، وتدوّي ضحكاتهم في قلب العالم. »

لقد شُبِّهت معركة "راوول فولّيرو" على البَرَص، بالمعركة التي أفضت إلى إلغاء العبوديّة.

ولا بدّ من التنويه بأنّ معركة فولّيرو لم تقتصر على البَرَص الجسديّ، بل شملت شتّى أشكال البرص النفسيّ التي تولّد الفقر والمرض، والجهل، والبؤس، وجميعها ناشئةٌ من خلوّ نفوس القابضين على مقاليد السلطة والمال من المحبّة.

وفي جميع هذه المعارك، برهن "راوول فولّيرو" عن عبقريّةٍ نادرةٍ في إيقاظ الضمائر، وفضح الأنانيّات، وشقّ دروب محبّةٍ جديدةٍ، وتفجير ينابيع سخاءٍ ثرّةٍ.

ولنبحر، الآن، في خضمّ ملحمة فولّيرو الفذّة.

أديب مصلح

الفصل الأوّل

شخصيّةٌ فذّةٌ تتكوّن

« بمعــزلٍ عــن المحبّــة، الرجــاء ضــئيلٌ،
والحياة لا شيء، فالمحبّة صلاةٌ وعمادةٌ »

« المحبّة تقهر كلّ شيءٍ، وتشفي كلّ ألمٍ »

« لـن تكتمـل سـعادتي حتّـى أراهـا تغمـر
الأرض كلّها »

"فولّيرو"

شخصيّةٌ فَذّةٌ تتكوّن

رأى راوول فولّيرو النور، يوم ١٩٠٣/٨/١٧، في مدينة، "نيـــڤير" (Nevers) الفرنسيّة. وكان ثاني ثلاثة أبناء السيّد إيمّي والسيّدة پولين فولّيرو. والـــده كـــان صاحب مصنع أبنيةٍ معدنيّةٍ. ولكن لم يتسنّ لراوول عقد علاقاتٍ وثيقةٍ معـــه، لأنّ إيمّي فولّيرو عُبّئ في الجيش، بسبب حرب ١٩١٤–١٩١٨، ولقي حتفه فيها، ولم يكن راوول، بعدُ، قد تخطّى الثالثة عشرة.

والدته كانت قويّة الشكيمة، فتولّت بنفسها إدارة المصنع، وأرسلت ابنها البكر إلى معهدٍ صناعيٍّ، كي يتأهّل لمساعدها، وطلبت من ابنها راوول إيقاف تعليمه الثانويّ، والالتحاق بأخيه الأكبر، للغاية عينها، آملةً أن يتولّى ابناها معًا إدارة المصنع.

ولكن، سرعان ما اتّضح أنّ راوول لم يُخلَق للعمل التجاريّ، ولا للانخراط في عالم الأعمال والمال. ومنذ أيّامه الأولى في المعهد الصناعيّ تساءل رفاقه: "ماذا جاء يعمل هنا هذا الفتى الشاعر؟ إنّه لا يصلح إلاّ للأدب". من المؤكّد أنّهم كانوا يستمتعون بعذوبة حضوره الشيّق، وبتفجّر آرائه الغريبة عن اهتماماهم. كان يقرأ لهم قصائده، وكان بعضٌ منهم يقرأونها، خلسةً، أثناء دروسهم؛ ومع متعتهم بإشعاعه كانوا يتساءلون عن مصيره المتنافر مع ما تبتغيه أُمّه منه.

مقتضيات الحرب هي التي كانت، حينذاك، تتحكّم بمصائر المواطنين. فبعد قضائه سنةً في المعهد الصناعيّ، كُلِّف راوول بصنع قذائف. وكم كان هذا العمل متعارضًا مع ميول من سيصبح رسول السلام العالميّ، وداعيًا القوى العظمى إلى الإعراض عن هدر ميزانيّاتٍ هائلةٍ على تكديس أدوات القتل والتدمير، وإيثار إنفاقها على معالجة الأمراض الفتّاكة، ومكافحة الجوع والفقر والبؤس!

ولم يُطِق عميد معهد "سان سير" في مدينة "نيــڤير"، أن يُبعَد ذلك الشابّ اللاّمع، قسرًا، عن التعليم، وتُهدَر، عبثًا، مواهبه النادرة. فدعاه للحضور إلى مكتبه، إثر الفراغ من عمله الحكوميّ، كي يستعيد ما فاته من دروسٍ، ويُعدّه لامتحان البكالوريا الذي اجتازه بنجاحٍ، ثمّ أنهى سنة البكالوريا الثانية المعروفة بسنة الفلسفة، في "سان سير". ولكنّ رسوبه في هذا الامتحان أدهش الذين كانوا ملمّين بقدراته الفكريّة والتعبيريّة، وتفاقمت دهشتهم من جرّاء رسوبه ثانيةً في امتحان الإعادة الذي تقدّم له في شهر أيلول من العام نفسه، وكان راوول قد قرّر أنّ رسوبه ناجمٌ عن تضاربٍ بين آرائه المستقاة من إيمانه، وتعاليم الإنجيل التي كان مشبَعًا بها، وآراء الأساتذة الفاحصين، الميّالة إلى الإلحاد، فاحتاط للأمر، أثناء فحص الإعادة، واحتفظ بنسخةٍ عن المادّة التي قدّمها، وعرضها على مفكّرين محايدين، مرموقين، فاستنكروا رسوبه، وعدّوه فضيحةً، واحتجّوا، علنًا، على انحيازٍ فاضحٍ من قبل لجنة الامتحان. وقاسمتهم السلطات الأكاديميّة استنكارهم، وأتاحت لفولّيرو التسجيل في جامعة السوربون، والتأهّل، فيها، لإجازةٍ في الفلسفة.

حينئذٍ، أدركت والدة راوول خطأها، بدفعه في اتّجاهٍ يعاكس ما وُجد من أجله، ومن ثمّ القضاء على مواهبه النادرة. وأتاحت له الانتساب إلى جامعة السوربون؛ فأقام لدى أقارب له في باريس، وأكبّ على دراسة الفلسفة، وحظي بأن يكون أحد أساتذته الفيلسوف العبقريّ هنري برغسون. وقد انحفر في أعماق راوول فولّيرو قولٌ لبرغسون، أكّد فيه: "يفتقر عالمنا إلى مزيدٍ من الروح".

لمع نجم فولّيرو في جامعة السوربون، حيث أحرز نجاحًا باهرًا، وحصــل علــى إجازتَين، إحداهما في الفلسفة، والأُخرى في الحقوق، وهو، بعدُ، في سنّ العشرين.

منذ سنّ الخامسة عشرة، كانت قد تبلورت فلسفة راوول فــولّيرو، وبــرزت

خطوطها الرئيسة من خلال محاضرةٍ ألقاها، استجابةً لطلب الأخوات الصغيرات في مسقط رأسه. وفي عام ١٩٢٠، أصدر كتيّبًا، بعنوان "كتيّب الحبّ"، ضمّنه وصايا لتفادي الحروب. ثمّ أكمله بعد خمسين سنةً، وجعل منه وصيّته الروحيّة. وقد تُرجِم هذا الكتاب إلى عشرات اللغات، ووُزّعت منه ملايين النسخ، على امتداد العالم. ويمكن إيجاز قناعاته وتطلّعاته، حينذاك، كما يلي:

- **الحياة السليمة هي مساعدة الآخرين على حياةٍ كريمةٍ.**
- **السعادة هي إسعاد الآخرين.**
- **سأجعل من كلّ أيّام حياتي فعلَ حبٍّ مكتملٍ.**
- **يا جميع المحرومين، والمهملين، والمفتقرين إلى مأوًى وأملٍ، أنتم يا من يزدريهم المجتمع، ويحتقرهم، تعالوا إليّ فأنا أحبّكم.**

وفي العاشر من حزيران ١٩٢٣، عقد فولّيرو محاضرةً في مجمّع الشركات العلميّة، بعنوان "الله محبّةٌ". وفي أثنائها استشهد بقول أفلاطون: "المحبّة هي التي تمنح البشر السلام، والبحرَ الهدوءَ، والريحَ الصمتَ، والألَمَ السبات". وختم محاضرته بقوله: "القلب هو مفتاح السماء".

منذ مطلع شبابه كان راوول فولّيرو قد اكتسب خبرةً بمصاعب الحياة نضجت قبل أوانها. وكان شاعرًا يجيد الرؤية والسماع، وقلبه يتوجّع لكلّ ألمٍ وكلّ ظلمٍ. كان يؤلمه بؤس الآخرين، وألمهم كان يوجعه، وكانت أنانيّة المجتمع ولامبالاته حيال هذا البؤس تهولانه.

هذا الوجع كان سرّه، ومنبع قوّته، ومحرّك حياته كلّها. وهذا ما عبّر عنه من خلال صلاةٍ هتفها، لاحقًا: "يا ربّ، اجعل آلام الآخرين توجعنا".

لم يكن، بعدُ، اطّلع على مأساة البُرْص، التي ستستحوذ على خمسٍ وأربعين سنةً من

حياته. ولكنّ مساحة البؤس التي أحدثتها الحرب كانت كافيةً لسحق قلبه الشابّ.

وبحث عن وسائل لمكافحة البؤس، فلم يجد خيرًا من المحبّة؛ وشرع قلبه يجيش، ويتجلّى جيشانه من خلال محاضراتٍ كان يطلق منها، بصوته الهادر، وكلماته الناريّة، نداءات محبّةٍ وسخاءٍ، وتنديدٍ بالجبن، والأنانيّة، والتخاذل، واللامبالاة.

هذه النداءات التي بدأ يطلقها من كنيسة الأخوات الصغيرات في مسقط رأسه، وهو في عزّ عنفوان سنواته الخمس عشرة، ما انفكّ صوته يدوّي بها، أمام جماهير متباينة الأصول والمشارب، في شتّى أقطار العالم، من منابر كاتدرائيّاتٍ مهيبةٍ، ومسارح شهيرةٍ، وحتّى في تجمّعاتٍ شعبيّةٍ في المجاهل والأدغال، لم ينقطع عن الجهر بها حتّى مغيب حياته، في منتصف العقد الثامن من عمره، وحينئذٍ، كانت الإنجازات المدهشة التي حقّقها تضفي على أقواله مصداقيّةً طاغيةً، ووزنًا، وقوّة إقناعٍ.

وكان، منذ محاضرته الأولى، بعنوان "الله محبّةٌ"، قد أرسى المبادئ التي أخضع لها مسيرته كلّها، وحدّد معالمها الرئيسة:

- **المحبّة هي الحياة، وخيانة المحبّة هي الموت.**
- **لا تقل "أنا"، عندما تتكلّم عن مجموعةٍ أنت من أفرادها، ولا تقل "هم"، عندما تتكلّم عن الغير. بل، في الحالتين، قل: "نحن".**
- **الوسيلة الأكيدة الناجعة لضمان السعادة الشخصيّة، هي السعي إلى تأمين سعادة الآخرين.**

خدمةٌ عسكريّةٌ وزواجٌ

يوم ألقى راوول محاضرته في كنيسة الأخوات الصغيرات في "نيـڤير"، كانت جالسةً في صفوف الحضور فتاةٌ تدعى "مادلين"، تشاطر الخطيب، بكلّ أوتار كيانها، اندفاعه، وتوثّبات محبّته. كان عمرهما معًا لا يتخطّى الثلاثين عامًا. وكانا قد التقيا، يوم إعلان الهدنة، عام ١٩١٨، إذ كانا، كلاهما، يبيعان باقات زهورٍ بلون العلم الفرنسيّ، لصالح ضحايا الحرب. وسرعان ما تبيّن لهما أنّهما مدعوّان إلى توحيد مصيرهما، ومساعيهما على درب المحبّة.

ومن وحي هذا الحدْس كتب فولّيرو: "القلب هو قوّة الكون الكبرى، القوّة الوحيدة الخلاّقة".

كان يضجّ اندفاعًا لتحقيق أحلام المحبّة المتزاحمة في ذهنه. ولطالما عبّر عن هذه التطلّعات بأقوالٍ مثل:

« لقد كان النصر، دائمًا، حليف من لم يشكّ أبدًا »

« قد لا يفهم آخرون هدفنا، ومثلنا الأعلى. ولكن لا بأس. وستنهمر علينا عبارات السخريّة، والازدراء. ومع ذلك، فلنمضِ قُدُمًا، أيّها الأصدقاء. ولن يكون كفاحنا أبدًا مفرطًا في القسوة، ولن يكون حلمنا، أبدًا، مسرفًا في الكِبَر ».

غير أنّ هذا الاندفاع العارم لجمته، مؤقّتًا، تعبئة راوول، في الخدمة العسكريّة، في خريف عام ١٩٢٣.

كان راوول، حينذاك، قصير القامة، ممتلئ الجسم، عريض الجبين، ذا وجهٍ مستديرٍ، تنيره عينان تضجّان فرحًا، وتتوسّطه شفتان مضمومتان تتجلّى، من خلالهما، إرادةٌ عنيدةٌ، وعزيمةٌ منيعةٌ. ويحيط بعنقه رباطٌ عريضٌ، غير معقودٍ، أصبح

له علامةً فارقةً، ويلازم يدَه عكّازٌ بقبضةٍ مصنوعةٍ من العاج، على شكل رأس دبٍّ، تشير إلى سورات الغضب التي كانت تنتابه، أحيانًا، في صغره. وكانت والدته قد أهدته هذا العكّاز إثر تعرّضه لحادثٍ، فرافقه، بلا فكاكٍ.

أُلحق، إذن، المجنّد راوول فولّيرو بفوج المدفعيّة، حيثُ كُلِّف بتدريس أبناء العسكريّين الفرنسيّين مبادئ الفلسفة.

وفي الحجرة الكئيبة التي كان يلجأ إليها مساءً، كانت مخيّلته تداعب طيف الحبيبة الغائبة، دائمة الحضور والمحاصَرة، معطِّرةً وحدته بذكرياها الرقيقة الشفّافة، تلك التي التقاها لخمس سنواتٍ خلت، عندما كان كلٌّ منهما في الخامسة عشرة، والتحم مصيرهما على خوض معركة المحبّة، معًا، يدًا بيدٍ.

وتحقّق حلمهما، وابتدأ مشوارهما معًا بزواجهما، يوم ١٩٢٥/٦/٢٢. وقد بارك قرانهما الأب "بورغوان"، أُستاذ راوول السابق. وكان ذلك القران تحقيقًا لقول "سانت إكسوپيري:

"ليس الحبّ تحديق الواحد بالآخر، بل تطلّعهما، معًا، في اتّجاهٍ واحدٍ".

وفي عام ١٩٧٥، بمناسبة يوبيل زواجه الذهبي، استضافته إذاعةٌ سويسريّةٌ، واستوضحته عن قصّة زواجٍ اجتاز نصف قرنٍ، فأفاد:

« بمناسبة الهدنة، انتدبت مدينة "نيڤير" مسقط رأسنا، مجموعاتٍ من فتاةٍ وشابٍّ، كي يبيعا، معًا، باقات زهورٍ، بألوان العلم الفرنسي، لصالح ضحايا الحرب، ووقع الخيار على جمعنا، مادلين وأنا، لهذه الغاية. وقد راقت لنا المهمّة. وحدّقنا، معًا في المرآة، ولم نكتشف أنّنا جميلان، بل اكتشفنا أنّنا متشابهان، وأنّنا نحمل المثُل العليا نفسها. وحينئذٍ قرّرنا أن نتزوّج... وكان بدهيًّا أن يهزأ ذوونا من قرارنا، ونحن في ذلك العمر. بيد أنّنا ضحكنا أخيرًا، فقد تزوّجنا بعد سبع سنواتٍ. وها قد مضى على زواجنا خمسون سنةً.

"تسألون هل هذه مدةٌ طويلةٌ؟ بصراحةٍ لم تبدُ لنا كذلك. فقد كانت أيّامًا سعيدةً، تليها أيّامٌ سعيدةٌ. وقد يبدو هذا القول مستهجنًا للأزواج الحديثين، الغارقين في الخصامات، وقارعي أبواب الطلاق ».

وسُئل فولّيرو عن رأيه في من يُعِدّون شروط طلاقهم قبل الزواج، فأجاب:

« إنّ هذا زواجٌ زائفٌ ومعاكسٌ للدرب السويّ. وإنّه خيرٌ الإحجام عن الزواج، من الزواج على هذا النحو. كنّا سعيدين لأنّنا جهدنا في إسعاد الآخرين. وقد سعينا، على امتداد نصف قرنٍ إلى إغاثة أشدّ الناس بؤسًا، ولم تبدُ لنا الرحلات الاثنتان والثلاثون حول العالم، التي قمنا بها، دائمًا معًا، في سبيل البُرص، إلاّ مثل يومٍ واحدٍ طويلٍ.

"وكانت حياتنا معًا سعيدةً جدًّا، وقد جهدنا، أثناءها، في تحقيق عملٍ قيّمٍ، وحقّقناه بكلّ قلبنا، وبذلنا في سبيله كلّ طاقاتنا، لأنّ قلبَيْنا كانا ملتزمَيْن به، ولأنّنا كنّا ملتزمَيْن أحدنا تجاه الآخر.

"لم نخجل من سعادتنا لأنّنا أسّسناها على إسعاد الآخرين وعلى خدمة البُرص، وغوث أتعس بني البشر، وإظهار حبّنا لهم.

"من المحقّق أنّنا تلقّينا ضرباتٍ موجعةً. قد تسأل، اليوم، سيّداتٌ متأنّقاتٌ، مطليّاتٌ بمساحيق التجميل، زوجتي: "من المؤكّد أنّك استمتعتِ بأسفاركِ". فتبتسم مادلين، ولا تجيب، إذ يتبادر إلى ذاكرتها، يوم ألمّت بها بغتةً نوبة التهاب الزائدة الدودية، التهابًا حادًّا، ونحن على حدود بوليڤيا والأرجنتين، يفصلنا ألف كيلومترٍ عن أقرب عيادة طبيبٍ، فقضينا ليلتنا في كوخ هنودٍ حمرٍ مشرّعٍ للريح، لأنّ بابه لا قفل له، ونحن لا نملك سوى بقيّة شمعةٍ يتدنّى طولها عن ثلاثة سنتيمتراتٍ، وخمسة أعواد كبريتٍ...

وربّما جال ببالها، ما يجول ببالي الآن، عندما نفد وقود الزورق الذي كان يقلّنا في نهر الأمازون، فيما كانت العاصفة تزمجر، والمطر ينهمر مدرارًا،

فاضطررنا إلى التجذيف بواسطة علب كونسروة، حتّى وصلنا إلى جزيرةٍ صغيرةٍ تقطنها جماعات التماسيح، ويدوّي في أجوائها طنين ملايين البعوض...

وهل يسعنا نسيان الحمّى الصاعقة التي اجتاحتنا كلينا في الكونغو، وأصابتنا بالهذيان. فما عاد أحدنا يفهم ما يقوله الآخر، وسلك كلٌّ منّا درب هذيانه الخاصّ، إلى أن فارقتنا الحمّى، في اليوم التالي.

"لقد قلت وما زلتُ أؤكّد جازمًا، أنّ مكافحَيْن متكاتفَيْن يتعذّر غلبهما، فمثل هذه العوائق في الطريق كانت كفيلةً بتثبيط عزيمة شابٍّ بمفرده. غير أنّ وجود زوجةٍ تشاطرني أهدافي وكفاحي، نجّاني من التردّي إلى التخاذل. ولست أذكر أنّني اجتزتُ مسافة ألفي كيلومترٍ، في كلّ مسيرتي، ما لم تكن مادلين معي. وقد وهبني وجودها الدائم إلى جانبي، أينما ذهبت، شجاعةً على اقتحام معاقل البُرْص. فلو زرتها بمفردي لظنّوني غريبًا فضوليًّا، أو جاسوسًا، أو في أفضل الأحوال موظّفًا حكوميًّا، ولكنّ وجود مادلين معي كان خير معينٍ لي على مقابلة البُرْص، طاردًا خوف الصغار، وريبة الكبار وتحفّظهم؛ وكانت مرافقتها لي تخلق لديهم جوّ طمأنينةٍ وارتياحٍ، وكان حنانها يشيع مشاعر ثقةٍ، ومودّةٍ، وصداقةٍ. كانت تداعب الصغار فتطمئنّ نفوسهم، وتبتسم أمّهاتهم، ويُعجَب آباؤهم. فلا غرابة إن دعاها ملايين البرص في العالم، "ماما مادلين". وكان أعذب عزاءٍ تتذوّقه رؤية أشدّ سكّان الأرض بؤسًا، يمدّون لها أيادي فقدت أصابعها، وأذرعًا فقدت أيديها، متمتمين: "نحبّك، يا ماما مادلين "! ».

وروى راوول، في هذا السياق قصّة فتًى من أبيدجان (عاصمة ساحل العاج) يُدعى "پيير"، يناهز الخمسة عشر ربيعًا، كان يسوق حياةً هادئةً، في أحضان أُسرةٍ ميسورةٍ. وذات يومٍ، ظهرت على وجهه بقعٌ شخّصها طبيبٌ دلائل بَرَصٍ، فطرده مدير المدرسة، ورفض والداه استقباله في البيت، ومنذئذٍ حمل پيير وصمة البَرَص الأبديّة، وتدحرجت حياته على وهاد البؤس، والنبذ. وذات يومٍ كان

راوول وزوجته يزوران منفًى حُشِد فيه جمعٌ من منكودي الحظّ، بُرصٍ، ومجـــانين، ومصابين بأمراضٍ مخزيةٍ، حتّى بات جحيمًا تتصارع فيه وحوشٌ بشريّةٌ. وفيه وجدا ذلك الفتى الضحيّة، وكان القنوط قد سلبه القدرة على النطق. فكلّمـــا حـــاول التلفّظ بكلمةٍ كانت العبرات تخنقه. فأخذته مادلين من يـــده، وأجلســـته علـــى ركبتيها، وأحاطته بذراعيها، وأرجحته طويلاً، متحدّثةً إليه، مغدقةً عليـــه الحنـــان والقبلات، إلى أن أشرقت بسمةٌ على ليل ذلك المحيّا الذي أغلقه اليأس.

حينئذٍ أخذ فولّيرو الفتى إلى مدينة "أدزوبـــي"، حيث نعم بشفاءٍ جسديٍّ ونفسيٍّ، وعاد إلى مدرسته التي طرده منها مديرٌ أحمق وقاسٍ، كان قد أُقصي عنها هو أيضًا.

وختم راوول روايته بقوله:

« هذه هي إحدى صنائع ماما مادلين، التي أمضيتُ معها، أو بالحريّ أمضينا معًا خمسين سنةً وفيرة الثمار. أجلْ، أحبّها، وأفخر بها ».

لقد كانت له مادلين الزوجة المثاليّة، والرفيق الدائم، والســـكرتيرة اليقظـــة، والنجيّة والمشيرة. قاسمته مغامراته، وأتعابه، وهمومه، بكتمانٍ وتواضعٍ. وبالإجمـــال كانت له، في كلّ لحظةٍ، الملاك الحارس.

ولطالما ردّد: "إنّ حظّ حياتي الأكبر هو زوجتي"!

واستخلص:

« إنّ الزواج السليم هو التحابّ، ومشاطرة هدفٍ واحدٍ. الهدف الأمثل ليس هو ما يراود كثيرين من أبناء اليوم، الذين يحلمون، وهم ما زالوا يمتصّون رضّعاتهم، بتقاعدٍ مريحٍ، حيث يودعون حياتهم في مرآبٍ، بل الهدف الأمثل هو إنجاز عملٍ ذي بالٍ، والاستمرار في البناء، والترقّي، بلا هوادةٍ، حتّى الرمق الأخير.

"والحلم الأجمل هو أن يتيح المرء لوجوده البشريّ المسكين، والعليل أحيانًا، والهزيل غالبًا، مساعدة آخرين، بل حتّى إنسانٍ واحدٍ، على تذوّق السعادة.

"أظنّ أنّ من يحقّق هذا الحلم لن يخشى الشيخوخة. وها نحن نشيخ غير خائفين من الغد، ولا آسفين على شيءٍ مضى ».

انطلاقةٌ أدبيّةٌ ووطنيّةٌ

في سبيل تأمين أوَد الأُسرة الناشئة، خطر لراوول ممارسة المحاماة، وتـدرّب في مكتب محامٍ شهيرٍ، ولكنّه لم يرضَ الدفاع إلاّ عن القضايا الإنسانيّة، ومجّانًا. ومـا لبث أن تبيّن أنّ ميوله الأدبيّة تطغى على مهنته الحقوقيّة، فتـولّى رئاسـة تحريـر جريدةٍ، أفاض في نشر مقالاته، ونداءاته الإنسانيّة فيها، ودأب على نظم قصـائد كانت ممثّلةٌ فرنسيّةٌ شهيرةٌ تتلوها على المسرح الفرنسيّ الشـهير "لا كوميـدي فرنسيز" (La Comédie Française). وألّف مسرحيّاتٍ قُدِّمت علـى مسـارح فرنسيةٍ عديدةٍ.

وأسّس، أيضًا، "الاتّحاد اللاّتينيّ"، بغيةَ الذود عن الحضارة السليمة، ومعارضة عبادة الأصنام، وكلّ أصناف البربريّة المتكاثرة، ردًّا على تنامي التوتاليريّات، والنازيّة التي شرعت تذرّ قرنها.

ثمّ أطلق حملة "الكتاب الفرنسيّ"، وبفضل سخاء دور نشرٍ قدّم آلاف الكتب الفرنسيّة إلى المعاهد الفرنسيّة في العالم، وخاصّةً في أميركا اللاتينيّة. ودعمًا لهذه الحملة، كلّفته معاهد فرنسيّةٌ بإلقاء محاضراتٍ، بهذا الشأن، في مختلف بقاع العالم.

ترحالٌ حول العالم

مهمّة التعريف بالثقافة الفرنسيّة أقحمته، مع زوجته، رفيقته الدائمة، في تيّار ترحالٍ لا يهدأ، استهلّه برحلةٍ إلى أميركا الجنوبيّة.

يوم ١٩٣٠/١٠/٧ أبحرا من بوردو، في رحلةٍ استغرقت ١٩ يومًا، وتسنّى لهما يوم ١٩٣٠/١٠/٢٦، تأمّل روائع خليج ريو دي جانيرو. غير أنّ الثورة المضطرمة هناك حالت دون مكوثهما في تلك المدينة، واكتفى راوول بتقديم محاضرةٍ، عبر الإذاعة، عن صديقه الشاعر الرومانيّ ڤرجيل. ويمّما شطر مونتيڤيديو، عاصمة الأوروغواي، حيث خطب راوول بمناسبة اختتام السنة الجامعيّة. وفي بوينُسَايْرس، زار المؤسّسات المدرسيّة التي يديرها فرنسيّون. وفي معهد إخوة المدارس المسيحيّة، ترأّس الاحتفال بتوزيع الجوائر على الطلاّب، بحضور نحو ستّة آلاف شخصٍ من ذوي الطلاّب وأصدقائهم، وفي قاعة الاحتفال تعانق العلمان الفرنسيّ والأرجنتينيّ. وقوبل وصول فولّيرو بالنشيد الفرنسيّ (لا مرسيّيز)، تلاه مهرجان أغانٍ فرنسيّةٍ قديمةٍ.

ثمّ كان على راوول وزوجته الشخوص إلى الشيلي. ولم تكن وسائل النقل متيسّرةً، ولكنَّ حسن طالعه جمعه بشابٍّ أُسطوريٍّ، هو أحد روّاد الطيران فوق المحيطات، يدعى "جان ميرموز" الملقّب برئيس الملائكة، الذي كان، حينذاك، يفتتح طريقًا جوّيًّا للبريد. وقد ارتضى أن يوصلهما بطائرته إلى غايتهما. ولم تكن الطائرة تتّسع إلاّ لمقعدٍ واحدٍ بقرب قائد الطائرة. واتّفق أنّ معاون القائد الذي يتولّى الاتّصال بالأرض لاسلكيًّا، لم يسافر في ذلك اليوم، فاحتلّ فولّيرو مكانه، وأجلس زوجته على ركبتيه. وتضمّن برنامج الرحلة توقّفًا أوّل في مدينة مندوزا

الأرجنتينيّة، حيث كانت أحوال الطقس رديئةً، فطالب القائد ميرموز موظّفي المطار باتّخاذ كلّ التدابير الوقائيّة الكفيلة بتأمين هبوطٍ آمنٍ. واستغرب فولّيرو هذا الإسراف في الاحتياط، وقال، مازحًا: "لا يموت المرء إلاّ مرّةً واحدةً". فحدّق إليه ميرموز بعينيه الزرقاوين الثاقبتين معترضًا: "إنّ واجبنا الوصول السليم إلى هدفنا، لا الموت". وعلّق فولّيرو لاحقًا على هذا الاعتراض بقوله: "تعلّمت من ميرموز، ما هو الواجب، وأنّ على الذين يحملون رسالةً التحلّي بالشجاعة، وما الشجاعة إلاّ بطولةٌ يوميّةٌ".

وكانت مرحلة الرحلة الأخيرة هي الأكثر عرضةً للخطر، لأنّها تستوجب اجتياز منطقةٍ جبليّةٍ تشمخ قممها حتّى ستّة آلاف مترٍ. ولذلك اختار ميرموز طائرةً أُخرى، خفيفةً، ذات محرّكٍ واحدٍ، ولا قدرة لها على التحليق إلى أبعد من ثلاثة آلاف مترٍ، عندما تكون في أفضل حالاتها. ومن ثمّ عليها، من أجل اجتياز تلك المنطقة، استخدام أسلوب "الطيران الشراعي"، والعبور بين فجوات جبالٍ صخريّةٍ، عاريةٍ، عاتيةٍ، سابحةٍ في خضمّ الغيوم، وجيوب الهواء الجليديّ، بحثًا عن ممرّاتٍ آمنةٍ، متحدّيةً، في كلّ لحظةٍ، خطر نفاد الوقود المؤدّي إلى الموت. وجديرٌ بالتنويه أن نوافذ تلك الطائرة كانت مفتوحةً، تلعب فيها الريح، بلا قيدٍ ولا عائقٍ، موسعةً الركّاب قرًّا وخوفًا.

وبعد لأيٍ، التمع الفرج، عندما ظهرت بحيرةٌ صغيرةٌ وسط الثلج، مؤذنةً بالدنوّ من الغاية.

بعد مضيّ سنواتٍ أقرّ فولّيرو لميرموز كم عانى، في تلك الرحلة، بردًا وخوفًا، فاعترف الطيّار، أيضًا، أنّه عانى كذلك البرد والخوف، ولكنّه، أردف: "قد نخاف. ومع ذلك نتابع المسيرة. هذه هي الشجاعة!".

بعد الشيلي زار فولّيرو الـــپيرو، وبوليـــڤيا، وفيها، جميعها، ألقى محاضراتٍ، وأشاع

"بسمة فرنسا" وتأمّل "وجه الشبيبة الفرنسيّة الحقيقيّ"، فقد زار المؤسّسات التعليميّة الفرنسيّة التي يدير معظمها كهنةٌ وراهباتٌ، والتي تخرّج منها العديد من الشخصيّات المؤثّرة في المجتمع. وأبدى معظم رؤساء الدول التي زارها رغبةً في استقباله.

وفي غمرة اندفاع فولّيرو الأدبيّ والوطنيّ، ما انفكّ بؤس العالم يطغى على ذهنه وقلبه. وكان كلّ ما يكتب، وكلّ ما يقول مصطبغًا بالمحبّة، مندّدًا بالأنانيّة والجَوْر. كان يؤلمه وجود ملايين الجياع في العالم، جياعٍ إلى الخبز وجياعٍ إلى الحلم والكرامة.

ومنذ عام **١٩٢٠** كان قد كتب: "لا ينقص لاكتمال سعادتي إلاّ أن أراها تغمر العالم أجمع، إنّ الحياة الخاوية من المحبّة لا تساوي شيئًا. يجب أن نُطلِع الذين لم يخبروا الألم عن حال المتألّمين، فالعالم بحاجةٍ إلى أن نجهر له الحقيقة".

كان يحلم بحشد قوى المحبّة، في سبيل خلق عالَمٍ أوفر إنسانيّةً، وإخاءً، تمهيدًا لعقد "سلسلة محبّةٍ" مستخدمًا مواهبه القلميّة والخطابيّة من أجل الإعلام، والإيقاظ، والاستنهاض.

اعتمد، إذن، على قاعدته الباريسيّة التي تمثّلها رابطة الاتّحاد اللاتينيّ، من أجل متابعة أهدافه، وانبرى برفقة زوجته، وكلٌّ منهما ما برح في الخامسة والعشرين من العمر، إلى نشر رسالتهما في العالم، موقظين الناس، في كلّ مكانٍ، على واجب المحبّة، داعين إلى تكاتف الجهود، كي تكون أوفر قوّةً، وأنجع فعلاً، في مقاومة البؤس والظلم.

ومن خلال جولاته العديدة سمعت شعوب أوروبّا، وأميركا الجنوبيّة، وأفريقيا أقوال ذلك الشابّ الناريّة، ولمست سطوة تأثيره التي تفوق سنّه.

وفي كلّ مكانٍ استنهضت دعواته البركانيّة جماعات تضامنٍ ومحبّةٍ، وأكسبته علاقاتٍ وصداقاتٍ ستكون فائقة الجدوى في معاركه التالية، التي لم تكن معالمها قد

اتّضحت. ولكنّه كان عاقدًا العزيمة على خوضها حتّى النفس الأخير. وفي هذا السبيل أضحت حياته، مع زوجته، ارتحالاً دائمًا، وسلسلة مغامراتٍ استحقّت له لقب "متشرّد المحبّة". معًا تلقّيا معموديّة الجوّ، واجتياز المحيطات في طائراتٍ بدائيّةٍ، تُعدُّ، اليوم، دمًى، وأدوات انتحارٍ، ومعًا تذوّقا طعم حصادٍ وفيرٍ. وما لبثت أن قادته إحدى رحلاته إلى هدف وجوده، وأقحمته في معركته الحاسمة، وحاكت خيوطُ خوضها نسيج حياته التي جعلت منه، أيضًا، "رسول البرص".

الفَصْلُ الثَّاني

رسول البُرص

« لا يحتـاج البُرْص الـذين نخـدمهم، والفقـراء الـذين نحـبّهم، إلى شفقة الناس السعداء، بل يطلبون احترامهم وتقديرهم وفق ما هم بشرٌ. حينئذٍ يقبلون المساعدة بلا خجلٍ »

« المحبّة حضورٌ. والعطاء لا يكفي، ما لم يرافقه عطاء الذات »

« ما من حُلمٍ مفرطٌ في الكِبَر، فتـابع سيرك ولا تتوقّف. إنّ عزّة الحيـاة الرفيعـة هي الفضيلة المثلـى، وملجأُك الوحيد هو المحبّة »

"فولّيرو"

من تمنراسّيت (Tamanrasset) إلى أدزوپي (Adzopé)

إلى جانب كونه محاضرًا، وشاعرًا، وكاتبًا مسرحيًّا، كان راوول، أيضًا، صحافيًّا، وكان يتولّى أمانة سرّ تحرير جريدة "اللامصانع"، أو "اللامساوم" (l'intransigeant).

وكلّفته جريدة "الأُمّة" (La Nacion) الأرجنتينيّة بتعقّب خطى الأب القدّيس "شارل دي فوكو"، بمناسبة الذكرى العشرين لاغتياله في محلّة "تمنراسّيت" في الجزائر.

وها هو، عام ١٩٣٦، في سيّارةٍ مجنزرةٍ، أمام تلّة "الهوجار"، خاشعًا داخل الحصن الترابيّ الذي اغتيل فيه الناسك القدّيس، مراقبًا الثقب الذي أحدثته في الجدار الرصاصة القاتلة، متذكّرًا الفاجعة الرهيبة، متأمّلاً في التحوّل الروحيّ العجيب الذي جعل ذلك البورجوازيّ الذي كان ينعم بكلّ أسباب الرفاه والأمجاد، ناسكًا باحثًا عن المطلق، مستبدِلاً قصر ذويه الفخم في ستراسبورغ بكوخٍ من طينٍ، مدفونٍ في الصحراء؛ ومقايضًا بزّة الـڤيكونت الفاخرة بخام الجلباب البدويّ، ورفاهية الفراش الوثير بحصيرة قصبٍ، والأطعمة المرهفة الشهيّة بمخيض لبنٍ مخلوط بمسحوق التمر، متنسّكًا في صحراء جزائريّةٍ، كي يكون أخًا مسكونيًّا مستعدًّا للشخوص حتّى آخر الدنيا، كي يقدّم الحبّ إلى كلّ إنسانٍ، مستشفًّا في كلّ امرئٍ أخًا متدثّرًا بمعطف دم يسوع المسيح، إيمانًا منه بأنّ أشدّ البشر فقرًا، وبعثًا على النفور، وكلّ شيخٍ متهدّمٍ، وكلّ متوغّلٍ حماقةً، وجنونًا، وخطيئةً، والأدنى مقامًا، هو ابن الله.

لقد أخذت مواقف الناسك الشهيد هذه، كلّ مأخذٍ، بنفس من سيصبح، هو أيضًا، رسول الفقراء، وحفرت أثرًا عميقًا في كيانه. ومع أنّ التقرير الذي وضعه

فولّيرو للصحيفة الأرجنتينيّة، لم يُكتشَف، إلاّ أنّ المؤكّد هو أنّ فولّيرو نظّم الحجّ الأوّل إلى مدفن القدّيس دي فوكو، وأنّه أنشأ مؤسّسة شارل دي فوكو، وقدّم في أوروپـــّا، وفي أفريقيا الشماليّة، وفي أميركا مئات المحاضرات، من أجل إشعاع رسالة الناسك القدّيس. وإثر هذه المحاضرات انهالت عليه تبرّعاتٌ سخيّةٌ استخدمها كلّها من أجل إكمال بناء الكنيسة التي بدأ ببنائها مسيحيّون جزائريّون، إلى جانب مدفن القدّيس، وإشادة مزارٍ، ومدفنٍ من رخامٍ يحمل قول الناسك الشهيد: "أُريد أن أعلن الإنجيل بكلّ حياتي".

وفي طريق عودته توغّل فولّيرو جنوبًا صوب تخوم "مالي". ولم تقوَ السيّارة التي كانت تقلّه وزوجته على احتمال قسوة الصحراء. فللصحراء راحلتها، الجمـــل، المحصّن ضدّ القيظ والرمال الكاوية، والعطش. وحالما لحظ السائق بركـــة مــاءٍ، توقّف كي ينال، هو، قسط راحةٍ، ريثما تنخفض حرارة محرّك السيّارة، ويستعيض مبرّده ما فقد من ماءٍ جاش وتبخّر. وحينئذٍ، فيما كان فولّيرو ينتظـــر في الفـــيء، حدثت المفاجأة التي قلبت مسرى حياته جذريًّا. فلنصغِ إليه يروي تفاصيلها:

« ما لبثت أن ظهرت، بين الأدغال، وجوهٌ مذعورةٌ، تلتها وجوهٌ أصابها الجوع بهزالٍ مريعٍ، فأشرتُ إليهم بالاقتراب منّا، وفي الحال فرّ بعضٌ منهم، فيما تلبّث آخرون أوفر جرأةً، جامدين في أماكنهم، محدّقين إليّ بنظراتهم الثابتة والوجيعة. فسألتُ الدليل:

- **من هم هؤلاء؟**
- **إنّهم بُرصٌ**
- **ولِمَ هم هنا؟**
- **لأنّهم بُرصٌ**
- **ولكن أليس خيرًا لهم أن يقيموا وسط القرية؟ وما الذي اقترفوه حتّى عوقبوا بالنفي؟**

- **لأنّهم بُرصٌ**
- **وهل يُعالجون، على الأقلّ؟**

حينئذٍ، رفع الدليل كتفيه، ولم يتلفّظ بجوابٍ، وانصرف.

يومها أدركتُ وجود جريمةٍ لا تُغتفَر، خاضعةٍ لكلّ صنوف العقوبات، جريمةٍ لا عفوَ لها، ولا غفرانَ، جريمةٍ اسمها "البَرَص". وفي ذلك اليوم وطّنت عزمي على ألاّ أدافع طوال حياتي إلاّ عن قضيّةٍ واحدةٍ، قضيّة أولئك الخمسة عشر مليون إنسانٍ، وَسَمهم جهلُنا، وأنانيّتُنا، وجبنُنا بدمغة البَرَص ».

يحقّ التساؤل ألم يكن القدّيس شارل دي فوكو، صديق أفريقيا الكبير، هو الذي قاد خطى راوول فولّيرو إلى تلك الأدغال، كي يكتشف البؤس الأقصى، والجريمة الإنسانيّة الكبرى، وأبشع ظلمٍ بحقّ أبرياء، ويجعل منه، أيضًا، "رسول البُرص"؟

من المؤكّد أنّ مشاهداته في ذلك اليوم قد خضّت كيانه، وحدّدت له هدف وجوده ونضاله. فقد استحوذت قضيّة البرَص على ذهنه وقلبه، وبدأ بشحذ أسلحته لمباشرة معركتها الملحميّة. ولكنّه قبل الانقطاع لها كان عليه الاستغراق في البحث عن كلّ ما له بالبرَص صلةٌ، وتنظيم أمور الرابطة اللاتينيّة، وتكليف أصدقاء أكْفاء برعاية أمورها، ومتابعة الذود عن حضارةٍ غاليةٍ على نفسه، وكان يوجعه شعوره بانزلاقها إلى الانهيار.

ولهذه الغاية، واصل جهوده، أديبًا، وصحافيًّا، ومحاضرًا جاهدًا في إبراز ما يدين به العالم لفرنسا، مقترحًا حكوماتٍ قادرةً على ترميم صورة وطنه التي شوّهها مسؤولون سابقون عنصريّون، أنانيّون، وحمقى. فاقترح، على سبيل المثال، حكومةً يرأسها ڤنسان دي پول، إلى جانب تولّيه وزارة الصحّة، ويتولّى فيها منصب وزارة التربية "جان باتيست لاسَال"، مؤسّس المدارس المسيحيّة...

وواصل سلسلة محاضراته في العواصم والمدن التي ما زالت تتكلّم الفرنسيّة في أوروپـــّا، وأميركا اللاتينيّة.

غير أنّ هاجس البُرص كان قد سكن نفسه، واستحوذ عليها استحواذًا أبديًّا، فأكبّ على الإحاطة بكلّ ما يتعلّق بأحوالهم، وأعدادهم، وبالظلم اللاحق بهم، وعلى وسائل نجدتهم وخلاصهم. ولم يكن يفوّت سانحةً كي يستنفر الضمائر والهِمم، ذودًا عن حقوقهم الإنسانيّة، وسعيًا جاهدًا إلى خلاصهم.

وفي هذه الأثناء، أُعلنَت الحرب العالميّة الثانية، وكان على فولّيرو أن يواجه، فضلاً عن قضيّة البُرص، كوارث الحرب التي حلّت بمواطنيه الأبرياء، وأضفت على مهامّه اتّساعًا ومزيدًا من جهدٍ.

فاجأه إعلان الحرب العالميّة الثانية، عام **١٩٣٩**، فيما كان يحاضر في أكاديميّة الآداب في ريو دي جانيرو، ودُعي إلى الخدمة العسكريّة. وحينئذٍ، عرض عليه السفير الفرنسيّ في البرازيل أن يؤدّي خدمته لديه. ولكنّه لم يُطِق البعد عن وطنه الذي كان يجتاز محنةً مصيريّةً خطيرةً، وأصرّ على أداء واجبه، فيه. واستقلّ المركب الأخير المتّجه إلى أوروپـــّا، "مركبًا لا تمويه يصرف عنه عيون المتربّصين، ولا موكبَ حمايةٍ يواكبه، مضطرًّا إلى الإبحار صامتًا، مطفئًا الأنوار، سالكًا دروبًا متعرّجةً".

لدى وصوله إلى فرنسا كُلِّف فولّيرو بمراقبة الاتّصالات الخارجيّة. ثمّ مع دنوّ العدوّ، انتقل مركزه إلى بوردو، إلى أن أُعلنت الهدنة، وأُطلِق سراح فولّيرو من الجيش. ولكنّه آثر البقاء مؤقّتًا في منطقة كليرمون فيرّان، متحرّزًا من القدوم إلى باريس، حيث كان يخشى انتقام فلول الألمان من وصفه هتلر، في مقالٍ قديمٍ له، بأنّه صورةٌ للمسيح الدجّال.

في هذه الأثناء كانت زوجته قد عادت إلى باريس، كي تسهر على مؤسّسات

فولّيرو. غير أنّها منذ الاحتلال الألمانيّ للعاصمة الفرنسيّة، وتواتر انهيار القنابل عليها، انخرطت في سلسلةٍ من الهجرات، والتشرّد على دروب فرنسا، دائمة الحرص على التزوّد بملفٍّ ثمينٍ يحتوي عناوين جميع الأصدقاء، والمعارف في كلّ أنحاء فرنسا.

بعد لأيٍ، التقى الزوجان في قريةٍ فرنسيّةٍ خاليةٍ من الوجود الألمانيّ حيث رحّب بهما، في بيته، صديقٌ كريم النفس، سخيّ القلب، يدعى "ميشيل رامو" (Rameaud)، كان، هو أيضًا، شاعرًا، وعالم أعشاب، وله ابنةٌ تزوّجت، لاحقًا، السيّد ميشيل ريسيـــبون (Recipon)، الذي اختاره فولّيرو خليفةً له، ورئيسًا على كلّ مؤسّساته.

ومع ذلك لم يستكن فولّيرو للراحة في هذا الملجأ الدافئ، بل دأب على التنقّل بين المدن، والقرى المجاورة، ناشرًا رسالة المحبّة والإخاء، ومشدّدًا عزائم الفرنسيّين، جاهدًا في انتشالهم من قنوطهم وخيبتهم، مردّدًا: "لا، لم تنتهِ فرنسا. فتاريخها، وما حقّقته لصالح العالم، هما ضمان مستقبلها". وقد ألهبت إحدى محاضراته جمهور مدينةٍ، حرص أحد أعيانها على استضافته، وإقناعه بالبقاء في تلك المدينة.

ولكن، في هذه الأثناء، كان الاحتلال الألمانيّ يتمـــدّد إلى معظـــم المقاطعـــات الفرنسيّة، ويفرض سطوته الجائرة في كلّ مكانٍ. وحينئذٍ لجأ الزوجان فـــولّيرو إلى المركز الرئيس لراهبات سيّدة الرسل، في ضواحي مدينة ليون، اللواتي كانت تربطه بهنّ علاقات مودّةٍ، واحترامٍ، وعرفان جميلٍ.

كان فولّيرو قد التقى بهنّ منذ عام ١٩٣٥، إذ حضرت بعضٌ منهنّ محاضرةً له؛ وعلى إثرها جاءت اثنتان منهنّ، خجولتَان، مغرقتَان في التواضع، باسمتَيْن، ودَعَتـــا مادلين زوجته إلى سوقٍ خيريّةٍ. إحداهنّ أمست، من بعدُ، رئيسةً عامّةً على جمعيّتهنّ،

والأُخرى رافقت فولّيرو على دروب فرنسا. ومنذئذٍ توثّقت بينهم صداقةٌ أكّـدت ثلاثون سنةً من تعاونه معهنّ على أعمال البرّ، متانتَها وخصبَها.

وكان من نتائج هذين التقارب والتعاون، أن اطّلع فولّيرو، عن كثبٍ، على منجزات أولئك الراهبات الرائعات في ميدان المحبّة، في أفريقيا السوداء ومصر، ولبنان، وأطلع العالَمَ عليها، من خلال العديد من المحاضرات ومن خلال كتابٍ في جزأَيْن بعنوان: "على دروب المحبّة".

وإذ يتذكّر فولّيرو لجوءَه إليهنّ، في ضواحي ليون، يقول: "لّما قرعتُ باب مركزهنّ، كنت أتوقّع استقبال صديقٍ. ولكنّهنّ رحّبنَ بي أخًا، ومنذئذٍ باشرتُ معهنّ مشروعًا جريئًا، ضخمًا، كان له، في معركتي على البَرَص دور النموذج والرمز، وقد عُرِف باسم، "مدينة أدزوپي" (Adzopé).

ملحمة مدينة أدزوبي (Adzopé)

كانت الرئيسة العامّة على جمعيّة راهبات سيّدة الرسل قد زارت جزيرةً في ضواحي عاصمة ساحل العاج، أبيدجان، جزيرةً لا تتباين، ظاهريًّا، عن سائر الجزر، ويوحي اسمها "الجزيرة المشتهاة" بأنّها مرتع السعادة، والرفاه، والسكينة، وبأنّها فردوسٌ أرضيٌّ. لكنّها كانت، في الواقع، جحيمًا مريعًا. وكان مجذّفو الزوارق عندما يحاذونها، يزورّون عنها، ويبتعدون بأسرع ما يمكنهم. فقد كان قاطنوها ملعونين، موسومين بأبشع دمغةٍ، تبهظهم، لعنة دائهم، وقد اعتادوا الفرار لدى رؤية أيّ غريبٍ. ولم تكن مساكنهم سوى أكواخٍ زريّةٍ بنوها بأيديهم المشوّهة، ولم يكن طعامهم سوى ما يلتقطونه في الطريق، أو ما يُرمَى لهم من بعيدٍ.

وكم كانت تتعالى صيحات كراهيةٍ وقنوطٍ من تلك "الجزيرة المشتهاة"، التي أضحت سجنًا ومقبرةً لمجذومي ساحل العاج.

وذات يومٍ، شاهد أولئك الذين نبذهم ذووهم، ملاكًا أبيض يهبط من طائرةٍ شراعيّةٍ بين ظهرانيهم. وكان ذلك الملاك هو الأُمّ "أوجينيا"، الرئيسة العامّة على راهبات سيّدة الرسل، وقد جاءهم باسمةً، مادّةً يديها، مقدّمةً محبّتها، فحدّثتهم، وأصغت إلى رواياهم المفجعة، بصبرٍ وتعاطفٍ، وبعينين تكادان تفيضان دموعًا.

وحينئذٍ وُلِد في ذهنها وفي قلبها مشروع بناء مدينةٍ صغيرةٍ لأولئك البُرص المظلومين، حيث ينعمون بمعاملةٍ كريمةٍ، وبكامل الحرّيّة والاستقلاليّة، والتحرّر من القيود التي تكبّلهم، ومن الجدران الصفيقة التي تسجنهم، وتسدّ آفاقهم.

وفي سبيل تخطّي صرامة القوانين الصحّيّة التي كانت تَفرض إقصاء المصابين

بالبَرص عن سائر الأصحّاء، اتّقاءً لنقل عدوى علّتهم إليهم، خطر للأُمّ "أوجينيا" بناء مدينةٍ للبُرص، في قلب الغابة، مراعيةً نظام إبعادهم عن الأصحّاء، وفي الآن عينه متيحةً للمرضى حرّيّة الحركة والتنقّل داخل مدينتهم، والانعتاق من شعور الاختناق.

ولكي تكون حياة البُرص، في مدينتهم، أشبه ما يمكن بحياة الأصحّاء، ارتأت الأُمّ "أُوجينيا" أن يكون لكلّ أسرةِ مجذومين جناحٌ صغيرٌ خاصٌّ، له حديقةٌ صغيرةٌ يستنبتون فيها ما يشتهون، وما يسدّ قسطًا من احتياجاتهم الغذائيّة، فيشعرون بكرامة إنتاج مقوّمات معيشتهم، وباستقلاليّتهم.

وجهدت الأُمّ "أوجينيا" في تلقينهم، بقدر الاستطاعة، مِهنًا تساعدهم على الحياة، وعلى مزاولة تجارةٍ داخليّةٍ، بسيطةٍ، يتبادل كلّ مواطنٍ منتجاته بمنتجات الآخرين؛ وأدخلت وسائل التسلية والترويح عن النفس، كالسينما والراديو، أُسوةً بأيّة مدينةٍ طبيعيّةٍ.

قد يبدو هذا المشروع، اليوم، بسيطًا، ومعقولاً بعد أن حطّمت "معركة البُرص" التي شنّها راوول فولّيرو الأحكام المسبّقة بشأن البرَص والأوهام والمحرّمات والمظالم اللاحقة بضحاياه، منذ قرونٍ موغلةٍ في القدم. ولكن، في عام ١٩٣٩، كانت اللعنة ما برحت لاصقةً بأولئك المساكين، وعُدَّ مشروع الراهبة أحمق، ومناقضًا للعقل السليم، وللأعراف والقوانين، واعتبره المتحذلقون وهمًا زائفًا. فهل يُعقَل بناء مدينةٍ في قلب غابةٍ؟ قد تكون صاحبة المشروع سليمة النيّة، سخيّة النفس، ولكنّها، مؤكّدًا، لا تدرك من الواقعيّة شيئًا، وتجرّها محبّتها صوب اللامنطق، والمستحيل...

وكانت أخواتها الراهبات المرسلات ملتهباتٍ اندفاعًا وتأهُّبًا لبذل حياتهنّ كلّها، بفرحٍ، من أجل تحقيق هذا الحلم الذي أخذ بكلّ نفوسهنّ.

ولكنّ الحماس لم يكن كافيًا لتحويل الحلم واقعًا، ما لم تتوفّر للمشروع الوسائل المادّيّة الوفيرة. فانبرى فولّيرو للنهوض بهذه المهمّة التي كانت تبدو فوق طاقة البشر. ولكنّ لهيب المحبّة الذي كانت نفسه تجيش به، وقدرة التأثير والإقناع التي كان من أربابها، كانا يسرّبان عدوى محبّته وقناعاته إلى قلوب الجماهير، وكان خطابه هو سلاحه الأنجع. فنظّم حملة تبرّعاتٍ من أجل "أدزوپـــي"، استمرّت عشر سنواتٍ، رافقته فيها، إلى جانب زوجته، راهبتان من مرسلات سيّدة الرسل. وذرع فريقهم دروب فرنسا، في كلّ اتّجاهٍ، فألقى فولّيرو خطاباتٍ في كلٍّ من مسرح "أنسي" (Annecy) الوطنيّ، وفي أوپـــرا ليون، وكاپـــيتول تولوز، وأوپـــرا مرسيليا، وفي ڤيشي، حيث رعى القاصد الرسويّ حملته.

وإثر تحرير فرنسا من الاحتلال الألمانيّ، وضعت الحكومة بتصرّفه مسرح "الكوميدي فرنسيز". وفي تلك الحقبة عُيّن قاصدًا رسوليًّا الكردينال "رونكالّي" الذي انتُخب، لاحقًا، حبرًا أعظم باسم "يوحنّا الثالث والعشرين". ومنذئذٍ نشأت بين البابا العتيد، ورسول البُرص علاقات صداقةٍ دافئةٍ. ولم يكن فولّيرو يوفّر فرصةً للخطابة على أيّ منبرٍ، يتاح له اعتلاؤه.

ولهذا الغرض نظّم فولّيرو بالتعاون مع راهبات سيّدة الرسل حملة محاضراتٍ "مَرَثونيّةٍ"، فلم يكن يمرّ أسبوعٌ لا يلقي فيه محاضرةً، في المدن الفرنسيّة وقراها، وفي مدن بلجيكا واللوكسمبورغ، وسويسرا، والجزائر وتونس والمغرب وكندا.

وبما أنّ فولّيرو كان ضنينًا بالوقت، وحريصًا على استثمار كلّ قطرةٍ منه، فكان، عندما يقرّر تقديم محاضرةٍ في مكانٍ ما، يُطلع الراهبات، باكرًا، عليها، ويزوّدهنّ بعناوين أصدقائه هناك، وعناوين قرّاء نشراته، موضحًا لهنّ مواضيع محاضراته. وكنّ يشخصنَ إلى تلك الأماكن، شهرًا قبل موعد المحاضرات فيُعدِدن الأجواء، ويقابلنَ الأُسقف المحلّيّ، والسلطات المدنيّة، ويسألنَ الشخصيّات البارزة

والمؤثّرة أن يشملوا المحاضرات برعايتهم، وكان هؤلاء يرحّبون، عمومًا، بالعرض، ويضعون بتصرّف فولّيرو صالاتٍ فخمةً مهيّأةً لاستيعاب جمهورٍ غفيرٍ، يلتقي عليها سياسيّون من مختلف الاتّجاهات، لم يألفوا الجلوس، جنبًا إلى جنبٍ في أيّ مكانٍ آخر، ويرعاها رؤساء حكوماتٍ، ووزراء، وعمداء مدنٍ ومحافظاتٍ.

وكانت الراهبات يتّصلن بالصحافة، وبوسائل الإعلام، ويكلّفن شبّان العمل الكاثوليكيّ بلصق الإعلانات، في أكثر الأماكن لفتًا للأنظار.

وكان فولّيرو يشخص إلى المكان المحدّد، حريصًا على تفادي هدر ساعةٍ واحدةٍ، وعلى تقديم محاضرته الأولى منذ اليوم الأوّل، ولا يتوانى عن إلقاء محاضراتٍ أُخرى، إذا استطاع إليها سبيلاً، وإذا دعت إليها حاجةٌ.

وبما أنّ المحاضرات كانت تبدأ في التاسعة ليلاً، ولا تنتهي قبل منتصف الليل، فقد كانت الراهبات يحجزن لفولّيرو وزوجته غرفةً مريحةً قريبةً من محطّة القطار، أو من مكان المحاضرة، كي يوفّرنَ لهما راحةً يحتاجان إليها. وكنّ يحجزنَ لهما مقاعد في القطارات من أجل تنقّلاتهما، ويرافقنَهما، وكان فولّيرو يقضي أوقات السفر في مطالعة الصحف الرئيسة، مدوّنًا الأنباء المثيرة. والمواضيع التي تصلح الإشارة إليها أو اقتباسها من أجل عقد مقالاته، أو لتغذية محاضراته.

وبما أنّ التلفزيون لم يكن قد سيطر، بعدُ، على حياة الناس، فقد كانت محاضراته تستقطب جماهير غفيرةً.

من علوّ تلك المنابر العديدة، ومنصّات المسارح المهيبة، كان يقف فولّيرو وحيدًا أمام منضدةٍ عليها كأس ماءٍ، متوشّحًا برباط عنقٍ عريضٍ، غير معقودٍ، يغطّي عنقه وصدره، وكان يثبت أنّه خطيبٌ مفوّهٌ فذٌّ، قادرٌ على افتتان الجماهير، وخلب أذهانهم مدى ساعاتٍ. وكانت أقواله تتدفّق من نبع قلبه، صافيةً، حارقةً ملوّنةً، مزيجًا من حنانٍ، ومرحٍ، وغضبٍ مقدّسٍ، مستدرًّا من مستمعيه، تارةً البسمات، وطورًا الدموع. عباراته صادمةٌ، وحركاته بليغة التأثير، ولا سيّما عندما يرفع يديه

البيضاوين، هاتفًا: "انظروهما، لقد صافحتنا، ولامستنا آلاف البُرص، وما برحتا سليمتَيْن". بلاغته كانت قلبًا يخاطب قلوبًا.

أقواله كانت تخضّ أعماق النفوس، فتردّ عليها عواصف تصفيقٍ مدوّيةٌ، ثمّ تمتدّ الأيادي التي ألهبها التصفيق إلى المحافظ، وتملأ الأكياس التي تطوف بها الراهبتان المرافقتان له، بين صفوف الحضور. ولكنّ فولّيرو ما لبث أن عزف عن أسلوب الجباية هذا، وأمسى يعلن، في نهاية كلّ محاضرةٍ: "اطمئنّوا، لن تمرّ بكم الجابيات. ولكن عند الباب وضعتُ حقائبي العتيقة التي اهترأت من جرّاء اجتيازها آلاف كيلومترات سفرٍ، ومع ذلك هي ما زالت ترحّب بكلّ ما يُلقى فيها من فائض جيوبكم ومحافظكم. وكانت الحقائب العتيقة تمتلئ نقودًا عتيقةً وجديدةً.

وقد لاحظ أحد الذين أصغوا إلى محاضرةٍ لفولّيرو في بلجيكا أنّ صندوقًا كان قد وُضع عند مخرج المسرح لتلقّي التبرعّات، فاختفت المنضدة والصندوق تحت أكداس الأوراق النقديّة.

وكان حصاد التبرّعات، غالبًا، مذهلاً. فإثر محاضرةٍ في منطقة "شاتليه" (Châtelet) الباريسيّة ارتقى مبلغ التبرّعات إلى مليوني فرنك، وتبرّعت العاملات بكل ما أُعطينَ من إكراميّاتٍ. وفي مدينة "أنسي" (Annecy)، تخلّى شابٌّ عن خاتمه الثمين، معتذرًا عن تأخّره في القيام بهذا الواجب.

كانت محاضراته تندرج وفق أبسط إخراجٍ، وهو مرتاحٌ يضجّ حماسًا وثقةً، فقد كانت استعداداته لممارسة المحاماة، وخبرته على المسارح، قد أعدّتاه للخطابة المؤثّرة. فكانت أقواله تتدفّق من قناعاته الراسخة، ومن قلبه الجيّاش محبّةً. ومع أنّ موضوعًا واحدًا كان محور محاضراته، فقلّما كرّر الأقوال ذاتها. بل كان، في كلّ خطاب يبتدع عباراتٍ قشيبةً حول الفكرة عينها. معتمدًا على طُرقٍ تلفّ طواياها عِبَرًا ثمينةً، وعلى أحداثٍ زاخرةٍ بالرموز، متنقّلاً تنقّلاً رشيقًا وبارعًا بين تعابير الغضب والمرح، والتأثير. وكان دائم الحرص على التماهي مع الجمهور، مستخدمًا

غالبًا، ضمير الجمع "نحن". ولم يكن يدع، أبدًا، المستمعين تحت تأثير العجْز، والقدَر المحتّم، بل يقترح، دائمًا عملاً محدّدًا يمكن وضعه، في الحال، موضع التنفيذ، ويحرّض المستمعين على الالتزام به، ملوّحًا لهم بفتنة اقتحام مغامرةٍ تنتشي بها نفوسهم، انطلاقًا من يقينه بأنّ في قلب كلّ إنسانٍ كنوز سخاءٍ وإيثارٍ، لا بدّ من استنباطها، من مكمن قوقعة حياءٍ، وقلقٍ، وقسوةٍ صاغتها جروح الحياة. فقد كان راسخ اليقين بأنّ تحطيم هذه القوقعة كفيلٌ بتحويل مسيرة الإنسان تحوّلاً كلّيًّا، وأنّ الكفاح في سبيل الكرامة الإنسانيّة هو السبيل الأمين إلى الفرح، وإلى السعادة، وإلى تحقيق الدعوة المدوّنة في نفس كلّ إنسانٍ، وأنّ نشدان المطلق، ومعنى الوجود، هو نشدان المحبّة الكاملة التي تفضي إلى حميميّة الله!

وهو بدعوته إلى إنقاذ البُرص، كان يساعد مستمعيه على أن يصبحوا بشرًا أصحّاء، وأسوياء، يمارسون القِيَم المسيحيّة، وينجون من أسباب الفرقة، في حقبةٍ تنتج فيها التوتّرات السياسيّة قلقًا قاتلاً.

وما أكثر الذين أقرّوا أنّ محبّة فولّيرو الحقيقيّة الحارقة قد ولّدت المحبّة في قلوبٍ جمّدتها الأنانيّة، وحوّلت حتّى من استطابوا اللامبالاة إلى رسل محبّةٍ مندفعين.

وإثر كلّ محاضرةٍ كانت الراهبتان المرافقتان تجمعان التبرّعات وترسلانها في الحال إلى مركز جمعيّتهنّ، ومن هناك كانت تسلك سبيلها إلى ساحل العاج. وكانت "مدينة أدزوپــي" تنهض شبرًا شبرًا.

وكانت الراهبات قد شرعن ببناء بيوت البُرص الأولى على مسافة ثلاثة كيلومتراتٍ من مركز مدينة "أدزوپــي". فاحتجّ سكّان المدينة خشيةً من انتقال عدوى البرَص إليهم. فمنحت الحكومة جمعيّة سيّدة الرسل مئتين وخمسين هكتارًا، على مسافة مئةٍ وخمسين كيلومترًا من مركز المدينة. وتعيّن على الراهبات شقّ طريقٍ إلى الموقع الجديد، مترًا مترًا، والتضحية بأشجارٍ عتيّةٍ، مكتفياتٍ بوسائل بدائيّةٍ: فؤوس، ومعاول، ومجارف،

وسلالٍ صغيرةٍ لنقل الحجار والركام. ومن أجل هذا العمل الشاقّ، استُنفِر، بصعوبةٍ، مئتا عاملٍ، كانوا يكدحون تحت إشراف الملاك الأبيض، الأُمّ "أوجينيا" التي لم تكن تتحرّج من العمل بيديها، ومن قيادة الشاحنة بنفسها.

ولكم استلزمت إقامة مدينة البُرص، في الموقع الذي حدّدته لها الحكومة، من همومٍ ومشقّاتٍ، بدءًا بشقّ طريقٍ عبر الغابة، على امتداد مئةٍ وخمسين كيلومترًا. وتعبيدها، ومساواة جذور الأشجار المقتطعة مع مستوى الأرض، وتأمين معيشة مئات العمّال وسكنهم في منطقةٍ لا تسكنها إلاّ الوحوش، والاضطرار إلى استنبات رقع أرضٍ على امتداد الطريق توفّر قسطًا وافيًا من غذاء العمال اليوميّ، وأماكن رقادٍ واستراحةٍ لهم.

ولم يكن يسيرًا استخدام عمّالٍ يرتضون البعاد عن أُسرهم وذويهم شهورًا وربّما سنين، والتأقلم مع منفى الصحراء وجفوته. وكانت قسوة العمل تجفّل العمّال، فيزْوَرّ كثيرون، مع حاجتهم الملحّة إلى مصدر عيشٍ، عن الإقدام عليه، وتزيدهم جفولاً الأحداث المأساويّة المتكرّرة وما يواكبها من خرافاتٍ مرعبةٍ. فقد كانت بعض الأشجار العتيقة من الضخامة وقسوة الجذور بحيث تستعصي على المناشير الفولاذيّة. وكانت، أحيانًا، تستلزم جهود فريقٍ من خمسة عمّالٍ أشدّاء، على امتداد ثلاثة أيّامٍ من أجل القضاء عليها.

واتّفق أن هوت، في حين غفلةٍ، شجرةٌ عتيّةٌ، كانت قد نُشِرت أجزاؤها السفلى، فقتلت عاملَيْن، وأشاعت الذعر والتطيّر بين الأهالي، وسرت شائعةٌ تقول إنّ الغابة تنتقم ممّن يدنّسونها ويشوّهونها، ويعتدون على روحها، فلاذَ معظم العاملين بالفرار، وتعذّر إقناعهم بالعودة. واضطرّت الراهبات إلى البحث المضني في أعماق البلاد، من أجل استبدالهم.

هذا فضلاً عن موسم الشتاء الذي كان يوقف الأعمال إيقافًا كاملاً، مدّةً لا تقلّ عن ثلاثة أشهرٍ، كلّ سنةٍ.

على هذا الوقع شرعت مدينة بُرص أدزوپـــي ترى النور، وبعد سبع سنواتٍ من العمل الجبّار فيها قُيّض لفولّيرو معاينة ما تحقّق، وما اقتضى تحقيقه من مغامراتٍ، وركوب مخاطر، وخيباتٍ أحيانًا. وهكذا وصف فولّيرو تلك الزيارة الأولى:

« في روعة الصباح الساجية، كانت شاحنتنا الصغيرة تلتهم الطريق بلينٍ، وكان الجوّ مشرقًا قبل التهاب الهواء، وتحوُّله قيظًا... فكنّا نتذوّق طراوة الجوّ، متناولين جرعاتٍ واسعةً منها، جاهدين في القبض عليها قبل فرارها... كانت تحيق بنا الغابة الغدّارة القاسية، الآهلة بوحوش الله والموت. ولكنّ تلك اللحظات الصباحيّة كانت وديعةً، متسامحةً، وشبه مرحّبةٍ. ومن حولنا كان يطوف سلامٌ كبيرٌ، وفرحٌ جديدٌ، يملآن نفوسنا، ويُنيرانها ».

وبعد أن انتقل بُرص "أدزوپـــي"، إلى مدينتهم الجديدة، ودبّت فيها الحياة، زارها فولّيرو ثانيةً، وترسّخت في ذهنه ذكريات الليلة الأولى التي أمضاها فيها، فكتب:

« ليلةٌ ثقيلةٌ حافلةٌ بالكوابيس التي يصعب الانعتاق من سطوتها. وما كاد الفجر ينشر طلائع أنواره على الأفق حتّى خرجتُ إلى عتبة الحجرة، فتنامت إلى سمعي نغمات غناءٍ آتٍ من طرف الشارع مردّدًا: "عند الأُمّ ميشيل قهوةٌ طيّبةٌ". أنصتُّ، غير مصدّقٍ سمعي، وخُيِّل إليّ أنّني ما زلت أحلم. ولكن لا، فأنا، حقًّا، في "أدزوپي"، وفي مدينة البُرص، وفي قلب الغابة، وما زالت اللازمة تكرّر: "عند الأُمّ ميشيل توجد قهوةٌ طيّبةٌ".

قصدت مصدر الغناء، فإذا به المستوصف، حيث كانت الأُخت فلورا تعمل، منذ ساعةٍ، طاويةً أكمامها على ذراعيها، وعلى يديها البيضاوين، وبين أصابعها العارية أثر دم الأبرص، الذي كان قد عالجته قبل لحظاتٍ. كانت تغنّي... والمرضى الذين يسمعونها يردّدون لازمة أغنيّتها.

كان وجه تلك المدينة، حديثة الولادة مشرقًا بالأمل، لأنّها كانت وليدة المحبّة ».

كان شقّ الطريق قد اكتمل، وأُنشئ ١٣ جسرًا فوق البحيرات التي تحلم فيها تماسيح استوائيّةٌ. ولّما عبّر فولّيرو عن إعجابه بالجهود التي بُذِلت حتّى بلوغ هـذه النتائج المذهلة، قالت الراهبة المسؤولة: "هذا ليس بشيءٍ. اصبرْ ترَ!". وهذا مـا تبيّن بعد قليلٍ، وهذا ما رواه: "من قمّة الطريق الصاعد تكشّفت لنا المدينة دفعـةً واحدةً. كنّا نجري ونجري في ظلال غابةٍ تسحقنا، وفجأةً انفرج الضوء، والفضـاء المفتوح المشرق، وتجلّت الحياة. قبل أشهرٍ، كانت هنا الغابة مسيطرةً. وها هي قد تراجعت أمام المحبّة ».

وأضاف فولّيرو:

« على إشادة مدينة "أدزوپي" للبُرص وقفتُ أفضل سنوات عمري – بين سنّ الأربعين وسنّ الخمسين – ولا شيء أمتعني أكثر من تلك الجولات المنهكة غالبًا، والمخيّبة أحيانًا، والتي انتشيتُ بها دائمًا. وكلّما عدتُ إلى ضواحي ليون، والتقيت مجدّدًا صديقاتي القديمات الغاليات، راهبات سيّدة الرسل، أتمنّى دائمًا، أن أعبّر لهنّ عن شكري ».

نجاح هذا المشروع جعل منه نموذجًا يُحتذى، ودفع حكومة ساحل العاج علـى إقامة معهدٍ للبَرَص فيه. وعام ١٩٦١، بمناسبة يوم البرص العالميّ الثامن، أعلن وزير الصحّة العامّة في ساحل العاج تخصيص مبلغ مئتين وخمسين مليون فرنك أفريقيٍّ، أي ما يعادل خمسة ملايين فرنك فرنسيٍّ ثقيلٍ، كي يجعل من هذه المدينة معهدَ أبحـاثٍ ورعايةٍ، مزوَّدًا بأحدث المعدّات التي تليق بمركز إعادة تأهيلٍ اجتماعيٍّ.

وبهذه المناسبة، أيضًا، قلّد رئيس جمهورية ساحل العاج Houphouet Boigny، بنفسه، راوول فولّيرو، أرفع وسامٍ وطنيٍّ.

معركةٌ عَلى البرَص

« لـم أُفلـح قـطّ فـي إقنـاع ذاتـي أنّ إنسـانًا
يستطيع تخليص نفسـه، إن لـم يفعل شيئًا
من أجل خلاص إخوته »

"يوحنّا الذهبيّ الفم"

تحقّق، إذن، حلم أدزوپـي. ولكن ما كاد راوول فولّيرو يتذوّق حلاوته حتّى وجد نفسه غائصًا، حتّى عنقه، في لجّة قضيّة البرَص. فقد انهالت عليه من أرجاء العالم كافّةً، من مرضى، وأطبّاء، ومرسلين أكداسُ توسّلٍ موجعةٌ، وعنيفةٌ، أحيانًا، ومعظمها عتابٌ والتماسٌ: "وماذا بشأننا؟ ألا يفكّر بنا أحدٌ؟ وما الذي ستفعلونه لنا؟ الجميع يتجاهلوننا، يعدّون مرضانا منبوذين، ويعدّوننا، نحن، مزعجين ومأفونين. حتّى متى ستدوم هذه الحال؟ أليس في العالم غير "أدزوپي"؟ تعالوا وشاهدوا! هل سيكلّف أحدٌ نفسه عناء المجيء، وإطلاع العالم على المصير المريع الذي يتخبّط فيه ملايين البشر المصابين بالبرَص؟... هنا ملايين وملايين يَلقَون حتفهم افتقارًا إلى العناية، والرعاية، والمحبّة!".

كان فولّيرو يعلم أنّ هناك قضيّة البرَص، الموجعة، المخجلة، المخزية. غير أنّ ضخامة عدد المصابين الذي ذُكر له فاجأه، فقرّر التثبّت بنفسه، على أرض الواقع. وباشر معركة البرص الشرسة والبطوليّة بسلسلة جولاتٍ حول العالم، بحثًا عمّن جارت عليهم الطبيعة، ومن نبذهم ذووهم وإخوتهم في البشريّة، ويُمعنُ تصميمًا على غوثهم...

في الواقع كانت "أدزوپـــي" قاربًا، أبحر به في محيط البؤس الإنسانيّ. وأكسبته سرعةُ وتيرة أسفاره، وتواترُها، وسعةُ آفاقها، ألقاب "حاجّ الجحيم"، و"متشرّد المحبّة"، ومكّنته من التطواف حول العالم، لا مرّةً واحدةً، في ثمانين يومًا، على غرار الرحلة التي تخيّلها الروائي الفرنسيّ "جول ڤيرن"، بل أكثر من ثلاثين مرّةً، على امتداد أكثر من ثلاثين سنةً. وجعلت مَن كان يستعين بالعكّاز في تنقّلاته من أكثر رحّالة العالم قطعًا للمسافات، لا شغفًا بالترحال، بل سعيًا إلى:

- تزويد البُرص بالمواساة والدعم.
- الاطّلاع على ظروف حياتهم.
- اختبار خطورة مرضهم.
- زفّه لهم بشرى إمكان شفاء البَرَص، وتقديم الإسعافات الأوّليّة.
- شفاء الأصحّاء، جسديًّا، من برَصهم النفسيّ، ونبذهم لإخوتهم المصابين بالداء.
- استنهاض حركة تضامن عالميّةٍ مع المنكوبين.

رحلته الأولى قادته إلى مدينة "مولوكاي" (Molokaï) في جزر هـــواي حيـــث عاش، وناضل، ولقي حتفه القدّيس داميان، خادم البُرْص، وشهيد العناية الإلهيّـــة. ومنه استمدّ فولّيرو روح التضحية في سبيل البُرص.

وحمَلتْه جولاته التالية إلى مواقع مختلفةٍ في آسيا وأفريقيا وجُزر المحيط الهنديّ. وفي خلال ثلاث سنواتٍ اجتاز مئتي ألف كيلومترٍ، مستقلاًّ ٩١ طائرةً. وقدّم ٢٩٦ محاضرةً في ٣٥ بلدًا. وفي خلال إحدى رحلاته التقى الدكتور شْـــڤـــايْتسر، ومعًا، احتفلا بأسبوع الآلام، وعزف الدكتور شْـــڤـــايْتسر أشهر ألحان باخ لهذه المناسبة.

وقد أوحت إليه تلك الجولات على امتداد المسكونة كتابًا حمل عنوان: "مع البُرْص حول العالم"، عبّر، من خلاله، عن الغضب الذي فجّرته مشاهداته. فجأر:

« لا، لا يمكن أن تستمرّ هذه الحال. لا، هذا مستحيلٌ! أو كفّوا عن قولكم إنّنا في القرن العشرين من تاريخ المسيحيّة، وعن ادّعاء شعارات السلام، والحرّيّة، والإخاء، والديمقراطيّة. إنّي خجلٌ! إنّي خجلٌ.

"إني خجلٌ من تناولي طعامي بشهيّةٍ، وخجلٌ من نومي الخالي من الكوابيس، في حين يحتضر ملايين البشر ويتعفّنون في أقذر بؤسٍ، وفي وحدةٍ مريعةٍ.

"بُرصٌ أُلحقوا بمأوى مجانين، أو شُرِّدوا في الصحراء، أو سُجنوا، واستوطنوا المقابر، هذا ما شاهدته عبر العالم.

"وهذا ما أُعلنه، لأنّ واجبي يُلزمني بإعلانه، بلا انفعالٍ مفرطٍ، وبلا تحفّظٍ.

"سنصيح معًا صياحًا مدوّيًا، مستمرًّا، طالما اقتضت الأحوال الصراخ العالي والمتمادي، إلى أن يُضطرّ الضمير العالميّ إلى إنهاء قيلولته السعيدة، ويسمعنا ».

جولات فولّيرو حول العالم أتاحت له جمع عناصر مذكّرةٍ قدّمها إلى أمين عامّ منظّمة الأمم المتّحدة بتاريخ ٢٠ أيلول ١٩٥٢، معتمدًا فيها على ما جاء في شُرعة الأُمم المتّحدة الداعية إلى احترامٍ شاملٍ، وحمايةٍ صارمةٍ للحقوق الإنسانيّة، والحرّيّات الأساسيّة، لكلّ إنسانٍ، بلا تمييزٍ في العرق والجنس، واللغة، والدين. وبناءً على هذه البنود، جاء في مذكّرة فولّيرو:

« إنّي بموجب هذه الشرعة أناشد الأمم المتّحدة، بشأن البُرص. ففي عام ١٩٥٢، في القرن العشرين من تاريخ المسيحيّة، وفي حين اتّخذت مبادئ الحرّيّة والديمقراطيّة ملء معناها، ما زال في العالم ملايين البشر خارج هذه الشرعة، خاضعين لشتّى ضروب النبذ الاجتماعيّ، بلا ذنبٍ اقترفوه سوى كونهم مرضى. مع أنّ إصابتهم هي أقلّ عدوى من السلّ، وأقلّ بشاعةً من السيفليس، إلاّ أنهم ما زالوا منفيّين عن المجتمع الإنسانيّ.

"بلدانٌ عديدةٌ بذلت جهودًا حميدةً في سبيلهم، وقامت منظّمة الصحّة العالميّة بعملٍ مجدٍ في هذا المضمار، بفضل أشخاصٍ يتحلّون بالموهبة والقلب الكبير.

ومع ذلك، ما زال البُرص، في معظم الأحيان مُدانين بجريمة البَرَص المؤبّد، ومنفيّين في أماكن محصورةٍ عليهم، تغشاها القذارة، وضحايا خرافاتٍ حمقاء، ولعناتٍ موروثةٍ.

"ومن جرّاء لامبالاة الدول المتقدّمة حيال هذه المأساة، لا يوجد إحصاءٌ دقيقٌ لأعداد البُرص في العالم. فثمّة من قدّروها بمليونين، وآخرون بخمسة ملايين، وآخرون بسبعة ملايين. وأنا، بنتيجة مراقباتي وتحقيقاتي، انتهيت إلى يقينٍ بوجود لا أقلّ من اثني عشر مليون أبرص. وهذا يعني أبرص واحدٌ من أصلّ كلّ مئتين من سكّان العالم، وأبرص واحدٌ مقابل كلّ مصدورَيْن. وقد أظهرت تحرّياتٌ لاحقةٌ أنّ عددهم يرتقي إلى خمسة عشر مليونًا.

هذا التفاوت في الإحصاءات ناجمٌ عن اعتبارٍ سائدٍ خاطئٍ بأنّ البرَص داءٌ مخزٍ، تسعى أُسرٌ كثيرةٌ إلى إخفائه وكتمانه ».

وقد جهد فولّيرو في سبيل الكشف عن حقيقة انتشار البرَص، وإثبات أنّه مثل أيّ مرضٍ آخر، إذا عولج منذ بدء ظهوره يُشفى شفاءً كاملاً، وتنتفي عدواه. وفي جميع الأحوال البَرَص قليل العدوى، وعلاجه بسيطٌ، وزهيد الكلفة. ولذلك استنكر فولّيرو، واستنكر العلماء المنكبّون على دراسة داء البرَص، الحجْرَ الوحشيّ واللاإنسانيّ، الذي يُفرَض على المصابين بالداء، وهم أحقّ بعلاجٍ يشفيهم، من إدانتهم بجريمة هم منها أبرياء، ومن إقصائهم عن مجتمعهم، ونبذهم بلا رحمةٍ، ولا أملٍ بعفوٍ أو بعودةٍ.

ومن ثمّ دعا فولّيرو إلى اعتبار البَرَص مرضًا عاديًّا، يجب معالجته، منذ ظهور بوادره، في منزل المصاب، عندما يكون، بعدُ، غير مُعدٍ، أو في مستشفياتٍ خاصّةٍ عندما يستفحل، ولكن، دائمًا، في أعمق احترامٍ لمعتقداته، ولشخصه، وآماله، وفي صونٍ لأقدس حقوقه، أي لحرّيّته وكرامته.

لقد نضج لدى فولّيرو اليقين بأنّ الأجيال القادمة ستستنكر وتستقبح استهتار الأجيال السالفة ببقاء ملايين البشر يتعفّنون. وسترتاب بصدق شعاراتها الداعية إلى التآخي والتضامن، مع إحجامها عن القيام بأيّة مبادراتٍ كفيلةٍ بمنع هذه الجريمة، جبنًا وتقاعسًا عن واجبٍ إنسانيٍّ مقدّسٍ، ولا سيّما أنّ الاكتشافات العلميّة أثبتت أنّ الأغلبيّة العظمى من المصابين بالبرَص يمكن معالجتهم علاجًا ناجعًا، زهيد الكلفة، وسهل الاستعمال، وبالتالي القضاء على نقل عدوى دائهم.

لقد بات من الممكن الإعلان، بلا خوفٍ، ولا مبالغةٍ، أنّ البَرَص هُزِم، وأنّه سيتمّ القضاء عليه قضاءً مُبرمًا في غضون خمسين عامًا. وهذا النصر لا يقتضي سوى الجرأة والعزيمة على فعل كلّ ما يلزم علميًّا، وسوى شفاء المجتمع من مخاوفه الحمقاء، ورفع الظلم اللاحق بمرض الجذام، وإبطال اللعنة التي تطاردهم بلا هوادةٍ. فالمصابون بأعراض البَرَص كانوا يسارعون إلى الفرار والتواري، بمجرّد ظهور أعراض الداء الأولى عليهم، لأنّ الداء يعني لهم الحجر، وما الحجر سوى سجنٍ مريعٍ، وعودةٍ إلى جَوْر العبوديّة.

كان لا بدّ، إذن، من شنّ حملة توعيةٍ في البلدان التي ينتشر فيها داء الجذام، بحيث يُعَدّ المصاب بهذا الداء، مريضًا مثل أيّ مريضٍ آخر، ويُعالَج بإنسانيّةٍ وعطفٍ، حتّى يطمئنّ إلى شفائه التامّ، ويستعيد مكانته الطبيعيّة في المجتمع، وحتّى يستطيع كلّ مصابٍ بهذا الداء أن يبوح، بلا خوفٍ، ولا خجلٍ: "أنا مصابٌ بالبَرَص" مثلما يبوح آخرون: "نحن مصابون بالسرطان، أو بالتهابٍ رئويٍّ"، فلا يُعاقب معاقبة مَن ارتكب جريمةً نكراء.

وبما أنّ فولّيرو لم يكن يحجم عن أيّة خطوةٍ كفيلةٍ بإيصاله إلى هدفٍ نبيلٍ، بعث برسالةٍ إلى رئيس الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة، طالبه فيها، بأخذ هذه المبادرة على عاتقه، وبإجراء إحصاءٍ دقيقٍ وأمينٍ يُظهر أعداد المصابين بالبرَص؛ ودعوة الدول

المعنيّة بهذه القضيّة إلى احترام حقوق المصابين الإنسانيّة، وحرّيّاتهم الأساسيّة. وبذلك تثبت المنظّمة الدوليّة قيامها بواجب الذود عن "الأقلّيّات المقموعة" في العالم. وطالب فولّيرو رئيس الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة بإصدار توصيةٍ، وفق النصّ التالي:

« تعلنُ الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة أنّ بقاء محاجر للمصابين بالبرَص، تقوم لهم، واقعيًّا، مقام سجونٍ، ومقابر، وحُفَرٍ جماعيّةٍ يُدفَن فيها أحياء، لا يليق بدوَلٍ تدّعي أنّها متحضّرةٌ، وتطلب أن تُعامَل على هذا الأساس.

"توصي الجمعيّة العامّة للأُمم المتّحدة، بعد اطّلاعها على ما أحرزته معالجة دواء البرَص من تقدّمٍ، بإغلاق المحاجر التي يُحشَر المصابون فيها، وتحويلها إلى مراكز علاجٍ ومصحّاتٍ، حيث ينالون المعالجة المؤاتية، والشفاء التامّ. وتُبطَل قدرة دائهم على نقل عدواه إلى آخرين، وحينئذٍ يستطيعون العودة بأمانٍ إلى منازلهم، واستئناف عملهم السابق، ووجودهم الاجتماعيّ، بلا تحفّظٍ، ولا تمييزٍ عن سائر الأصحّاء.

"وتوصي الجمعيّة العامّة، جميع أعضائها:

- **بإحصاء عدد المصابين بالبرَص، في كلّ دولةٍ، إحصاءً نزيهًا وصريحًا، وتسهيل مهمّات اللجان المكلّفة بهذه المهمّة.**
- **إعلان خضوع البُرْص للقوانين العامّة، أُسوةً بسائر المواطنين، وحماية القوانين لحقوقهم.**
- **منحهم جميع التسهيلات والامتيازات التي ينعم بها سائر المواطنين بلا استثناءٍ ولا تمييزٍ ».**

وأكّد فولّيرو استعداده لتلبية كلّ استدعاءٍ أو استيضاحٍ قد ترى الجمعيّة العامّة مدعاةً لهما.

معركةٌ سياسيّةٌ وإعلاميّةٌ

لم تكن تخفى على فولّيرو سراديب الأُمم المتّحدة التي تتيـــه فيهـــا المـــذكّرات الواردة، ولا أعداد الأيادي التي تتناولها، وتطرحها جانبًا، قبل أن تخرج من مخـــابئ الأدراج وتلقى اهتمامًا.

غير أنّ فولّيرو كان يتابع مشاريعه عن كثب، متابعةً لا عهد لها بهوادةٍ، وبحرصٍ على اقتطاف ثمارها المبتغاة، بلا تلكّؤٍ. فلم يكن يضنّ بأيّ جهدٍ من أجل دفعها نحو عواقبها.

ومن ثمّ، خضّ نفوس جميع المعنيّين، وحرّك كلّ مراكز القرار، من أجل ضمان سلامة المجذومين، وحقوقهم الأساسيّة، ولم يتورّع عن تجنيد أكبر المسؤولين لهذه الغاية. فقدّم لرئيس جمهوريّة فرنسا نسخةً من مذكّرته إلى رئيس الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة، ملتمسًا منه السعي إلى طرحها وتفعليها، بلا تلكّؤٍ. وأرسل رئيس الجمهوريّة طلبه إلى وزير خارجيّته، الذي ما لبث أن أكّد لفولّيرو استلام وزارته لتلك المذكّرة، وانكبابها على دراستها مع وزارة الصحّة الفرنسيّة، ومع سفرائها في الدول المعنيّة، ومع بعثتها الدائمة لدى الأمم المتّحدة. وأكّد له وزير الخارجيّة أنّ مقترحاته لاقت موافقة جميع الجهات الفرنسيّة وخبرائها، ووعده بملاحقتها في أروقة الأُمم المتّحدة.

ولبّت الجمعيّة العامّة لمنظّمة الصحّة العالميّة طلب البعثة الفرنسيّة، ووافقت على بحث مقترحات فولّيرو في لجنة البرَص في جنيـــف.

ومن نيويورك أكّد وزير الخارجيّة الفرنسيّة، موريس شومان، عزمه على دعم مذكّرة فولّيرو بكلّ الوسائل المتاحة. ومن جهته أعلن رئيس البرلمان الفرنسيّ اطّلاعه على مذكّرة فولّيرو، وتمنّى نفاذها إلى قناعات جميع القلوب السمحاء.

وطالب فولّيرو وزير العدل، بإصدار بيانٍ يعلن أنّ الأبرَص هو مريضٌ مثل أيّ مريضٍ، يتمتّع بحقّ العلاج، ويخضع للقانون العامّ، وأنّ القانون يضمن له حقوقه كلّها، ولا يحقّ لأحدٍ مصادرة حرّيّته، إذا كانت إصابته غير معديةٍ، وإذا كان يحمل شهاداتٍ طبّيّةً تؤكّد أنّه عولج، وتنـــزّه من خطر نقل عدواه.

وأذن له وزير التربية بتنظيم حملة إعلامٍ في جميع المدارس. وتعهّد وزير الصحّة، بالتعاون مع وزراء الصحّة الأوروپـــيّين على إنشاء مركزٍ أوروپـــيٍّ مـــن أجـــل مواصلة أبحاث علاج البَرَص، وتطبيق هذا العلاج، واعدًا بسعي دوائـــر وزارتـــه لمتابعة تقصّي حالات البَرَص، ومعالجتها، بمنأًى عن المسّ بحرّيّة المرضى، خلافًا لمـــا يجري في بلدانٍ عديدةٍ.

وبفضل مبادرات فولّيرو الجريئة، أصدرت منظّمة الصحّة العالميّة تصريحاتٍ إيجابيّةً، مثل:

« "البَرَص أقلّ عدوى، بكثيرٍ، من السلّ، ومن معظم الأمراض السارية.

"لا تصيب عدوى البرَص إلاّ مَن كان لديه استعدادٌ لالتقاطها، وليس صحيحًا أنّ كلّ من يقترب من أبرص، أو يلامسه، ولو عن كثبٍ، يُعدى بدائه.

"البرَص مرضٌ قابلٌ للشفاء. وليس بقاء علاماتٍ للبرَص، أو آثارٍ دائمةٍ منه، دليلاً على انتفاء الشفاء، وعلى إمكانيّة انتقال عدواه ».

وفي حزيران ١٩٦١، أعلن أحد مدراء منظّمة الصحّة العالميّة من إذاعة لوزان:

"من أصل مليونين ونصف مليون أبرص، يُعالَجون حاليًّا يمكن التأكيد أنّ نصفهم على الأقلّ، قد نالوا شفاءً تامًّا.

"نادرًا ما يتناقل الأزواج البُرص عدوى علّتهما. ولا يرث أبناؤهم، بالولادة، مرض آبائهم".

ومع ذلك، لم يكفّ فولّيرو عن السعي لكي يُتاح لكلّ أبرص شُفي شفاءً تامًّا وناجزًا، حقّ العيش والعمل في المجتمع أُسوةً بكلّ إنسانٍ سليمٍ. وقد أكّد فولّيرو قناعته هذه في كتابٍ أصدره عام ١٩٥٦، بعنوان: "بشرٌ مثل سائر البشر".

مشاهد موجِعةٌ

ربّما نتساءل عمّا دفع فولّيرو إلى التضحية براحته، ونومه، ورفاهه وأمجاده الأدبيّة، وانصرافه إلى معارك على شتّى الجبهات في سبيل انتشال ضحايا البرَص من بؤسهم، ومن مستنقعات الإهمال والخزي التي أوصلتهم إليها أنانيّة مجتمعٍ جبانٍ متخاذلٍ.

ولا ريب أنّ المآسي المريعة التي كان عليها شاهدًا، في شتّى الأماكن، قد جعلت أيّامه آهلةً بالكوابيس، وأفقدته حتّى فكرة الاستكانة.

ومن ذكريات المآسي التي لم تكفّ تحاصر ذاكرته، فتاةٌ كانت دلائل المرض قد شرعت تظهر عليها، فاعتكفت داخل كوخها. وحاول فولّيرو إقناعها بالخروج بغية معالجتها، ولكنّها أصرّت على الرفض مردّدةً: "لا أستطيع الخروج، فقد يقذفونني بالحجارة. إنّي خائفةٌ، وإنّي خجلى!"

ولم يستطع فولّيرو ، قطّ، نسيان برصاء أفقدها اليأس عقلها. فغدت تسير على راحتيها وعلى قدميها (على الأربعة كما يُقال)، وتدور على ذاتها، بلا انقطاعٍ، داخل كوخها؛ ولا تلك التي سمّرها "داء الفيل" بالحضيض، وأمامها ابنها الممسك بيديه المجرّدتَيْن من أصابعهما ساقه المتدلّية، وكأنّه يعبث بدميةٍ مريعةٍ. كلاهما قابعان على الحضيض، ينتظران، وهما لا يدركان ما ينتظران؛ وتلك الفتاة التي اكتشفها في البرّيّة، وحيدةً، مع هرٍّ يلحس قروحها، التي كانت تغطّيها بأوراقٍ كي تخفيها عن المارّة.

وتلك البرصاء التي عُثِر عليها، وقد التهمت الجرذان نصف جسمها، مع أنّ ذويها الذين نبذوها كانوا ميسورين، ومن "الذوات" كما يُقال.

والبرصاء العمياء، دائمة الوحدة، التي كانت تسير مترنّحةً، متعثّرةً في ليلٍ مزدوجٍ.

وتلك، البرصاء الجائعة، وأولادها الأربعة الجائعين، المتشبّثين بأسمالها الرثّة.

وتلك التي، مع برَصها، كانت تمارس البغاء كلّ ليلةٍ، كي تستطيع شراء طعامها. وأُخرياتٍ، وآخرين، يخجلنا بؤسهم.

ويروي فولّيرو أنّه كان يزور، ذات يومٍ، برفقة الدكتور "مونتستروك" (رئيس معهد بستور في بَنْـــچـــي عاصة جمهوريّة أفريقيا الوسطى)، مريضةً في كوخٍ، وكان فوق حجرتها الصغيرة القذرة ما يشبه علّيّةً، يوصَل إليها بسلّمٍ يتحدّى كلّ معايير التوازن. وقال الدكتور: "إنّي أعرف، جيّدًا، هذا المكان. فعام ١٩٤٠، فيما كنت أزور هذه المريضة، سمعت تأوّهاتٍ خافتةً، كأنّها صادرةٌ عن هرّةٍ. حينئذٍ، قالت لي المريضة: "يوجد فوق حجرتي طفلٌ صغيرٌ، استُدعي أبوه إلى الجيش، وتوفّيت أمّه، حديثًا، في مستشفى، وأُهمِل الطفل. وأنا لستُ قادرةً على الصعود إليه، فقد فقدت رجليّ". واستأنف الدكتور "مونستسروك": "حينئذٍ، وثبت إلى العلّيّة، حيث كان الطفل مدفونًا تحت غطاءٍ مريعٍ من النمل الدائب على التهامه، فأحطته بحرامٍ، ومضيت به، ولكنّه لم يستطع الصمود إلاّ يومين، ولقي حتفه".

هذه المشاهد لا تتطلّب مجرّد سكب دمعةٍ عابرةٍ، ولا استخراج ورقةٍ ماليّةٍ من المحفظة، بازدراءٍ. بل هي دعوةٌ إلى التطوّع، ونبذ الجبن.

ويضيف فولّيرو القول:

« بوسعنا نحن الأصحّاء السعداء، الغارقين في السعادة، بل المسرفين فيها، وضع نهايةٍ لهذه المآسي، والحؤول دون أن يُحكَم على إنسانٍ بالبرَص المؤبّد.

"إنّ سيطرة العلم على الداء، غير كافيةٍ، طالما ظلّ المصاب بالبرَص، حتّى بعد شفائه، موسومًا بدمغة البرص، مقضيًّا عليه بحُرُمٍ اجتماعيٍّ، حُرمٍ جائرٍ منافٍ لكلّ منطقٍ، وحكمٍ سليمٍ.

"قل لنا، يا ربّ، من هم البُرص الحقيقيّون!"

شهادةٌ شخصيّةٌ

كان فولّيرو قد أقنع المسؤولين الفرنسيّين، بدءًا برئيس الجمهوريّة ورئيس البرلمان، ووزراء الصحّة، والعدل والتربية بواجب إنقاذ المجذومين من الظلم اللاحق بهم، ودعاهم إلى الإمعان في تقصّي أوضاعهم، وإلى استنباط حلولٍ لها.

وأكّد له وزير الصحّة أنّه بحث الأمر مع المسؤولين عن الصحّة في الجماعة الأوروپيّة، وأنّه أوعز إلى دوائر الصحّة في وزارته إلى الإفادة من الأبحاث العالميّة الجارية بشأن البرَص، واتّخاذ التدابير الآيلة إلى تحويل محاجر العار إلى مراكز أبحاثٍ، وعلاجٍ لمرضى البرَص.

بيد أنّ الرأي العامّ ظلّ بعيدًا عن كلّ ذلك، والصحافة أحجمت عن التطرّق إلى هذه القضيّة، مدّعيةً أنّها تنفّر القرّاء. وقد تذرّع صحافيّون بحجّة أنّ فولّيرو ليس طبيبًا، فعلامَ يُقحمُ نفسه في ما لا يعنيه. وردّ فولّيرو بمقالٍ عنوانه: "جريمتهم؟ إنّهم مرضى!" جاء فيه:

« لكي أُثبت أنّ البَرَص مرضٌ شبيهٌ بأيّ مرضٍ آخر، ولكي أقدّم على هذه الحقيقة شهادةً حيّةً، ما فككت أطوف العالم منذ ثلاثين سنةً، مصافحًا، ومقبّلاً، ومعانقًا البُرْص. لقد صافحت آلاف الأيادي المشوّهة، التي كانت، غالبًا، تحاول التواري، والتخفّي، واضطررتُ، أحيانًا إلى التقاطها عنوةً.

"ربّما، لم يُفهَم مقصدي، بادئَ الأمر، مع أنّي لم أسعَ، قطّ، إلى إظهار شجاعتي، ولا إلى تحدّي الرأي العامّ، بل ابتغيت مجرّد إثبات ما طالما أعلنتُه، بكلّ قوّة قناعتي. وأعترف أنّني فعلت ذلك، أحيانًا، مدفوعًا بشيءٍ من نفاد الصبر، والتوتّر حيال أوهام الغارقين في نعيم الصحّة والسلامة. ويمكنني إيجاز شهادتي في ما يلي:

"دليلي على أنّ البَرَص مرضٌ ضئيل العدوى هو تقبيلي أيًّا منهم. وجميعهم إذا هم شاؤوا. موقفي هذا لم يتغيّر، ولم يطرأ عليه أيّ اختلافٍ منذ ثلاثين سنةً. وها أنذا! انظروا إليّ، ماذا ترون؟ هل من عدوى؟

"ويومًا فيومًا، كان يتنامى التعذّر على أيٍّ كان اتّهامي بالجنون، والجهل. وها قد بتنا، جميعنا نعلم.

"وكان عليّ، أيضًا، أن أُثبت للمصابين، الذين كنت، غالبًا، أكتشفهم، متوارين، لاطين في الأدغال والغابات، خوفًا من زجّهم في محاجر، ودمغهم بعار البرَص المؤبّد. وكان لا بدّ لي من تسريب الطمأنينة إلى نفوسهم وإقناعهم بأنّهم نظير جميع البشر الآخرين...

"لم أكن طبيبًا يملك القدرة على معالجتهم، فتعيّن عليّ شفاؤهم نفسيًّا. ولم يكن لي سبيلٌ إلى هذا الشفاء إلاّ أن أحبّهم، فأعطيتهم ما كان بوسعي إعطاؤهم، وربّما لم تشفِهم محبّتي من دائهم، ولكنّها شفت، أحيانًا، الأصحّاء الذين كانوا يشهدونني، والذين كان بوسعهم إسعاد أصدقائي المرضى.

"ولم يلبث العلم أن دعم المحبّة، وزوّد معركتنا بسندٍ ناجعٍ، مؤكّدًا ما طالما أعلنّاه أنّ البرَص هو مرَضٌ نظير سائر الأمراض، قابلٌ للشفاء بيسرٍ وبكلفةٍ زهيدةٍ، وأنّه أقلّ نقلاً للعدوى من عللٍ ساريةٍ كثيرةٍ، ولا يُصاب به إلاّ من كان مستعدًّا لالتقاطه. وأنّ من حقّ كلّ من أثبتت شهادة أطبّاء شفاءه منه شفاءً ناجزًا، أن يستأنف عيشًا طبيعيًّا في مجتمعه، وأنّ دمغ كلّ من أصابه المرض، يومًا، بسِمة برَصٍ مؤبّدٍ، يبرّر نبذه ونفيه، هو جريمةٌ كبرى ».

فولّيرو يُقحم الدولة في مَعركته

لكي يُضفي على معركته مزيدًا من وزنٍ ونجاعةٍ، اعتزم فولّيرو إقحـام برلمـان بلاده فيها. وقد حظي، داخل هذه المؤسّسة، بمعونة صديقٍ ثمين، هو الأب "غـو" (Gau)، الذي تطوّع، تلقائيًّا، ليكون له المحامي المـتحمّس، والـداعم بمواهبـه، وعلاقاته، وبإيمانه الراسخ، بحقوق ضحايا البرَص. ومعًا جهدا في اكتساب مساندة نوّابٍ مندفعين للذود عن هذه الحقوق، واستقطاب أكبر عددٍ من النوّاب الآخرين من أجل الإبحار في هذا التيّار.

وكلّما بدا نائبٌ متجاوبًا، ولكنّه استمهل ريثما يناقش الأمر مع كتلته النيابيّة، كان الأب "غو" يعترض هاتفًا: "عندما تتعلّق القضيّة بإنقاذ بائسين مظلومين، هم إخوةٌ لنا، لا نلجأنّ إلى كتلنا، بل إلى ضميرنا".

وقد أسفرت مساعيهما على إحداث إجماعٍ نيابيٍّ، نادر الحدوث، حمل فولّيرو على الاعتراف بأنّ الطيبة، والقلوب الكبيرة، موجودةٌ في كلّ جهةٍ، وأنّ الاستقامة والصدق لا يجلسان في هذا الجناح من المجلس دون ذاك، فقد اتّفقت جميع الكتل بالتشاور والتعاون مع راوول فولّيرو على نصّ توصيةٍ، قدّمها مندوبٌ من كلّ كتلةٍ إلى رئيس البرلمان، وهذه صيغته:

« إنّ من أقسى الآفات النازلة بالبشريّة، والمرهقة لها، ومن أكثرها خفاءً عن الرأي العامّ، هو الظلم المريع اللاحق بالمجذومين، في أرجاءٍ واسعةٍ من المسكونة.

"وقد أكبّ مواطنٌ فرنسيٌّ، هو راوول فولّيرو، منذ سنواتٍ عديدةٍ، على هذه القضيّة الرهيبة، بإيمانٍ وتجرّدٍ مثاليَّيْن، يشهد لهما ويُكبِرهما العالم أجمع. وقد

زار معظم محاجر البُرْص في العالم، حتّى الأصعب منالاً، والأشدّ إغلاقًا، في آسيا، وأفريقيا، وأوقيانيا، وولج إلى صُلب الجماعات المصابة بهذا الداء.

"والذين قرأوا تقاريره، أو استمعوا إلى محاضراته عن تلك الأوضاع المذهلة، صُعِقوا باطّلاعهم على استمرار تكدّس هذه الفظائع، وتواصل هذه الجرائم، ومظاهر الجبن والتخاذل، في القرن العشرين.

"استنادًا إلى هذه الخبرة الفريدة، وجّه راوول فولّيرو، بتاريخ ١٩٥٢/٩/٢٠، مذكّرةً إلى منظّمة الأمم المتّحدة، وطالب بإقرار قانونٍ دوليٍّ، يضمن حقوق البُرْص، ويحميهم من القيود الجائرة، المبنيّة على أوهامٍ، وخرافاتٍ بائدةٍ.

"لا يمكن لأيّ إنسانٍ حسن النيّة، أيّةً كانت انتماآته السياسيّة والعقائديّة إلاّ التعاطف مع هذا النداء. وإنّ التقاليد الإنسانيّة والأخويّة الفرنسيّة، تُلزمه بالذود عن حقوق أكثر الأقلّيات وجعًا واضطهادًا في العالم. ومن الضرورة بمكانٍ طرحُ هذه المذكّرة للنقاش بلا تلكّؤٍ، وبكلّ ما تستأهله من اهتمامٍ.

لهذه الأسباب نطلب من المجلس التصويت على القرار التالي:

"تدعو الجمعيّةُ الوطنيّةُ الحكومةَ الفرنسيّة إلى أن تقدّم، باسمها، إلى منظّمة الأُمم المتّحدة، المذكّرة التي قدّمها لها راوول فولّيرو، بتاريخ ١٩٥٢/٩/٢٠، والمطالبة بإصدار نظامٍ دوليٍّ للبرص، ودعوة ممثّلي فرنسا إلى إدراج هذه المذكّرة، في جدول أعمال الدورة القادمة للمنظّمة الدوليّة ».

ومن المحقّق أنّ التصويت على هذه المذكّرة كان أساس معظم القوانين، والأنظمة، والمراسيم التي حرّرت، منذئذٍ، البُرْص، قانونيًّا.

بيد أنّ هذا التحرير "القانونيّ"، لم يكن كافيًا، ما لم يتحرّر الأصحّاء من أحكامهم المسبّقة والجائرة، التي لا تنزع عن الأبرص الذي شُفي شفاءً ناجزًا، سمةَ البرص المؤبّد، واللعنة التي لا تُغفر ولا تزول، وتبقيه محكومًا حكمًا مؤبّدًا، بالنبذ من المجتمع.

لهذه الغاية، وبغية إيقاظ الضمير العالميّ وهزّه، دعا فولّيرو إلى مؤتمرٍ دوليٍّ، من أجل إقرار واجب إعادة تأهيل البُرْص اجتماعيًّا، وتحرير كثيرين من الخوف الأحمق والمجرم من البُرْص الذين نالوا الشفاء. وأوكل فولّيرو إطلاق هذا المؤتمر إلى منظّمة فرسان مالطا العالميّة، التي حفل تاريخها العريق بالدفاع المجيد عمّن سمّوهم "سادتنا الفقراء". وبدعمٍ من وزيرٍ فرنسيٍّ، قابل فولّيرو رئيس منظّمة فرسان مالطا، وبيّن له الأسباب الداعية إلى هذا المؤتمر، وجدوى تولّي المنظّمة المبادرة إلى عقده. وفي الحال وافقت المنظّمة على اقتراحه، وأوكلت إليه وضع خطوط برنامجه الكبرى.

وعُقِد المؤتمر في روما، أيّام ١٦ و١٧ و١٨ نيسان من عام ١٩٥٦، وبفضل تنظيمه الرائع والسخاء الذي استنهضه كان نجاحه باهرًا. وكلّف أعضاء لجنة المؤتمر القادمون من إنكلترا وإسبانيا والولايات المتّحدة، وإيطاليا السيّد فولّيرو بتدبيج التوصية الختاميّة التي أجمعوا على توقيعها، والتي نصّت على:

« يتمنّى المؤتمر الدوليّ من أجل الدفاع عن المجذومين، وإعادة تأهيلهم الاجتماعيّ المنعقد في روما، بمبادرةٍ من منظّمة فرسان مالطا، والذي ضمّ ٢٥٠ مندوبًا من ٥١ دولةً:

- **"معاملة مرضى البَرَص، بعد الاعتراف بأنّ البَرَص مرضٌ مثل أيّ مرضٍ آخر (كالسلّ)، قليلُ العدوى، وقابلٌ للشفاء، معاملةَ أيّ مريضٍ آخر شُفي من علّته.**
- **شنّ حملات توعيةٍ تبيّن حقيقة البَرَص، في البلدان التي يمثّل فيها البَرَص معضلةً اجتماعيّةً، بغية القضاء على الخرافات، والأوهام، والأحكام الخاطئة الملتصقة بهذا الداء ».**

وكان للخدمات الجليلة التي أسداها فولّيرو ذودًا عن حقوق البُرص الأساسيّة المغموطة، أثرٌ بليغٌ في نفوس فئاتٍ عديدةٍ، لم تبقَ مكتوفة اليدين، ولا صامتة اللسان، حيالها، فاتّخذت مؤسّساتٌ علميّةٌ رفيعةٌ مبادراتٍ لافتةً لمكافأتها بالدعم والتنويه.

فدعته أكاديميّة العلوم الأخلاقيّة والسياسيّة، عام **١٩٥٢**، ثمّ عام **١٩٥٨** إلى إلقاء محاضراتٍ عن معركته دفاعًا عن المجذومين.

وعام **١٩٥٥** صدر في الجريدة الرسميّة نصّ قرار وزير التربية الوطنيّة الـذي خوّل الأكّاديميّة الفرنسيّة منحَ، كلّ سنتيْن، جائزة "راوول فولّيرو" وقيمتها مئـة ألف فرنك، مكافأةً لطبيبٍ أو مرسَلٍ أسهم مساهمةً فعّالةً في معركة البرص، بـلا تمييزٍ مبنيٍّ على الجنس، أو الدين، أو التبعيّة الوطنيّة.

بيد أنّ مبادرات التكريم هذه لم تكن كافيةً لحصر وجود فولّيرو في أوروپـا، فقد كان يعتمل فيه شعورٌ ضاغطٌ بوجوب وقوفه إلى جانب البُرْص، حيـث هـم كُثُرٌ، وحيث يحتاجون إلى محبّته ورعايته، وحيث ينبغي تحريـر مـواطنيهم مـن أوهامهم، وأحكامهم المسبّقة والظالمة بحقّهم.

هذا الشعور حوّل "رسول البرص" إلى "متشرّد المحبّة".

"متشرِّد المحبَّة" ومستنبط السخاء

كان إمبراطور الحبشة "هيلي سيلاسي"، قد استدعى فولّيرو، وطلب منه وضع برنامجٍ لمكافحة البَرَص في بلاده. وعلى غرار السيلاسي رغب حُكّامٌ عديدون آخرون، في التشاور مع فولّيرو، وكان بعضٌ منهم يلومونه لأنّه زار بلدانًا أخرى وقدّم لبُرْصها العون والرعاية، ولكنّه لم يفكّر بهم وببُرصهم. فاعتزم تلبية كلّ الدعوات، وحتّى الشخوص إلى حيث تأكّد من وجود بُرْصٍ مهمَلين، حتّى وإن لم يستدعوه. ومنذئذٍ، غدت الطائرات رفيقة أيّامه، وأصبحت المغامرات إلى بلدانٍ تفتقر إلى وسائل الرفاه الأساسيّة، خبزه اليوميّ.

ولكم سَعِد بالتقاء قلوبٍ كبيرةٍ، وإراداتٍ عازمةٍ، وأبرزها الدكتور "پيير ريشيه" (Pierre Richet)، الذي اقترح استخدام السيّارات والدرّاجات من أجل إيصال العلاجات إلى منازل البُرْص. وقد توثّقت، بين الرجلين، علاقاتٌ لم تقوَ المسافات والسنون على إضعافها. ومعًا، طافا بلدان أفريقيا، التي كان الطبيب يخبرها اختباره لكفّ يده. وقد اجتازا معًا، في رحلةٍ واحدةٍ، مع السيّدة مادلين فولّيرو ، مسافة ٦٧٨٣ كيلومترًا.

هذه الجولات كانت باهظة الكلفة، وقد ابتلعت قسطًا وافيًا من التبرّعات المقدّمة لعلاج البُرْص، وكلّ ما كان فولّيرو وذووه يمتلكونه. ومع ذلك، لم تكفِ لتغطية كلّ النفقات. وحينئذٍ، بناءً على اقتراح محاسب المؤسّسة، وجّه فولّيرو نداءً إلى أصدقائه الميسورين، ودعاهم إلى المساهمة بتلك النفقات، على ألاّ يكون هذا التمويل على حساب التبرّعات السنويّة التي التزموا بتقديمها. وكان فولّيرو، حينذاك، يحتاج إلى خمس مئة ألف فرنك، فحصد نداؤه خمسة ملايين فرنك،

وكانت حملته قد أُطلِقت تحت شعار: "رحلةً موفّقةً، أيّها الرئيس"، وسمّاها متبرّعون: "طريق المحبّة الجديد".

وكان السخاء مذهلاً، إذ تبرّع فقراء بأوَد عيشهم، وبكلّ ما تبقّى لهم من حطام الدنيا. مبالغ زهيدةٌ، أحيانًا، ولكنّها فائقة القيمة لأنّها ثمن تضحيات بأغلى ما كان بعضهم يمتلكونه، في هذه الفانية.

وقد أرفق شخصٌ تبرّعه بمبلغ مئةٍ وعشرين فرنكًا، برسالة قال فيها:

"شكرًا لما وفّرته لي من فرحٍ، بإتاحتك لي فرصة مساعدتك"!

وكتب آخر، تبرّع بمئة فرنك: إنّي معجبٌ برسالتك. إليك تقدمة شخصٍ هزيلٍ اقتصاديًّا، ومشوّه حربٍ"!

هذه النتائج شجّعت فولّيرو على تجديد ندائه، كلّ سنةٍ، ليس فقط سدًّا لنفقات رحلاته، بل، أيضًا، من أجل إصدار شاراتٍ لأيّام البَرَص العالميّة السنويّة، ومن أجل طبع نشراتٍ بلغاتٍ عديدةٍ، وتقديم مساعداتٍ للحالات الطارئة، المؤلمة، والملحّة التي يصدفها في طريقه.

وبفضل فيض هذا السخاء، تذوّق فولّيرو سعادة كونه رسول محبّةٍ بطوليّةٍ لا ينضب لها نبعٌ، على وقع اجتيازه ملايين الكيلومترات على دروب المحبّة، منتشيًا فخرًا بحمله ألوف القلوب في قلبه، وفي معركته.

وتجلّى أبهى تجلٍّ، سخاء أصدقائه وداعمي رسالته، بمناسبة ذكرى ميلاده الستّين. فقد أُقيم له، بهذه المناسبة، احتفالٌ على مسرحٍ باريسيٍّ، شارك فيه عددٌ من سفراء أفريقيا وآسيا، حاملين تهاني بلادهم وأمنياتها. وألقى فولّيرو خطابًا أقرّ فيه ببلوغه الستّين من سني عمره، ولاحظ أنّ من المألوف أن يُقدَّم له قالب حلوى تعلوه ستّون شمعةً، ولكنّه استأنف قائلاً: "ما نفع الشموع إلاّ النفخُ عليها

وإطفاؤها"، وأكّد إيثاره استبدال الشموع بستّين سيّارةً تسمح بافتتاح ستّين مركزًا من أجل معالجة البُرْص.

وربّما ساوره، عقب انتهاء الاحتفال، شكٌّ، وندمٌ على الإسراف في رفع سقف مطاليبه. بيد أنّ ذينك الشكّ والندم، ما لبثا أن تبدّدا، عندما تبيّن أنّ أصدقاءه الكُثُر قد لبّوا رغبته، متخطّين أمنيّاته، تخطّيًا أذهله وأسعده، فقد أهدوه، بدل الستّين سيّارةً، مئةً وأربع سيّاراتٍ. فما من ملياردير يملك هذا العدد من السيّارات، وفولّيرو نفسه لم يملك، قطّ، سيّارةً خاصّةً، ولم يتعلّم قيادة سيّارةٍ. وقد أكّد له هذا السخاء أنّ محبّة أصدقائه هي قوّته، وهي قدرته على خوض المخاطر، ودقّ أبواب المستحيل.

وقد توّج مساعيه إعلانُ منظّمة الصحّة العالميّة في جنيف، توصيتها بإلغاء محاجر البُرْص، أينما وُجِدت، فما هي إلاّ من مخلّفات العصور الغابرة، وهي تتعارض مع الحقوق الإنسانيّة الأساسيّة، ومع تطوّر الطبّ الحديث الذي أثبت نجاعة علاج البرَص بمادّة السلفون، الذي يمكن تناوله في المنزل.

قُضِي، إذن، على لعنة البرَص المؤبّدة، وشرع بُرْصٌ يخرجون، ولو بحياءٍ، بادئ الأمر، ريثما يشفى المجتمع من جبنه وجهله، ومخاوفه، وأوهامه الباطلة.

وكان قلب فولّيرو يخفق سعادةً وعزاءً، كلّما وافته من شتّى أرجاء أفريقيا وآسيا أنباءٌ عن بُرصٍ سابقين، أو في طور العلاج، يعملون خارج المحاجر، ويتزوّجون، مزيّنين أصابعهم بالمحابس التي سبق لفولّيرو أن أهداهم إيّاها، وتبلغ سعادته ذروتها عندما يتنامى إليه نبأ إنجابهم أطفالاً أصحّاء رائعين، وكانت تسعده أنباء برصاواتٍ سابقاتٍ، مُكبّاتٍ على آلات الخياطة كي يكسبنَ معيشتهنّ بتعب أيديهنّ. وكانت المحاجر تخلو، يومًا فيومًا، من أسراها.

وكانت أعذب الرسائل هي التي تأتيه من برصاواتٍ التقاهنّ في شبابهنّ، وقبّلهن، فغيّرت قبلته لهنّ كلّ مسرى حياتهنّ.

وتذوّق فولّيرو جرعة عزاءٍ فائقة العذوبة، لمّا رحّب به أبرص سابقٌ، باسمه واسم رفاقه، قائلاً:

« آنَ زيارتك الأولى لنا، أخبرتَنا أمورًا كثيرةً بشأن شفائنا المتوقّع. كنتَ، حينئذٍ، مثل نبيٍّ، وأكّدت لنا: "ستشفون جميعكم، وستعودون إلى بيوتكم وأُسركم، وسيكون لكم أبناءٌ أصحّاءُ. آنذاك، استمعنا إليك، وشكرنا لك محبّتك. ولكنّنا في أعماقنا، لم نصدّقك. وها قد صدّق الواقعُ نبوءاتك، وأثبت لنا كم كنّا أغبياء. لقد قلت لنا الحقيقة، بل لم تقل سوى نصف حقيقة ما يحدث الآن. فقد شُفينا، وتحرّرنا من آلامنا، وعاد كثيرون منّا إلى بيوتهم.

"لقد خرجنا من ظلمات البؤس والقنوط، وها نحن نعود، شيئًا فشيئًا، إلى حضن المجتمع الإنسانيّ. وها أنتَ ترى طغمةً من الأطفال الأصحّاء المشرقين، وهم أبناؤنا. إنّنا مدينون لك ولجهودك، أيّها المحسن العزيز، بكلّ ما حدث لنا ».

وكان أبرصُ قد كتب له، في مطلع معركته: "هنا جميع مَن ينبذوننا ويُهينوننا يخافون منك". وحينئذٍ حال جَيَشان غضبه دون شعوره بالاعتزاز. ولكنّه لمّا تلقّى، بعد مضيّ سنواتٍ، رسالةً من بوليڤيا تقول: "أنت حرّيّتنا". استنار قلبه، وتضاعفت عزيمته على ألاّ يكون للبُرْص المنقذ فحسب، بل أن يكون لهم الصديق، والممثّل والذائد عن حياضهم، متمنّيًا أن يعلم المُهمَلون والملعونون والمنفيّون في أقذر محاجر البرص وأقصاها، حتّى أعماق الأدغال، أنّه سيدافع عن حقوقهم وحرّيّاتهم، بلا هوادةٍ، وسيناضل عنهم حتّى تخوم النضال، وحتّى نفاد قواه، وحتّى الرمق الأخير، لأنّهم بشرٌ مظلومون، ولأنّه إنسانٌ مثلهم، ولأنّه يحبّهم، وهم يحبّونه.

الفَصْلُ الثَّالِث

يوم البَرص العالميّ

« اليوم ينبغي الاختيار، في الحال، وإلى الأبد، أن يتعلّم البشر المحبّة والتفاهم، وأن يحيا الإنسان من أجل الإنسان، أو أن يزولَ البشر أجمعون، معًا »

"فولّيرو"

يوم البَرَص العالميّ

« ما أدهشني في يسوع هو شعاره القاضي بالمضيّ دائمًا إلى الأمام، بحيث يمكن القول إنّ العنصر الثابت في المسيحيّة هو واجب مواصلة التقدّم بلا توقّفٍ »

"برغسون"

لم يُحجم فولّيرو، دعمًا لمعركته على البَرَص، عن اللجوء إلى أيّة وسيلةٍ ناجعةٍ. وربّما كانت أنجع وسائله إطلاقه "يوم البَرَص العالميّ"، الذي أكسب معركته تأثيرًا نفّاذًا رحب الآفاق.

وقد ومَضت هذه الفكرة العبقريّة، في ذهن فولّيرو، عام ١٩٥٣، إذ كان يتحادث مع كاهنٍ شابٍّ، كان قد استمع إلى محاضرةٍ لفولّيرو، تناولت موضوع المظالم النازلة بالذين أصابهم داء البَرَص، ولا سيّما في العالم الثالث، وأخذت هذه المأساة بقلبه، كلّ مأخذٍ. ومنذئذٍ وقف ذلك الكاهن الشابّ حياته على مساندة معركة فولّيرو للقضاء على هذه المأساة المخزية. واقترح، في الحال، تخصيص يومٍ عالميٍّ للصلاة من أجل غوث البُرص، وجعْلَ هذا اليوم تظاهرةً مسكونيّةً، لتعبئة الأذهان والقلوب لصالح من وصفهم فولّيرو بـــ "الأقلّيّات الأشدّ تعرّضًا للقمع"، ومن أجل إشعال ثورةٍ على مصيرهم الجهنّميّ.

وغدا الكاهن الشابّ هو الأب الروحيّ لتلك المبادرة، وفي طليعة مؤيّديها وداعميها. ومذّاك لم يكفّ عن مساندتها بمقالاته وعظاته ومحاضراته. ويوم أطلق فولّيرو نداءه الأوّل، لهذا الحدث، قال:

« يوم ١٩٥٤/١/٣١، سيتلو مئات ألوف الكهنة الكاثوليكيّين، إنجيل القدّيس متّى الذي يقول: "لمّا انحدر يسوع من الجبل تبعته جموعٌ غفيرةٌ، وإذ بأبرص قد جاء، وسجد له قائلاً: "سيّدي، إن شئتَ فأنت قادرٌ أن تطهّرني". فمدّ يسوع يده ولمسه، قائلاً: "لقد شئتُ فاطهُرْ". وللوقت طهُرَ الأبرص من برصه".

"قرونًا قبل يسوع كان للبَرَص وجودٌ. وكانت الإصابة به تُعَدّ لعنةً إلهيّةً. وقد فرضت شريعة موسى على المُبْتَلين بها النأي عن مجتمعهم تفاديًا لنقل عدواهم إلى الآخرين. وكان، حينئذٍ، تباعد الدول بعضها عن بعض يحجب عدد المصابين بهذا الداء، في مختلف أرجاء العالم.

"أمّا اليوم فقد بتنا نعلم أنّ عددهم يناهز خمسة عشر مليونًا، وامتلكنا الدواء الكفيل بشفائهم، وإعتاقهم من بلواهم، فهل يجوز أن نستمرّ في رمي هؤلاء البائسين المظلومين، المعذّبين جسديًّا وروحيًّا، رمي الأقذار والنفايات، وأن ندعهم يتعفّنون؟

"وأليس حريًّا بكلٍّ منّا أن يتساءل: "لِم هم، وليس أنا؟ وبِمَ أستطيع أن أُغيثهم، أنا المكتفي طعامًا، وكساءً، وسكنًا، وحمايةً وصحّةً؟

"بوسع كلٍّ منّا أن يقدّم شيئًا: صلاةً، تعاطفًا، استنكارًا للظلم والإهمال اللاحقَيْن بهم، وتكفيرًا عمّا يُرتَكب بحقّهم من جَوْرٍ، وجُبْنٍ، وأنانيّةٍ، وذودًا عن حرّيّاتهم الإنسانيّة الأساسيّة.

"ولِمَ لا يُخصّص يومٌ واحدٌ في السنة تتكاتف فيها النفوس الكريمة في العالم على حشد الطاقات، والأفكار، والمعارف، من أجل تحسين مصير هؤلاء البائسين المظلومين، وإصدار تدابير جماعيّةٍ في هذا السبيل؟ ».

واقترح فولّيرو تحديد هذا اللقاء السنويّ في ٣١ كانون الثاني (يناير) من كلّ عامٍ، وعقده كلّ سنةٍ في بلدٍ مختلفٍ.

وريثما تنظّم هذه اللقاءات، اقترح فولّيرو أن يشرع أبناء القرى، والمدن القريبة

من محاجر البرص بإعداد أغانٍ ورقصاتٍ، إسهامًا في الاحتفال باليوم العالميّ، وأن تُعِدّ الأمّهات للبُرْص حلوى، وأن يقوم جيران المحاجر بزيارات صداقةٍ للّذين طالما كانوا ضحايا النبذ. وحينئذٍ سيشعر كلّ أبرص أنّه، بفضل عطف يسوع على البُرْص، قد أمسى مرتبطًا بكلّ إنسانٍ جديرٍ بإنسانيّته، وبكلّ مسيحيٍّ جديرٍ بمسيحيّته، ويتأكّد، مع كلّ ما يعانيه من آلامٍ، أنّه ليس محكومًا عليه بلعنةٍ أبديّةٍ.

ومن المبادرات التي حرّض على انتهاجها من أجل دعم معركته، عقدُ جلساتٍ هادفةٍ إلى إطلاع جماهير الأصحّاء على البؤس الشديد والموت المزدوج اللذين يقضي بهما جهلُنا وأنانيّتُنا على البُرْص، ودعوته إلى جمع أموالٍ تساند جهود مُرسَلين وأطبّاء يتفانون ويُضحّون في سبيل بُرْصٍ، في بلادٍ نائيةٍ، ويؤسّسون جيوش محبّةٍ رائعةً.

ومنذ يوم البرص العالميّ الأوّل دعا إلى عدم الاقتصار على يومٍ واحدٍ في السنة من أجل مكافحة داء البرَص، وعواقبه الوبيلة، وناشد مستمعيه وقرّاءه الدأبَ، في كلّ ساعةٍ من كلّ يومٍ، على فعلٍ ما يؤدّي إلى تحسين أوضاع المبتلين بالبرَص، واستعادتهم حقوقهم المداسة، وحرّيّاتهم المسلوبة، وإطلاع الجماهير على حقائق مخزيةٍ كفيلةٍ بهزّ رتابة أنانيّاتنا، وإشعال نفوسنا باندفاعٍ مقدّس متلهّفٍ إلى إنقاذ إخوةٍ لنا من بؤسٍ فرضه عليهم تخاذُلنا وجهلُنا.

منذ اليوم الأوّل، رسم فولّيرو خطوط معركته، ودوافعها وأهدافها، من خلال النداء الذي أطلقه بهذه المناسبة، وقال:

« اليوم ينبغي الاختيار، في الحال، وإلى الأبد:

أن يتعلّم البشر تبادل المحبّة، والتفاهم، وأن يحيا الإنسان من أجل الإنسان،

أو أن يزول البشر أجمعون، ومعًا.

لقد سمح الله أن يتعلّم الإنسان شطْرَ الذرّة، وأتاح له أن يفعل به ما يلهمه قلبه. وبوسع الإنسان، إذا شاء، أن يستنبط من هذا العلم مصدر طاقةٍ وحرارةٍ لا ينضب، فلا يعاني أحدٌ بردًا أو جوعًا، بعدُ.

وبوسعه، إذا شاء، الاستعانة بهذا العلم كي يبدّد الأرض، ويزيل الجنس البشريّ. فما عسى الإنسان يقطف من شجرة معرفة الخير والشرّ؟

الصراع ناشبٌ، اليوم، بين المحبّة والقنبلة الذرّيّة، وهو الصراع الأخطر:

قنبلةٌ ذرّيّةٌ، أم محبّةٌ؟ شبكة محبّةٍ أو سلسلة قتلٍ؟

ينبغي الخيار في الحال وإلى الأبد!

هل تزعمون القدرة على إنقاذ العالم بخطابات رؤساء الدول، وبتصويت المجالس؟ المطلوب هو إنقاذ العالم من ذاته، ومن قنبلته الذرّيّة. لم يعد العالم يجرؤ على الإيمان بشيءٍ، لأنّهم علّموه إنكار كلّ شيءٍ.

ولم يعُدْ يتوقّع شيئًا، فقد أطلعوه على كلّ شيءٍ.

وإنقاذ العالم يقتضي إعادة تعليمه الحياة من زاوية إخاءٍ فرِحٍ وساهرٍ.

إذا فعل كلٌّ منّا، وإذا فعلنا معًا، وفي الحال، كلّ ما يسعنا فعله، أي أكثر ممّا يسعنا فعله، فسيخلص بعض أشخاصٍ، وهؤلاء، مدفوعين بمثالنا، سيفعلون مثلنا أعني خيرًا منّا. وسيحتذي بهم آخرون، وسيفعلون مثلهم، أي خيرًا منهم، وستُعقَد حول العالم شبكة محبّةٍ.

وينبغي الخيار، في الحال، وإلى الأبد، بين شبكة المحبّة أو شبكة الموت! ».

نبرة هذا النداء لم يضعفها كرّ السنين، بل ما انفكّت تكتسب دويًّا، وعنفًا، وتشديدًا، وتركيزًا، نداءً إثر نداءٍ.

وبمناسبة اليوم العالميّ الثالث، ناشد الشبّان الذين يقومون بزياراتٍ إلى البُرْص

ألاّ تكون زياراهم فرديّةً، بل أن يمضوا جماعيًّا إلى أقصى الأكواخ حيث يختبئ البُرْص خوفًا من سَوقهم إلى المحاجر، ويؤكّدوا لهم محبّتهم وتضامنهم، ويغمروا نفوسهم بالطمأنينة والعطف.

وشرعت تتجلّى ثمار معركته. ففي عام ١٩٥١، كان ألفان ومئتا مريضٍ يخضعون للعلاج في أفريقيا السوداء. وبعد سنواتٍ معدوداتٍ، غدا نحو مئة ألف مريضٍ يأتون من أجل أخذ حفنة حبوبٍ، توفّر لهم الشفاء.

ومع استمرار إيقاظ الضمير العالميّ على قضيّة البُرْص ومعاناهم، طُرِح سؤالٌ موجعٌ. ما جدوى شفاء الأبرص من علّته، إذا ظلّت دمغةُ البَرَص ولعنتُها لاحقتَيْن به في أذهان المجتمع؟ ومنذئذٍ آلى فولّيرو على نفسه أن يضيف إلى مكافحة الداء، مكافحة أوهام الأصحّاء، وأحكامهم المسبّقة الجائرة بحقّ المصابين بالداء، وحرص على تبديد تلك الأوهام والسعي لمحو وصمة العار الملازمة حتّى لمن شفوا من الداء، ولإعادهم إلى مكاهم الطبيعيّ في المجتمع، حيث يجب أن ينعموا بحقّهم بالحرّيّة، والكرامة، على قدم المساواة مع الأصحّاء. لقد وطّن عزمه على بذل كلّ ما يمكن بذله أملاً في أن تسهم قيامة البُرص، وهضتهم، في حجب بعض بشاعة الوحشيّة التي تردّى إليها القرن العشرون، قرن القنبلة الذرّيّة.

بمناسبة اليوم العالميّ الرابع أعلن فولّيرو: "إذا قيل لكم: "هوذا رجلٌ بريءٌ، ومع ذلك محكومٌ عليه بالإعدام، ولكنّ كلمةً واحدةً منكم كافيةٌ لإنقاذه، ألا تصيحون طالبين العفو عنه؟ هذا ما أطلبه منكم اليوم، ولكن ليس لإنقاذ فردٍ واحدٍ، بل لإنقاذ ملايين عديدةٍ ممّن لا يزالون محكومين بالنفي، والنبذ، والموت، بلا ذنبٍ ارتكبوه سوى أنّهم ضحايا مرضٍ يُدعى البَرَص".

وأوضح فولّيرو أنّ الغاية المرجوّة مزدوجةٌ:

- **معالجة البُرْص كما يُعالج جميع المرضى، مع مراعاةٍ واحترامٍ لكرامتهم، وحرّيّاتهم الإنسانيّة.**
- **شفاء عقول الأصحّاء من خوفهم الأحمق، والمجرم، أحيانًا، من مخالطة المصابين بالبَرَص.**

كلّ يومٍ عالميٍّ كان يسجّل خطوةً متقدّمةً في المعركة على البَــرَص، ويتسـلّل خبرُها إلى أعماق الأدغال، وتُزَفّ بشراها إلى مَن لم يكن لهم بالأمل عهدٌ.

وكلّ عامٍ كان يشهد تناميًا في صحوة الضمائر، وانتفاض القلوب على ما يُسام ضحايا البَرص من جَوْرٍ. ويزداد العالم اطّلاعًا على حقيقة المرض، والأوهام الملازمة له، وإمكانيّة شفائه، ودعوة المسؤولين إلى الالتزام بواجب رعايتهم البُرْص، واحترامهم ومحبّتهم، وفي سبيل ذلك، تكريس ولو جزءٍ ضئيلٍ من المبالغ الطائلة المنفقة على إشباع هوسهم بالقنابل والصواريخ وأدوات القتل، من أجل إنقاذ ملايين من جار عليهم المرض، وازورّ عنهم حتّى أقرب الناس إليهم.

خطاب فولّيرو في اليوم العالميّ السادس، شدّد على واجب طرح كلّ إنسانٍ على نفسه سؤال: "لِمَ هم، وليس أنا؟"، وألاّ يقتصر المعنيّون بـ "هم" على المصابين بالجذام، بل أن يشمل كلّ المصابين بأصناف البَرص الجسديّ والنفسيّ: كالأنانيّة، والجبن، فهي أشدّ عدوى وفتكًا، وكذلك الجوع والفقر، والمرض الذي يحلّ بمن لا قدرة لهم على الاستطباب، وملايين الأُمّيّين في العالم، والأطفال المفتقرين إلى الغذاء الأساسيّ.

وقد جاء في نداء فولّيرو بمناسبة اليوم العالميّ السابع:

« هل تريدون إنقاذ خمسة عشر مليون إنسانٍ، وهل تريدون أن ينعموا بحقّ العيش مثلكم؟ بوسعكم فعل ذلك.

"إنّهم أشدّ الناس بؤسًا، ووجعًا، ونبذًا، إنّهم البُرْص!

"في عام ١٩٥٩، من القرن العشرين المسيحيّ، وجدتُ أفرادًا منهم في السجون، وفي مأوى المجانين، أو محجوزين في مدافن، أو محشورين في الصحراء، محاطين بالأسلاك الشائكة، تحت أنظار حرّاسٍ مسلّحين بالرشّاشات.

"وشاهدتُ بُرصًا عراةً، جياعًا يئنّون يأسًا، ورأيتُ قروحهم تعجّ بالذباب، وأكواخهم القذرة، وصيدليّاتهم الخاوية، ومراقبيهم المشهرين بنادقهم.

"شاهدتُ عالَمًا يصعب تخيّله، عالَم أوجاعٍ وقنوطٍ.

"فهل سيطول أمد هذه الحال، وهل سندع خمسة عشر مليون إنسانٍ يتعفّنون ويقضون نحبهم، بعد أن أمسينا نعلم أنّ بقدرتنا إنقاذهم وشفاءهم؟ ».

بمناسبة اليوم العالميّ التاسع، قال فولّيرو:

« ينبغي شنّ معركة البَرَص كلّ يومٍ، لأنّ كلّ يومٍ يشهد تناميًا في عدد ضحايا البَرَص.

"حسنٌ أن تكون احتفالات هذه السنة أوفر جمالاً وبهجةً، وأن يكون الإقبال عليها أكثف. ولكن لا نكتفينّ بهذا التقدّم، ولا يقُلْ أيٌّ منكم، وهو عائدٌ إلى بيته: "ها قد أدّيت واجبي عن هذا العام". فبعد إطفاء الأنوار وانصراف الموسيقيّين، يبقى المرضى وحيدين، مُهمَلين، ويبقون بُرْصًا.

"لا يكفي أن نخصّص يومًا واحدًا لمحبّتهم، ولا لفحص ضميرنا مرّةً واحدةً في السنة، بل فليكرَّس كلّ يومٍ من أيّامنا للعناية بهم، والعمل على شفائهم.

"وأنتم من يؤلّفون أقلّيّةً ممّن لا يعون مدى سعادتهم. ومن يتناولون ثلاث وجباتٍ كلّ يومٍ، ولا يعني لهم البَرَص سوى روايةٍ مملّةٍ وكئيبةٍ، تُتلى على مسامعهم، ويدّعون، تملّصًا من واجباتهم: "ليس لدينا معرفةٌ ببُرْصٍ، وليس منهم أحدٌ هنا، ومن ثمّ لا يسعنا أن نفعل لهم شيئًا!

"لا، بل تستطيعون، جميعكم، فعل الكثير.

"فكّروا بهم، تحدّثوا عنهم، ولا ترضوا بالسعادة بمعزلٍ عن الآخرين، فيما يئنّ خمسة عشر مليون إنسانٍ، إخوةٍ لنا، تحت نير تمييزٍ بشعٍ، وأحمق.

"عندما نتكاتف، لا بدّ من أن يصغي الجميع إلينا، ومن أن يكفّ عن التسلّي على ظهر القمر، وعن سكّ أسلحة انتحارنا، "الكبار" – أولئك الجبابرة الذين فقدوا إنسانيّتهم. ولينحنوا على بؤس خمسة عشر مليون أبرص يحقّ لهم أن يكونوا، هم أيضًا، بشرًا، ينعمون بحقوقهم، وأن يكونوا، هم أيضًا، عظماء.

"إنّما الحضارة محبّةٌ متبادلةٌ ».

وقد سجّل اليوم العالميّ التاسع خطوةً حاسمةً. فقد استمع عشرات ملايين الناس، في ثلاثين بلدًا، إلى ما أعلنه، من إذاعة لوزان السويسريّة، رئيس قسم البرص في منظّمة الصحّة العالميّة، زافًّا بشرى شفاء نصف المليونَيْ أبرص، الذين يتابعون علاجًا.

هذا الإعلان كان يعني القضاء على الخوف من البَرَص، وعلى ما كان لاصقًا بهذا الداء من قنوطٍ، ولعنةٍ أبديّةٍ. وكانت هذه البشرى إيذانًا ببدء المعركة، ودعوةً إلى المضيّ بها، قدُمًا، وبعزيمةٍ، حتّى نهاية شوطها. إنّ المنظّمة تتحدّث عن مليونين ونصف مليون من البُرص، يتلقّون العلاج، فماذا عن بقيّة الخمسة عشر مليونًا؟ يبدو أنّ ليس هناك رغبةٌ، ولا وقتٌ للبحث في أوضاعهم، ووضع خططٍ لإنقاذهم، وليس لدى المسؤولين الحكوميّين، لا دافعٌ لوقْف جزءٍ ضئيلٍ من ميزانيّات بلادهم لهذه الغاية، مع أنّ فولّيرو لم يكفّ، على امتداد سنواتٍ، عن مناشدة الدولتَيْن الكبريَيْن أن تخصّص كلٌّ منهما كلفة صنع قاذفة قنابل واحدةٍ، كلّ سنةٍ، لهذه الغاية الإنسانيّة النبيلة، مبيّنًا لهم أنّ هذه التضحية التي لن يكون لها أثرٌ يُذكر على ترسانة كلٍّ من الدولتيْن، ستساعد على شفاء جميع بُرص العالم. ومع ذلك ضنّت الدولتان الكبريان كلتاهما بفلسٍ واحدٍ من ميزانيّات القتل والدمار.

ولم يرُق للأصحّاء الميسورين الراقدين في بيوتٍ مزوّدةٍ بكلّ وسائل الرفاه، على أسرّةٍ وثيرةٍ إفساد هنائهم بالتفكير بضحايا البرَص الأبرياء.

وفي هذه الأثناء لم يرتح الداء، ولا هادن، ولم يكفّ عن الفتك بأيدٍ حرمها من أصابعها وسواعدها، وأرجلٍ التهمها، وعيونٍ أغلقها، وسلبها النظر، ومع ذلك لم يمنع الأصحّاء من النوم ملء عيونهم.

كان، إذن، اليوم العالميّ، الذي أعلن، رسميًّا، القدرة على شفاء البَرَص، دعــوةً لكلّ قادرٍ إلى دعم وسائل هذا الشفاء، ومناشدة الأكثر قدرةً على ضرب المثــال في السخاء والتضحية، وحفز حكّام العالم على التضحية، ولو بجــزءٍ يســيرٍ مــن طموحهم في السيطرة على الكرة الأرضيّة، واستعمار القمر، من أجل مدّ يد العون إلى المتألّمين القابعين في جوارهم. فغوث هؤلاء البائسين هو ما يضفي على الإنسان شرفًا وكرامةً.

وقد ترافق اليوم العالميّ العاشر مع الذكرى الثلاثين لنداء فولّيرو الأوّل لصالح "الأقلّيّات الأشدّ وجعًا ومعاناةً للقمع في العالم". فلا عجب أن طغى على ندائه، في ذلك اليوم، الطابع الشخصيّ، وقد استهلّه بقوله: "ثلاثون سنةً. حيــاةٌ بأكملــها عبَرتْ وكأنّها يومٌ واحدٌ. ها إنّي أحبو صوب الشيخوخة، ولكنّ خدمة الفقراء قد أغنتني غنًى وفيرًا. وأنا أُهديكم الكنــز الذي اكتسبتُه، والذي يمكــن اختزالــه بلفظة المحبّة. وهي ليست محبّةً عابرةً، ليومٍ واحدٍ، ولا لشخصٍ واحدٍ يبادلك المحبّة، بل محبّةً تمتدّ على جميع الأيّام، وعلى مساحة البسيطة جمعاء، شاملةً القريب القاطن في أقاصي العالم، والغريب الساكن في جوارنا.

ونحن بتحريرنا البُرْص من مرضهم، ومن اللعنة المريعة الملازمة لهم، إنّما نحــرّر أنفسنا من بَرَصٍ أشدّ قذارةً، بلا قياسٍ، وأشدّ عدوًى: الخوف والأنانيّة، والجبن.

وبمناسبة اليوم العالميّ الحادي عشر، صدح نداء فولّيرو بنغمات النصر، فقال:

« ماذا شاهدتُ، هذه السنة، خلال تجوالي في العالم؟ لا ريب أنّي شاهدتُ، وللأسف، مزيدًا من البُرْص المهملين، البائسين، المنبوذين. ولكنّي شاهدتُ، أيضًا، بُرْصًا يعملون، وينشدون، بُرْصًا بنّائين، ونجّارين، وإسكافيّين، وطلاّئين، وحائكين. رأيتُ بُرْصًا تحرّروا من دمغة البَرَص، حتّى إن لم يتحرّروا تحرّرًا ناجزًا من الداء، لأنّهم أمسوا بشرًا مثل سائر البشر.

"لقد قبضوا على مقاليد وجودهم، وباتوا مسؤولين، ومحترمين، يكسبون معيشتهم بعملهم. إنّهم بشرٌ، يعملون، ولذلك يغنّون...

لقد شاهدتُ أحد أوائل "أبنائي"، وقد نال شفاءً تامًّا، وأصبح مدير مدرسةٍ في عاصمةٍ أفريقيّةٍ كبرى.

تحقيق هذه المعجزات كلّها لم يستلزم سوى القليل من الشجاعة، والكثير من المحبّة، فالأبرص لا يحتاج إلى شفقةٍ، بل إلى عدلٍ ومحبّةٍ. وهو يأبى وضع التسوّل الفرديّ والجماعيّ الذي أوصله إليه رياؤنا. ولا مطمح له إلاّ أن يكون إنسانًا كاملاً، يعمل ويغنّي. ونحن برفعنا عنه ضيم مجتمعٍ طالما ازدراه، واستغلّ بؤسه ومحنته استغلالاً حقيرًا، واصطنع لنفسه من هذا الاستغلال بطولةً رخيصةً، إنّما نخدم الإنسان، كلّ إنسانٍ ».

كان فولّيرو يأمل أن ينهي بمناسبة اليوم العالميّ الثاني عشر، أي عام ١٩٦٥، المعركة التي شنّها من أجل تعبئة الضمائر للذود عن ضحايا البَرَص، ومن أجل معالجتهم وشفائهم، وإنقاذهم من مصيرهم اللاإنسانيّ، وتحريرهم من دمغة البرص ولعنته. وكان قد استجاب لنداءاته أصحابُ ضمائر حيّةٍ من كلّ أرجاء المسكونة، وغدا ١٢٧ بلدًا يشاركون في اليوم العالميّ للبرَص، وكان ملوكٌ ورؤساء قد مدّوا أيديهم لغوث من كانوا، حتّى الأمس، ملعونين ومنبوذين.

وكان، هو، قد ألّف، في شتّى البلدان، لجانًا تجمع تبرّعاتٍ وتوزّعها على البُرْص المحتاجين إلى علاجٍ.

ومع كلّ ذلك، تبيّن أنّ مهمّته لم تبلغ غاية شوطها، وأنّ معركته لن تتراخى ولن تُهادن، طالما ظلّ أبرص واحدٌ مفتقرًا إلى غوثٍ ومحبّةٍ، وطالما ظلّ وقرُ البَرَص يرين على ضمير العالم.

وكان يزداد، كلّ يومٍ، يقينًا، بأنّ شفاء البُرْص من دائهم لن يكون كافيًا، ما لم يُشفَ الأصحّاء من مجافاة مرضى البرص والنأي عنهم، ونبذهم، ومن الأوهام والمخاوف الملتصقة بهم، والموروثة من قرونٍ سحيقةٍ. وهذا الشفاء يستلزم محبّةً مطّلعةً على حقيقة البَرَص، ومدى عدواه، وإمكانيّة الشفاء منه، ويقتضي حملةً شرسةً على أصناف بَرَصٍ أدهى وأخطر عدوى: الأنانيّة العمياء، والجبن المتحفّز للفرار من المسؤوليّة، وانعدام الثقة الذي يشوّه الإنسانيّة، والحقد الذي يثقلها بالعار.

وقد ترسّخ لديه اليقين بأنّ المحبّة هي العلاج الأنجع لجميع هذه الأوصاب المميتة، وأنّ الحضارة الخاوية من المحبّة ليست سوى مكمن عثٍّ وفسادٍ. فناشد أصدقاءه:

« لنواصل هذه المعركة الأخويّة، ولنبسطها على مساحة العالم أجمع، وعلى كلّ مصائبه. فطالما بقي على أديم أرضنا مريضٌ يحتاج إلى علاجٍ، ويائسٌ يحتاج إلى مواساةٍ، وأبرص يحتاج إلى شفاءٍ واحترامٍ، وطالما كانت، في العالم، مجاعةٌ يمكن مقاومتها، وسجنٌ اعتباطيٌّ، لا يحقّ لكم ولي لا صمتٌ ولا هدنةٌ ».

تطوّراتٌ في الاحتفال بيوم البَرَص العالميّ

منذ إطلاق مشروع يوم البَرَص العالميّ، ارتدى الاحتفال بكلّ يومٍ منه حلّةً طريفةً.

فاليوم الأوّل، عام ١٩٥٤، شهد منظرًا مدهشًا غير مألوفٍ، حتّئذٍ. فاستجابةً لنداء فولّيرو، انطلقت مواكب من سكّان القرى والمدن القريبة من محاجر البرص، صوب البُرْص المحجورين، وقد حمل الصغار باقات الزهور، والحلويات التي أعدّتها أُمّهاتهم، ودفعوا الأبواب التي كفّ البُرص عن إيصادها، ودخلوا بلا خوفٍ، وقدّموا هداياهم المتواضعة للمرضى الضاجّين فرحًا وعزاءً، ورقصوا أمامهم، وأنشدوا لإمتاعهم، ورَوَوا لهم حكاياتٍ جميلةً، وابتسموا لمن لم يبتسم لهم أحدٌ من قبلُ.

وبمناسبة اليوم الثاني، أعلنت إذاعات وتيليفزيونات ستّين بلدًا عن الاحتفال بذلك اليوم. وكانت حكومة مدغشقر قد أصدرت قرارًا بإلغاء كلّ التدابير والقوانين القمعيّة بحقّ البُرص، وحجزت قطاراتٍ بأكملها كي تنقل آلاف الراغبين في زيارتهم من "تنانا ريــف"، إلى "منْغَرينو" (Mangarino).

عام ١٩٥٦، اشتركت أربع مئة محطّة إذاعةٍ وتيليــڤيزيونٍ في ٧٢ بلدًا في الإعلان عن اليوم العالميّ الثالث. وفي روما أقام الكردينال تيسّيران القدّاس عن نيّة البُرْص، ومنذئذٍ أصبح هذا القدّاس تقليدًا دائمًا. وتمثّلاً بالكردينال أُقيمت آلاف القداديس في العالم عن نيّة البُرْص، وأُقيمت صلواتٌ في كنائس بروتستانتيّةٍ، وفي جوامع، وفي معابد بوذيّةٍ. وبعث السفير الفرنسيّ في أندونيسيا، برسالةٍ أخبره فيها أنّ الأسطوانة التي كان "فولّيرو" قد أرسلها قد بُثّت في الإذاعة الرسميّة مُرفَقَةً بترجمةٍ إلى الإنكليزيّة والأندونيسيّة، وأنّ وزير الصحّة العامّة نظّم زياراتِ أولاد مدراس إلى محاجر بُرْصٍ.

وأنبأ وزير الصحّة في كاليدونيا الجديدة فولّيرو، أنّ جميع رجال الدولة شاركوا في الاحتفال باليوم العالميّ الثالث عشر، المقام في مصحّ "دوكُس" (Ducos)، الذي أُطلِق عليه، لاحقًا، اسم "مركز راوول فولّيرو". وتضامنًا مع حملة فولّيرو أقرّ المجلس العامّ، بالإجماع، تخصيص مبلغ مليونَيْ فرنكٍ من أجل تحسين المصحّ وتجهيزه.

عام ١٩٥٧، كتب له الدكتور "مونتستروك" (Montestruc) الذي ضحّى كثيرًا في سبيل البُرْص: في مصحّ البُرص في "فور دي فرنس" (Fort de-France) بجزيرة المارتينيك، أنّ الاحتفال باليوم العالميّ، لتلك السنة كان فائق الروعة. فإثر القدّاس اقتحمت جموع الزائرين مركز بيع مصنوعات البُرْص، وفي غضون لحظاتٍ، اختُطفت كلّ معروضاتهم من مطرّزاتٍ، ودُمًى، ومصنوعاتٍ خزفيّةٍ مزخرفةٍ زخرفةً فنّيّةً. وتبيّن أنّ الخوف الأحمق والنافل من مسّ مصنوعات البرص، آخذٌ في الاضمحلال.

وباح أحد المرضى: "إنّ ما حدث في ذلك المساء، كان انتصارًا عارمًا. فعقب الحفلة الموسيقيّة، ومنذ الساعة الثامنة والنصف، انتظمت حلقات رقصٍ شارك فيها بُرْصٌ وأصحّاء، واستمرّت حتّى الفجر. ولم يستطعْ طبيبنا العزيز إمساك دموعه".

عام ١٩٥٨، شارك ثلاثةٌ وثمانون بلدًا، في الاحتفال بذلك اليوم الذي سجّل انتصاراتٍ رائعةً. وقد أقرّ عالمٌ برازيليٌّ مختصٌّ بداء البرص، يُدعى "إرناني أغريكولات" (Ernani Agricolat): "إنّي موقنٌ بأنّ هذا اليوم سيحرز نجاحًا عارمًا، بما أنّه تحت رعاية "متشرّد المحبّة"، الذي أُسمّيه أنا "مهاتما البُرْص"، أي نفسهم الكبيرة".

ومن القاهرة كتب له الدكتور يوسف جورجي جبرائيل: "احتفلنا هنا باليوم العالميّ الخامس، بتأسيسنا مركزًا دائمًا أطلقنا عليه اسم "جمعيّة غوث المجذومين، وإعادة تأهيلهم مهنيًّا واجتماعيًّا". وقد أدّى عرض فيلم عن البرص وبثّ ندائكم

المؤثّر، وسماعُ صوتكم المفعم محبّةً إلى تعبئة نفوس العديد من الأعضاء، في الحال، ومنهم شخصيّاتٌ رسميّةٌ، وأطبّاء، ورجال دين، وأقوامٌ من كلّ طبقات المجتمع. وبفضل يوم البرص العالميّ، ستنطلق هذه الجمعيّة الوليدة، ولن تلبث أن تؤتي ثمارًا يانعةً. وإذا أتاح لنا حسن الطالع أن نحظى بزيارتكم، فنحن وبُرْصنا سنرحّب بكم أحرّ ترحيبٍ، وأشدّه حماسًا".

عام ١٩٥٩، شهد تناميًا في اهتمام الحكومات بحملة فولّيرو، فبمناسبة اليوم العالميّ السادس، أعلنت اليونيسيف أنّ ١٢ مليون إنسانٍ مصابون بالبرص، في العالم، وأنّ في أفريقيا وحدها يرتقي عدد البُرص إلى ثلاثة ملايين، أي بمعدّل ثلاثة بالمئة من مجموع السكّان. ولذلك قرّرت تخصيص ميزانيّة مليار ومئتي مليون فرنكٍ من أجل مكافحة الجذام في أفريقيا.

وفي فرنسا، وزّع وزير التربية الوطنيّة، على جميع الجسم التعليميّ، تعميمًا حمل توقيعه داعيًا المعلّمين إلى استنفار الشبيبة لخوض المعركة ضدّ البرص. وقدّمت المؤسّسة الأميركيّة للبرص، دعمًا لمعركة فولّيرو.

وفي تيلاند بُثّت أسطوانة فولّيرو، فهزّت قلوب المستمعين، واستقطرت دموعهم. وجرى مثل هذا الحدث في إثيوبيا، حيث وُسّعت عيادة البرص على مقربةٍ من العاصمة.

وفي أندونيسيا، احتفلت الحكومة بيوم البرص العالميّ احتفالاً لائقًا وأكّد العديد من الأطبّاء إمكانيّة شفاء البُرْص، ودعوا إلى نبذ الخوف من عدوى البرص، وإلى الإحجام عن نبذهم. واختُتم الاحتفال بعشاءٍ جلس على مائدته بُرْصٌ وأصحّاء جنبًا إلى جنبٍ.

١٩٦٠: ثمانٍ وثمانون دولةً احتفلت بيوم البرص العالميّ، وأعلنت دولة الكاميرون هذا اليوم عيدًا وطنيًّا، وشخص فولّيرو إلى "ياوندي"، للمشاركة في

تدشين جناح جراحة البُرْص، الذي موّلت تأسيسه منظّمة المحبّة، التي يرأسها فولّيرو. ودعا رئيس الجمهوريّة جميع العاملين في ميدان الصحّة إلى دعم المعركة ضدّ البرص. وأثمر نداؤه سبعة آلاف رزمة أدويةٍ، وُزّعت على خمسين مركز علاجٍ.

وفي كندا، دوّى صوت فولّيرو على أثير عشرات الإذاعات.

وبالإجمال، كان حصاد ذلك اليوم وفير الثمار في غوادالوپ، واليابان، وفي كلّ مكانٍ رحّب المحتفلون بالقضاء على الخوف من البرص.

١٩٦١: احتفلت ١١٦ دولةً بذلك اليوم العالميّ. وبما أنّ ذلك اليوم توافق مع ذكرى اغتيال المهاتما غاندي، أعلنه الاتّحاد الهنديّ يوم عطلةٍ رسميّةٍ.

وفي ذلك اليوم ترأّس الاحتفال في بلدانٍ عديدةٍ ملوكٌ، ورؤساء دولٍ وحكوماتٍ، شخصيًّا. وأسبغت على احتفال تلك السنة طابعًا عالميًّا بمشاركة بلدانٍ من المعسكر الشرقيّ مثل پولونيا، وتشيكوسلاڤيا، ويوغوسلاڤيا، وألبانيا.

وكان ذلك اليوم يوم صلاةٍ كونيّةٍ، تخطّت حدود المذهبيّة، والجنسيّة والعرقيّة، وانتزعت من قلوب جميع البشر صيحةً واحدةً نحو منبع كلّ حبٍّ. وفي الـڤـاتيكان احتفل بالقدّاس عميد المجمع المقدّس، الكردينال تيسّيران، التماسًا لشفاء البرص، وتحسين أوضاعهم. وبعث رئيس اتّحاد البوذيّين الصينيّين برسالةٍ مؤثّرةٍ، إلى المشاركين في احتفالات ذلك اليوم.

وأُذيعت، بثماني عشرة لغةً، منها العربيّة، صلاةٌ من أجل المجذومين هتفت بها شفاهٌ مسيحيّةٌ، ومسلمةٌ، وبوذيّةٌ. وقد تكاتفت جميع طوائف لبنان على جمع تبرّعاتٍ للبرص، فحصدت تلك الحملة مليوني دولار.

وفي جامعة ويستمنستر، عُقد لقاءٌ لهذه الغاية ضمّ جميع المذاهب المسيحيّة: أنكليكانيّين، ولوثيريّين، وپـريسبيتيريّين، وكاثوليكيّين.

وكانت التظاهرة الأبلغ رمزيّةً، والأعمق تأثيرًا، تلك التي جرت في مركز علاج "سانتا برباره" في اليونان، حيث نُظِّم برنامجٌ جريءٌ تضمّن غداءً مشتركًا مع البُرص، لا في قاعةٍ واحدةٍ فحسب، بل على مائدةٍ واحدةٍ، حيث استعمل الجميع أدوات الطعام ذاتها، وشربوا من الأقداح ذاتها، وكسروا الخبز عينه. وخُيِّل لكثيرين أنّ قليلين هم الذين سيملكون جرأة الإقدام على هذه المخاطرة. بيد أنّ الواقع كان على نقيض ما راود شكوك المتشائمين، إذ إنّ معظم الذين حضروا لم يجدوا لهم مكانًا، فالأماكن المعدّة امتلأت بأجمعها باكرًا، وتعذّر إجلاس المزيد. فمن الضيوف القادمين مَن تناولوا طعامهم وقوفًا، ومنهم من آثروا انتظار وجبةٍ أُخرى كي يحظوا بمقعدٍ، وتوالت الوجبات المقدّمة.

وفجأةً عُقِدت "دبكةٌ" حول الموائد، ورقص البُرص بأقدامهم المهترئة، واشتبكت أيدي الأصحّاء بجدعات البرص وساندها، وسادت ساعةٌ مهيبةٌ، سها البرص أثناءها عن آلامهم، ومحنتهم، وعن ذواتهم؛ وكنّست المحبّة الأوهام والمخاوف، وتغلّبت عليها، وجدّدت الأذهان والأحكام.

وتمنّى مناصرو فولّيرو أن تكون تلك الدبكة التلقائيّة سلسلة محبّةٍ تنتظم العالم كلّه، ذات يومٍ.

وفي أماكن متعدّدةٍ أُقيمت مبارياتٌ رياضيّةٌ واجه فيها فرقاء من البُرص رياضيّين محلّيّين محترفين.

وقُدِّمت مئات العروض السينمائيّة لصالح معالجة البرص، منها ما جرى في صالات المدينة، ودُعي إلى حضورها بُرصٌ، ومنها ما عُرض في صالات المحاجر ودُعي إليها أصحّاء.

وغالبًا، ما قدّم بُرْصٌ حفلاتٍ موسيقيّةً، وقرع طبولٍ، في صالات المدينة، وأمتعوا بها الأصحّاء. وغالبًا، ما قدّم بُرْصٌ مسرحيّاتٍ في صالاتٍ مكتظّةٍ بالمشاهدين.

ومن شتّى أقطار العالم، كانت تنهمر رسائل تقديرٍ وشكرٍ، مشيدةً بالتحوّلات المعجزة التي كانت تحدث في أجساد المرضى وفي نفوس الأصحّاء، ومؤكّدةً أنّ أقوال فولّيرو قد انحفرت في قلوب البرص، حيثما وجدوا.

وكلّ نجاحٍ كان فولّيرو يحرزه في معركته على داء البَرَص، كان يزيده عزيمةً على شنّ حربٍ على كلّ أصناف البرص الأُخرى، وعلى البؤس والجوع والمرض.

وكان فولّيرو راسخ اليقين بأنّ البشر الذين طالما عاشوا جنبًا إلى جنبٍ، يجب أن يعيشوا، جميعهم معًا، وأن يحيوا كلٌّ من أجل الآخرين، لأنّ الحقيقة الوحيدة هي المحبّة المتبادلة.

١٩٦٢: بمناسبة اليوم العالميّ التاسع، وردت إلى فولّيرو من الرئيس الأميركيّ جون كنيدي، رسالةٌ جاء فيها: "بقدر ما تتقدّم معارفنا، وينمو فهمنا، يزداد تألّقًا أملنا بنصرٍ حاسمٍ على البَرَص... وبمناسبة يوم البرص العالميّ، يسرّني أن أحيّي المنظّمات والأشخاص الذين على امتداد العالم كرّسوا جهودهم لدعم هذه الحركة، فقدّموا الغوث والرجاء إلى ضحايا عدوّ الإنسان القديم. وإنّي أتمنّى أوسع نجاحٍ، في السنوات القادمة، للذين ضمّوا جهودهم، بُغية تخفيف آلام هؤلاء السقماء المعانين".

ووردت إليه، أيضًا، رسالةٌ من إمبراطورة إيران، فرح ديبا، تبارك جهوده في سبيل تحرير البُرْص من الظلم اللاحق بهم، ومن أجل إعادتهم إلى الحياة الطبيعيّة، وتزفّ له نبأ تأسيس جمعيّةٍ في طهران لهذه الغاية عينها، برعاية زوجها، ورعايتها.

ومن "الدّلاي لاما" الزعيم الروحيّ للبوذيّين الصينيّين، جاءته رسالةٌ قال له فيها: "أحيّي فيك رسول مرضى البَرَص، وأُكبر جهودك الجسيمة". وأكّد له أنّه سيوفّر لنداء فولّيرو أوسع دعاوةٍ وانتشارٍ في بلده، وسيُطلع مواطنيه على حقيقة الجذام، وسيدعوهم إلى نبذ الخوف من المصابين به.

١٩٦٣: أنبأه وزير صحةٍ سابقٌ في كمبوديا أنّ الملك أسّس لجنةً وطنيّةً لمكافحة البرص، تلبيةً لرغبة فولّيرو.

١٩٦٤: زار ملك بلجيكا وملكتها مدينة "پولَمباكّان" (Polambakkan)، جنوبيّ مدراس، حيث كانت الحكومة البلجيكيّة قد أسّست، عام **١٩٥٥**، مركزًا لمكافحة داء البرص، وسلّمت إدارته، عام **١٩٦٠**، إلى الحكومة الهنديّة، التي طلبت من الفريق العامل، آنذاك، متابعة إدارة المركز، الذي كان يخدم مساحة ثلاثة آلاف كيلومترٍ مربّعٍ، وتضمّ **٨٨٤** قريةً، يقطنها **٥٥٠** ألف نسمةٍ، يعاني أربعةٌ بالمئة منهم داء البرص. وقد تجنّد لهذه المهمّة خمسة أطبّاء، ونحو خمسين مساعدًا. فضلاً عن العاملين في المختبر، والمعالجين الفيزيائيّين، والمساعدين الاجتماعيّين، وجميعهم تحت رعاية الدكتورة الشابّة "كلير ڤيلوت" (Claire Vellut)، التي أوكل إليها هذه المهمّة البروفسور "هيميرايك" (Hemerijckx)، العالم المختصّ بشؤون البرص، والذي اشتهر بطيبته الأُسطوريّة، وبعلمه الغزير، عندما كُلِّف بمهمّةٍ أُخرى، أخطر شأنًا، وأكثر استيعابًا لخدماته الجلّى.

وكانت السيّدة كلير تناهز الثلاثين من العمر وتحمل أرفع الشهادات الطبّيّة من جامعة "لوڤان" البلجيكيّة، وقد اكتسبت خبراتٍ ثمينةً بعملها إلى جانب أرفع الأطبّاء والأساتذة خبرةً، وكانت بسمتها دائمة الإشعاع، وطيبتها الطاغية خيرَ داعمٍ لعلمها وخبرتها.

وكان للمركز الذي تخدمه اثنان وخمسون فرعًا متنقّلاً، ومعظمها على حواشي الطرقات العامّة، تقدّم، في داخلها العلاجات البسيطة، والأدوية. أمّا الحالات الخطيرة التي تستلزم مداخلاتٍ جراحيّةً، فكانت تعالج في مستشفى يضمّ خمسةً وأربعين سريرًا، ومخبرًا، ومركز معالجةٍ فيزيائيّةٍ.

وجديرٌ بالتنويه أنّ من الثلاثة وعشرين ألف مريضٍ مصابٍ بـالبرص الـذين عولجوا في ذلك المركز، معالجةً ينيرها العلم، وتقودها المحبّة، حظي ستّة عشر ألف مريضٍ بشفاءٍ تامٍّ، أي بنسبةٍ تناهز السبعين بالمئة.

ومن أجل تكريم مواطنيهم الذي دعموا المعركة على البرص، دعمًا مجـديًا، حضرت الأُسرة الملكيّة إلى الهند بمناسبة يوم البرص العالميّ الحادي عشر، وأسالت كلمات الملك والملكة الدافئة، والفائضة حبًّا وعطفًا، أمـواج عـزاءٍ، وافتخـارٍ، وعزيمةٍ على بذل المزيد من التفاني في قلوب المعالجين والمرضى.

١٩٦٥: أُسوةً بالرئيس كينيدي، بعث الرئيس لينـدن جونسـن، برسـائل تشجيعيّةٍ إلى جميع المؤسّسات المشاركة في المعركة ضدّ البرص، والتي حرصت على أن تجعل من ذلك اليوم العالميّ مناسبةً وطنيّةً فريدةً. اليوم العالميّ في تلك السـنة احتُفِل به في "باماكو" عاصمة "مالي". وقُدِّر عدد المشاركين فيه بمئة ألف شخصٍ. وكان فولّيرو محاطًا بجميع أعضاء حكومة مالي، بالسّلك الدبلوماسيّ. وقد ألقـى الدكتور "دولو سوميني" (Dolo Sominé) وزير الصحّة العامّة، ورئـيس لجنـة فولّيرو الوطنيّة خطابًا أشاد فيه بمشروع فولّيرو الجبّار، وبنجاحه في إيقاظ ضـمائر العالم، وفي إطلاق تيّار إخاءٍ وتضامنٍ عالميٍّ، حطّم الأنانيّات، والأحكـام الخاطئـة المسبّقة، والأوهام، وانتشل المجذومين من مستنقع النبذ والنفي والإقصاء، الـذي دفنهم فيه الجهل والأنانيّة، والتخاذل، وقسوة القلوب.

واحتُفِل باليوم الثاني عشر في جزيرة "لا ريؤونيـون" (La Réunion) برئاسـة وزير الإعلام الفرنسيّ "آلان پيرفيتّ" (Alain Peyrefitte). وتجلّى الفرق الشاسع بين الاحتفال بذلك اليوم والاحتفال باليوم الأوّل الذي اقتصر على نحو عشـرين شخصًا التفّوا حول ثلاث زجاجات نبيذٍ أبيض، ورزمتي بسكويت. وفي ذلك اليوم

الثاني عشر خاطب أحد المحتفلين فولّيرو بقوله: "أوَليس هذا نصرًا مبينًا؟ أوَلم تشعل الشرارة التي أوريتَها حريقًا هائلاً؟".

واستمرّت الاحتفالات بيوم البرص العالميّ، محقّقةً، كلّ سنةٍ، مزيدًا من المشاركة، والإقبال والإثمار وسنورد مقاطع بارزةً من نداءات فولّيرو في هذه السلسلة من الأيّام العالميّة.

وبتلك المناسبة صرّح فولّيرو:

« ستظلّ قضيّة الجذام ترين على الضمير العالميّ، ولن يتحرّر من وزرها إلاّ يوم يتحرّر بشرٌ لم يرتكبوا جريمةً سوى جريمة إصابتهم بداء البرص، فأدانهم جهلنا، وجبننا، غالبًا، ببَرَصٍ مؤبّدٍ.

... على معركتنا أن تشمل، مستقبلاً، كلّ أصناف البرص. فثمّة أصناف برصٍ هي مئة مرّةٍ أشدّ فتكًا وقتلاً: الجوع، والمسكن الزريّ، والفقر... من أجل البشر أجمعين، فلنحارب أمراض البرص هذه، بسلاحٍ واحدٍ، سلاح المحبّة. وبئس التقنيّات الديكتاتوريّة، والانتصارات العقيمة والأرقام القياسيّة المتعجرفة، إن لم يكن فيها للقلب نصيبٌ.

فما الحضارة الخالية من المحبّة سوى أوكار حشراتٍ.

عام ١٩٦٦، بمناسبة اليوم العالميّ الثالث عشر، صرّح فولّيرو:

« في مستهلّ معركتنا على البَرَص هتف لي مصابٌ بالداء من أعماق بؤسه: "أنتم حرّيّتنا". هذا الهتاف حدّد، إلى الأبد، واجبنا الذي يفرض علينا أن نقتضي من المجتمع الاعتراف بهؤلاء المصابين، وتقبّلهم كما هم: أبناءً وإخوةً، لا شفقةً عليهم، بل تأديةً لواجبنا حيالهم، لا إكراهًا بل حبًّا، فإذا، نحن السعداء، بل المسرفين في السعادة، أمسكنا عن أبرص نال الشفاء، المكان الذي يستحقّه، والاحترام والصداقة اللتين تحقّان له، فنحن مقصّرون.

وإذا اكتفينا، يومًا في السنة، بنزهةٍ إلى محجر بُرْصٍ، وحضرنا مهرجانًا مقامًا لصالحهم، ومع ذلك بقينا محجمين عن مدّ يدنا لهم وعن مساعدتهم ومحبّتهم، فلنسائل ضمائرنا: أيٌّ منّا هو الأبرص حقًّا، هم أم نحن؟ ».

وبمناسبة اليوم العالميّ الرابع عشر ١٩٦٧، صرّح فولّيرو:

« ليس المطلوب هو الذهاب إلى البُرْص، بدافع رومنسيّةٍ باليةٍ وسخيفةٍ، من أجل ترديد أنغام الشفقة، بل التزامًا بخدمتهم، ومزوّدين بعدّة الكفاءة المكتسبة، من خلال دراساتٍ ضروريّةٍ، مدعّمةٍ بمحبّةٍ متينةٍ، وبسيطةٍ، وأخويّةٍ.

"يا أطبّاء المستقبل، وأيّها الممرّضون الشباب، الساعون، في المقام الأوّل، إلى أن يكون لحياتكم معنًى، ها إنّ ملايين من المرضى، الذين كانوا يُعَدّون ملعونين ينتظرونكم، ويأملون فيكم.

لم تنتصر معركتنا في كلّ مكانٍ. غير أنّنا سنكسب المعركة. وقد بتنا واثقين من نصرنا فيها. فها قد نال خمسة ملايين أبرص شفاءً تامًّا وهم شهادةٌ تؤكّد قدرتنا على النصر.

سندمّر حصون الجذام الأخيرة، بعد أن أمطنا اللثام عن أسراره، وقوّضنا الأوهام والأساطير اللاصقة به.

بمناسبة اليوم العالميّ السابع عشر (١٩٧٠)، قال فولّيرو:

« سيصف التاريخ عام ١٩٦٩ بأنّه عام القمر. وفي سبيل هذا الإنجاز المذهل أُنفِقت ملياراتٌ، يُمسك جميع المسؤولين عن جرأة الإفصاح عن مقدارها الصحيح.

"مؤسفٌ، أنّه لم يجُلْ بخاطر أحدٍ أن يضيف إلى هذه المليارات، مليارًا واحدًا من ميزانيّات القمر، تحت بند "مساهمة في علم بقاء البشريّة"! ولكان هذا المليار قد ساعد على معالجة، وإراحة جميع بُرْص العالم، فضلاً عن معالجة أعدادٍ غفيرةٍ من المصابين بأسقامٍ أُخرى، وعن غوث جموعٍ من المحرومين

والبائسين الذين لفّهم النسيان والإغفال، في غمرة الاستعدادات للرحلة إلى القمر، وفي خضمّ حُمّاها والاحتفالات بها.

"سيقول التاريخ إنّ عام ١٩٦٩ كان عام القمر، وهل سيقول، أيضًا، إنّ السرَطان قد قضى على حياة مليونَيْ إنسانٍ مصابين به، مع أنّه كان يمكن إنقاذهم، بفضل دُرَيهماتٍ؟ وهل سيقول التاريخ، أيضًا، إنّ اثنين من أصل ثلاثة أشخاصٍ احتضروا جوعًا، في ذلك العام؟

كان عام ١٩٦٩ عام القمر، فليكن عام ١٩٧٠ عام الأرض، مكرّسًا لملايين البُرْص الذين ما زالوا يتألّمون، ويعانون جريرة ذنبٍ لم يرتكبوه...

"فليكن هذا اليوم منطلقًا، ومقفزًا، نحو سنةٍ مكرّسةٍ لجميع إخوتنا الفقراء، والمرضى، والبائسين!

ولتضع التقنية ذاتها، بتواضعٍ، في خدمة الإخاء! وضدّ البرص وجميع أصناف البَرَص!

وأهلاً بالعلم الذي يخدم الناس أجمعين! ».

نداء اليوم العالميّ الثامن عشر (١٩٧١)

في البلدان المحميّة، ولدى القوم السعداء، الذين يتناولون ثلاث وجبات طعامٍ، كلّ يومٍ، سنواصل، كلّ سنةٍ، وبأعدادٍ متناميةٍ، وبعزيمةٍ أشدّ إصرارًا على تعبئة الرأي العامّ، وإيقاظ الضمائر، وتحريك القلوب، والتماس العون، وتقبّل المؤونات اللازمة من أجل خوض هذه المعركة الأخويّة، وإنجاحها.

وسيكون هذا أُسلوبنا في الاعتذار عن سعادتنا!...

شاركوا في هذه المعركة النبيلة، التي تشرّف نهاية هذا القرن الحافل بالمخازي، وأجزلوا العطاء.

أعطوا بكلّ قلبكم، بلا حسابٍ، ولا تحفّظٍ.

أعطوا كلّ ما تستطيعون عطاءه، بل أكثر قليلاً.

لا تعطوا تخلّصًا من سائلٍ مزعجٍ، لأنّ آخرين يراقبونكم، طمعًا في أن تُعَدّوا من المحسنين. فهذه محبّةٌ سلبيّةٌ، تهين الفقير.

وليكن كلّ إنسانٍ في خدمة الإنسان، وفي غوثه.

هذا هو مغزى هذا اليوم، الذي ينبغي أن يكون، قبل كلّ شيءٍ، شهادة رجاءٍ، والتزامًا،

ولا تكن محبّتكم ليومٍ واحدٍ!

اليوم العالميّ التاسع عشر (١٩٧٢)

ذكرى للمستقبل!

حدث ذلك في مستهلّ حملتنا. في مخيّمٍ قائظٍ، قذرٍ، خانقٍ، حيث وجدنا مرضى محاطين بأسلاك حديديّةٍ شائكةٍ، تحت حراسة جنودٍ. وجدناهم كئيبين، منهارين، يائسين.

كنّا، أنا وزوجتي، قد انتهينا إلى ختام مرحلةٍ منهكةٍ، وأُشبِعنا تعبًا وحزنًا، وقد فرغت، باكرًا، جيوبنا وحقائبنا. وقد اعترانا، في هذا الجحيم الذي اكتشفناه، شعورٌ مضنٍ بالافتقار، والعجز، واللاجدوى، والوحدة السحيقة، وأخذت بخناقنا رغبةٌ طاغيةٌ بالفرار.

وكان البُرص "الملعونون" أمامنا، صامتين، غير دهشين من وجودنا بين ظهرانيهم، وكأنّهم كانوا يتوقّعون دائمًا، حضورنا. واعتراني انطباعٌ بأنّ الأقوال التي أوجّهها إليهم، لا معنى لها، ولا تنفذ إلى أذهانهم، وتقع في الفراغ، فهم لا يفهمون سوى لهجتهم الخاصّة.

ولمّا فرغت من خطابي، هزّ برأسه الرجل الوحيد الذي كان يصغي إليّ ويفهم أقوالي، فاستدار نحو رفاقه وحادثهم بصوتٍ خافتٍ، ثمّ التفت إليّ وقال: "حسنٌ، ليس لديكم شيءٌ، لا أنت ولا زوجتك، إذن، إلمسا أيدينا فحسب".

هذه العبارة الزاخرة بالتواضع والنور اخترقت قلوبنا اختراق جذوةٍ ملتهبةٍ.

انتهت ملحمة البطولة، أمّا معركتنا فمتواصلةٌ، بأساليب تتناغم وحجمها العالميّ. ولكنّها مهما بلغت من عقلانيّةٍ وتنظيمٍ، ودقّة تخطيطٍ، فستبقى عقيمةً وباطلةً، إن لم تتبوّأ فيها المقامَ الأوّل، محبّةٌ ملحّةٌ، شديدة الاقتضاء.

اليوم العالميّ العشرون

سنواصل جميعنا معًا معركتنا المباركة، ثمّ ستواصلونها أنتم، بغيابي، وسيواصلها أبناؤكم، في إثركم.

ولن نكفّ، أبدًا، عن محبّة الفقراء، والمرضى، والمتوجّعين البائسين والمُحتَقَرين، والمعانين شتّى أصناف البَرَص، لأنّهم بشرٌ، ونحن مثلهم بشرٌ.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

من ذكريات معركة البرص

« المحبّة هي انعكاس وجه يسوع على كلّ فقيرٍ، ومتألّمٍ، ومضطهَد »

« لنرَ في كلّ حيٍّ إنسانًا، وفي كلّ إنسانٍ أخًا، ولنخلق حضارة الإخاء »

« لا شيء يتحقّق بمعزلٍ عن المحبّة، ومع المحبّة لا شيء مستحيلٌ »

"فولّيرو"

من ذكريات المعركة

معركةٌ متماديةٌ، لم تعهد هوادةً، وما انفكّت تتنقّل من موقع بؤسٍ إلى موقع بؤسٍ أدهى. وفي كلّ موقعٍ كان فولّيرو يخزّن ذكرياتٍ معظمها يدمي القلوب، وبعضها يفيض عزاءً، ويبلسم الجراح، ولا سيّما ما كان منها يعبّر عن المحبّة الصافية، السمحاء، المجّانيّة، التي علّمها يسوع. وقد انتقينا، في هذا الفصل باقةً منها، تفوح بمختلف العطور وتزدهي بشتّى الألوان.

١- ماذا ينتظرون؟

في مدينة كُبرى يُشاهَد قرب الكاتدرائيّة، وقرب بناء البريد، بُرصٌ وُضِعوا في هذه الأماكن المطروقة، مادّين للمارّة جدعاتهم، والمارّة يلقون لهم قطع نقدٍ زهيدةً، وقلّةٌ منهم يلقون لهم أوراقًا نقديّةً قذرةً، ويمضون بخطًى حثيثةٍ متمتمين: "ماذا ينتظرون كي يلمّوا هؤلاء؟ يا للعار!".

أنا قد أبدّل لفظةً واحدةً، فأقول: "ماذا ينتظرون كي "يحموا" هؤلاء؟". صحيحٌ أنّ أولئك البرص يتسوّلون (وما عساهم يفعلون، بما أنّ العمل محظورٌ عليهم)، وهم لا يتسوّلون من أجل أنفسهم، وهم معزولون، وحيدون، مُهمَلون، وهم، غالبًا، "مجنّدون"، عنوةً، من قبل زعماء دينيّين وقحين، أو من مدّعي سحرٍ، ومكرَهون على إعطائهم كامل غلّة تسوّلهم، لقاء ما يسمّونه "طعامًا"، يبقيهم أحياءً.

وإن لم تكن الغلّة كافيةً، فالضربات تنهال عليهم!

أيهربون؟ لمن؟

فهم بُرْصٌ.

٢- دفنٌ

فيما كنتُ أزور محجر بُرصٍ، قُرع الجرس، ببطءٍ، وحزنٍ، وألمٍ... ففي هذا الصباح انتهت محنة أحدهم، وينبغي دفنه، في غضون لحظاتٍ، فالسرعة هنا مفروضةٌ.

إنّه يرتاح، في تابوته المفتوح. وربّما يرتاح للمرّة الأولى... عيناه مطبقتان، ووجهه ساكنٌ. طوقُ زهورٍ يلفّ عنقه، وعلى صدره صليبٌ، وبقربه شمعتان مشتعلتان، ورفاقه المرضى متحلّقون من حوله، صامتين، وكلٌّ منهم يمدّ لي يده، معزّيًا، فهم، جميعهم أفراد أسرته. إنّهم أُسرته، حقًّا، لأنّ ذويه غائبون.

في نظر ذويه، هو أبرص، حتّى في موته... وربّما ارتاحت قلوبهم القذرة من وجوده، لدى سماعهم نبأ وفاته. وخيرٌ له ولهم أن يثوي في قبره، ويلفّه النسيان!...

انسوه، يا ذويه، فأنتم غير جديرين بألمه ولا بموته. وهو ليس بحاجةٍ إليكم، في رقاده الأخير. فأصدقاؤه هنا، وقد جاؤوه بزهورٍ.

وقد أحبّه المرسَلون، والأُمّهات البيضاوات، واعتنوا به وهم يصلّون له، الآن بحنانٍ وحرارةٍ، راكعين على الأرض العارية.

لم يعد بحاجةٍ إلى أحدٍ منكم. فقد شُفي!

أتسمعون؟ لقد شُفي، فيما أنتم مستمرّون في تعفّنكم.

٣- جزيرة الصداقة

أقلعت الطائرة التكسي الصغيرة صوب المحيط الهادئ، وتعالت، رشيقةً، في سماءٍ صافيةٍ. الصبيحة رائعةٌ، والأمواج التي تتبدّل ألوانها بين الأخضر والبنفسجيّ، وتطّرح على شواطئ هونولولو، ناشرةً أهدابها الفضّيّة. ولكنّ أبصارنا لم تكن تتوقّف عندها، بل كانت تستشرف، في الأُفق، أرضًا أُخرى، تكتنفها الأسرار والمآسي.

السكّان الأصليّون يسمّونها "جزيرة الصداقة"، مع أنّها طالما كانت مكمن الرعب: إنّها "مولوكاي" (Molokaï)، موطنُ البُرص.

عندما حطّ فيها الأب "داميان"، كان البُرْص مجموعةً لُمّوا من هنا وهناك، ورموا في تلك الجزيرة، التي دوّت بصيحات الحقد والقنوط، إلى أن جاءهم المحبّة، بهيئة إنسانٍ مسكينٍ، وحيدٍ، أزرت طيبته البطوليّة، التي ألهبت القلوب، بالأنانيّات، وبكلّ أصناف الجبن.

واليوم، بعد أن عاش الأب داميان مع المنبوذين، وتلقّى منهم البرص، ولقي حتفه بين أيديهم، أمست "جزيرة الصداقة" "جزيرة الرجاء". والآن يعيش في الجزيرة بين مئةٍ ومئتيْ مصابٍ بالبرَص، يفصلهم عن الآخرين حاجزٌ صخريٌّ يتعذّر اجتيازه.

حطّت طائرتنا الصغيرة على مطارٍ مرتجَلٍ، حيث كان ينتظرنا شخصان أحدهما مديد القامة، متين البنية، مسمرّ الوجه، هو حاكم تلك المستعمرة المريعة. أمّا الرجل الآخر، المرتدي ثوبًا أسود، فكان قصير القامة، راسخ الوقفة، وقد قدّم لنا أكوامًا من عقود الزهور، وهو الأب "پـــاتريك"، مرشد البُرص.

ولاحظتُ وجود سيّارةٍ كبيرةٍ، في المكان، فسألت الأب: "أسيّارةٌ هنا؟"،

فأجاب: "طبعًا لدينا سيّاراتٌ، مثل الآخرين، بل أكثر من الآخرين، فتقريبًا كلّ أبرص يستطيع قيادة سيّارةٍ، له سيّارته الخاصة".

"ثمّ عبرنا نهرًا يتهادى متكاسلاً، بين الزهور. وفي أطراف الحدائق رأينا بيوتًا أنيقةً، غير مصطفّةٍ على نسقٍ واحدٍ، بل مبثوثةً، وفق رغبة كلّ ساكنٍ. وشاهدنا رجالاً يحرثون الأرض، والتقينا نساءً، منهنّ قاصداتٌ مساكنهنّ، وأُخرياتٌ يثرثرن معًا، على أطراف الطريق. وسمعنا قهقهاتٍ، فقال دليلنا، الأب پـــاتريك: "هذه ضحكات المرضى".

كان يسود المكانَ السكونُ، والهدوءُ، والنظافةُ، وضربٌ من السعادة البريئة، البسيطة.

ولّما لاحظ الكاهن الذي رافقنا، في رحلتنا كلّها، باهتمامٍ ودّيٍّ، في جزر هواي، دهشتَنا الفرِحة، قال لنا: "اصبرا، فستريان أكثر". ورأينا هذا الأكثر في المستشفى حيث المرضى الأبلغ إصابةً، والذين أمسوا عاجزين عن مغادرة أسرّهم، أو قاعاهم، لأنّهم فقدوا أيديهم، وأرجلهم، وحتّى وجوههم. ومع ذلك، ما زال يطوف فوق كلّ هذه القباحات سلامٌ غريبٌ.

وقال لي الأب: "تعالَ ورَ هذه المرأة التي وصلت إلى مولوكاي في سنّ السابعة عشرة، وأودعت في هذا القبر الذي لم يُغلَق، بعدُ". كانت ممدّدةً على سريرها، وقد فقدت يديها ورجليها، والتهم البرص وجنتيها، وعينيها.

وسمعتْ بما ينبئ بقدومنا، وأطلعها الأب المرشد على زيارتنا، فأدارت صوبنا وجهًا مريعًا، لا نورَ فيه، ويطوف فوقه ضربٌ من الرعب الهادئ. وبغتةً سألتني: "أيّة أغنيّةٍ تحبّ أن أنشدها لك؟"

٤- حسبُك أن تمسّ أيدينا

محجرٌ، بل مُعتَقلٌ، بأشدّ ما في لفظَة المعتقَل من وحشيّةٍ وكآبةٍ! لا ينقصه من صفات المعتَقَل شيءٌ: لا الأسلاك الحديديّة الشائكة، ولا الجنود المدجّجون برشّاشاتٍ للوقاية، وفي الغالب، من أجل قمع محاولات الفرار.

محجرٌ حُشِد فيه ثلاث مئة أبرص، بسببٍ لم يدركه المعتَقَلون. ففي بلدهم نحو ستّين ألف أبرص. فلمَ جيءَ إلى هنا بهؤلاء الثلاث مئةٍ فقط؟ السبب هو صدفةُ وجودِهم في مكانٍ تعرّض لمداهمةٍ بوليسيّةٍ مفاجئةٍ، ولم ينجحوا، هم، في الفرار مثل سواهم.

ما الذي يفعلونه هنا؟ لا شيء! وما يُفعَل لهم؟ لا شيء!

ليس ما يشغلهم، ولا رجاء يراودهم.

ولكي يُسَرّوا عن نفوسهم، يثورون، ويتعاركون، ويُضربون عن الطعام.

ليس المدير هنا سوى موظّفٍ مثبط العزيمة. والطبيبُ، لا لزومَ له، لأنّ لا علاج لديه، ويتمنّى أن يكون بعيدًا، في آخر الدنيا.

وتكرّ الأيّام، بلا رحمةٍ، مضاعفةً قنوط هؤلاء المنبوذين وحقدهم.

مددتُ يدي لأوّل مريضٍ دنا منّي، فاعترض الطبيب بلهجةٍ حاسمةٍ: "هذا ممنوعٌ!".

فأغرقت في الضحك. هل مصافحة أبرص ممنوعةٌ؟ ماذا، إذن، عن مئاتٍ ومئاتٍ من المرسلين والأطبّاء، الذين يلامسون البرص طول النهار؟ تظاهرت، إذن، بعدم فهم قول الطبيب، وأخذت وجه الأبرص بكفّيّ كلتيهما. وإثر لحظة ذهولٍ، أطلق الأبرص ضحكةً مدوّيةً... فيما لاذ الطبيب بالفرار.

ودوّت ضحكة الأبرص في أكواخ رفاقه، وأدهشتهم، فقد كانت الضحكة الأولى التي يسمعونها في محجرهم.

وما هي إلاّ لحظاتٌ حتّى أحاق بي جميع المرضى، وقد تألّقت عيونهم فرحًا ساذجًا، عميق التأثير، ومدّوا نحوي أيديهم، وهي غالبًا تقطر دمًا لأنّها لم تعالج قطّ.

ما كان عساي أن أعطيهم؟ فالمحجرُ حكوميٌّ، وأنا غريبٌ لا أملك شيئًا هنا، وليس لي سلطةٌ. فحاولت إفهامهم أنّني مُعدَم عاجزٌ... وكم كنتُ أودّ أن...

حينئذٍ قال أحدهم، وربّما كان الوحيد الذي يفهم قليلاً من الفرنسيّة: "لا بأس. ولكن بما أنّك جئت إلى هنا، فاكتفِ بلمس أيدينا...

وشددتُ على تلك الأيدي المسكينة الممدودة، التي لم يكن أصحابها يرغبون إلاّ في العيش، والشعور بعلاقةٍ إنسانيّةٍ تؤكّد لهم أنّهم ما زالوا أحياءً.

وغادرتُ مرهقًا، حزينًا إلى مخرج المحجر حيث كان قد سبقني مديره وطبيبه.

ولّما مررت بمركز المراقبة العسكريّة، أدّى لي جنديٌّ تحيّةً خجلى. وتبديدًا لدهشة زميله قال له: "هذا الذي جعل البرص يضحكون".

٥- داڤيد

عام ١٩٤٩ رويت في إحدى نشراتي:

"اسمه داڤــيد، وهو مصابٌ بالبرَص، ووحيدٌ.

كان في مدينته وجيهًا، ومعلّم مدرسةٍ، يحبّه طلاّبه، ويقدّره ذووهم. وكانت زوجته، له، النور والربيع. وكان هو الذي يتطوّع للعزف على أُرغن الكنيسة، أيّام الآحاد.

كان هادئًا، مسالمًا، يسوق حياةً بسيطةً، بلا مشاكل، وسعيدةً في بساطتها.

وذات يومٍ ظهرت عليه أمارات البرَص، ولم يسعَ إلى إخفائها ولا إلى الكذب. بل أقرّ: "لقد أُصبتُ بالبرص". وفي الحال أُغلق كلّ شيءٍ في وجهه، وأصبح كلّ شيءٍ ارتيابًا، وليلاً. واضطرّ إلى هجر كلّ شيءٍ: هجر المدرسة وطلاّبه، وبادرت زوجته إلى هجره، وبلّغه كاهن الرعيّة، بعباراتٍ معسولةٍ، أنّ الأُرغن سيحتاج إلى إصلاحاتٍ تقتضي وقتًا طويلاً.

وبالإجمال، أمسى وحيدًا، وسكن قلبَه رعبٌ قاتلٌ.

ولّما التقيتُه، لاحقًا، لم يشكُ، ولم ينتحبْ. كان قد سُلِب كلّ شيءٍ ما عدا عزّة نفسه، الكنــز الوحيد الذي لم يفرّط به، وظلّ به ضنينًا. وظلّت الموســيقى هــي عشق حياته وعزاءها. وما انفك "باخ" و"بيتوڤــن" ينشدان في داخله، ألمًا ورجاءً. وباح لي، ذات يومٍ: "آه! ليت لديّ أُرغنًا!".

ورويتُ في نشرتي هذا الحدث المفجع، والرائع. وبعد مضيّ بضعة أسابيع، كنت قد تلقّيت ما يكفي لشراء ثلاثة أراغن.

كرّت خمس عشرة سنةً، وعدت إلى موطن داڤيد، والتقيتُه مجدّدًا. كان قد شُفي، ولم يعد مدرّسًا، بل مدير مدرسةٍ مرموقةٍ، تضمّ ثماني مئة طالبٍ، وتُعَدّ أكثر مدارس مدينته ازدهارًا، وأرفعها تقديرًا. وعرف الجميع أنّه أُصيب بالبرَص، وشُفي منه شفاءً ناجزًا.

وكان داڤيد قد اقترن بامرأةٍ أُخرى، وأصبح لديه طفلان رائعان، مكتملا الصحّة، وغير مُكرهَيْن على التماس حقّهما في حياةٍ طبيعيّةٍ من أحدٍ.

واستضافني داڤيد في منزله، وهو ڤيلاّ أنيقةٌ، كان قد ابتناها حديثًا وقد احتلّ مكان الصدارة، في صالونها، الأُرغن الذي تعرّفتُه منذ الوهلة الأولى، وتذكّرتُ كم كلّفني عناءً تأهيلُه للمناخ المحلّيّ، ومن أجل توضيبه، وشحنه. وقد بدا لي مغرقًا في الصغَر، وعتيقًا، ومضحكًا. غير أنّ عينَيْ داڤيد كانتا تزدحمان بالدموع، وهو يرمقه، وتابعت إشارات داڤيد التي كانت تدلّني إلى تفصيلٍ ما، وإذا به، كان قد حفر بسكّينٍ، وبيده التي كانت وجيعةً حينذاك، إلى جانب كلّ لوحةٍ نحاسيّةٍ أثبتها صانعو الأورغن، تاريخًا بسيطًا: ١٩٤٩.

٦- النمر والولد

في زامبيا، كان ولدٌ يلهو أمام كوخ ذويه، وبغتةً انقضّ نمرٌ من غابةٍ مجاورةٍ، وأمسكه بثوبه، ومضى به، فيما كان الصبيّ يطلق صرخاتٍ تمزّق القلوب، وفيما كانت أُمّه تجري وراءه عاجزةً يائسةً.

وحينئذٍ، حدث ما يصعب تخيّله: فقد وضع النمر الولدَ أرضًا، وكأنّه يُعمل الفكر في الخطوات التالية، متأمّلاً عينَيْ الولد المزدحمتَيْن بالدموع، ويديه الممدودتين التماسًا لعونٍ مستحيلٍ.

ما الذي جال في بال الحيوان المفترس، وأيّة رأفةٍ اجتاحته، بغتةً، فجعلته يمسك الولد برقّة أمٍّ، ويعود به إلى كوخ ذويه، ثمّ يتوارى متوثّبًا؟

٧- سجنٌ

زُوِّد محجرٌ بسجنٍ، فقد يكون بين البُرص مجرمون. وبما أنّ لا شيء يمنع زيارة سجناء، طلبتُ زيارة ذلك السجن. وبعد نقاشاتٍ متماديةٍ، ووشوَشاتٍ، وحركاتٍ تنمّ عن الضيق والحيرة، جاءني كبير مسؤولي المحجر، وأنبأني أنّ لا أحد من الموجودين لديه مفاتيح السجن. فهل من يصدّق ذلك؟

مع ذلك توجّهتُ إلى السجن، والموظّفون يتعقّبونني، بحذرٍ، وعن شيءٍ من البُعد.

كان السجن أدنى من إصطبلٍ، لا يرضى أقذر حيوانٍ الإقامة فيه. وتبريرًا لهذه القباحة، قالوا لي إنّ السجناء قتَلةٌ. ولكن حتّى لو كانت التهمة صحيحةً، فهي لا تبرّر حطّ كرامة بشرٍ إلى هذا الدرك.

سألت: "من يعطيهم الأدوية؟ لا جواب.

أدركت، حينئذٍ، أنّ قضيّة علاج البرص السجناء، لا وجود لها، وأنّ أولئك المساكين لم ينالوا، قطّ، علاجًا.

إذا كانوا قتَلةً فليُعَاقَبوا. ولكنّهم أيضًا بُرْصٌ، ويحقّ لهم نيل العلاج، ولا يجوز لأحدٍ أن يضيف إلى عقاب جريمتهم، إدانتهم بالبرَص المؤبّد.

ملاحظة: نوّه فولّيرو في مكانٍ آخر أنّ إدارة السجون كانت تخصّص، يوميًا، ثلاثين فرنكًا من أجل إطعام كلّ مجرمٍ عاديٍّ سجينٍ، وتخصّص ثمانية فرنكاتٍ من أجل إطعام أبرص سجينٍ في محجرٍ.

٨- قيامةٌ سهلةٌ

طفلا تلك البرصاء، كانا قد لقيا حتفهما، جوعًا. وكان ثالثهما موشكًا أن يلحق بهما، حتمًا، ضحيّة الجوع، أيضًا. الأُمّ كانت تحتضر جوعًا، ولكنّها كانت أقدر على الصمود من أطفالها. كانت جائعةً، وقد جفّ حليبها، وكان طفلاها قد انهارا فوق ثديين جافّين، وهما يطلقان صيحات شكوى خافتةً، تكاد لا تبلغ آذان أحدٍ، إلى أن لم يبقَ لهما لا صوتٌ، ولا نفَسٌ، وإلى أن هدأت شفاههما الصغيرة عن الحركة. وها إنّ أخاهما الثالث على شفا نهايته.

واكتشف طبيبٌ تلك المسكينة المنبوذة، أثناء جولته في الأدغال، فاستصحبها بلا تفسيرٍ، وانصاعت طوعًا، فسواءٌ إن ماتت هنا أو في أيّ مكانٍ آخر.

أُدخلت المرأة إلى مستشفًى، وعولجت، ونجا ابنها بطريقةٍ بسيطةٍ وطبيعيّةٍ. فقد كان للطبيب طفلٌ في مثل عمره، متدفّقٌ صحّةً، مترعٌ بحليب أُمّه، ولكنّه غير قادرٍ على استنفاد كلّ مخزونه منه، فتقاسمه الطفلان معًا.

في البدء، أقبل الطفل الضعيف على نبع الحياة، خجولاً، متردّدًا، ولكن سرعان ما غدا نهِمًا ونجا.

وعادت البرصاء التي شُفيت مع طفلها إلى قريتهما، وإلى حياةٍ جديدةٍ. أمّا الطبيب فكان ما حدث له مجرّد صدفةٍ. وكانت مبادرة زوجته تلقائيّةً، نابعةً من عطفها الأُمومي الفطريّ. وإذا قيل ليها اليوم: "كنتِ رائعةً"، لنظرت إليك بدهشةٍ، متسائلةً عمّا تقرّظها!

أمثال هؤلاء هم شركاء في كسب المعركة.

٩- أجمل ملفوفة في العالم

هناك نبعٌ يتفجّر ماءً يجعل من ذلك المكان واحةً، وفردوسًا وسط جحيم صخورٍ يشويها القيظ.

ومخر رجلٌ الحشد الفضوليّ المتراصّ من حولي، وحلقةَ الرسميّين والأصدقاء المحيقين بي، وانتصب أمامي، شامخًا، مديد القامة، حاملاً على ذراعيه سلّةً ملأى بالملفوف. أقول على ذراعيه لأنّه لم يبقَ من يديه سوى ذكرى كفٍّ. وحدّق إليّ وقال لي: "يا أبا البُرْص، إسمع قصّتي: "أجل أُصبتُ بالمرض، وأجل، كنت أحمق، وكنت ألوذ بالفرار كلّما قدم ممرّضٌ كي يعالجني. وهكذا فقدتُ أصابعي وكفّيَّ. ولما اقترب البرص من رجليّ، أدركت حماقتي. ووصف لي الطبيب العلاج الملائم، وغدا الممرّض يأتيني به، كلّما زارني، ونجت رجلاي.

ومع ذلك، احتفظتُ بجرأتي، وأبيتُ أن أعيش طفيليًّا، وعالةً، ونفايةً بشـريّةً. ووطّنتُ العزم على أن أحيا إنسانًا يعمل وينشد، مثلما علّمتَنا، أنـتَ، وتعلّمـتُ استخدام يديّ اللتين فقدهما. كان الأمر شاقًّا، ووقعت آلة العمل منّي مئة مـرّةٍ، ومئة مرّةٍ ركعتُ كي ألمّها. واستأنفت العمل، وأفلحتُ في حفر التربة بـلا أيـدٍ، والزراعة بلا أيدٍ. وها قد اقتطفتُ بواكير ثماري. وكما ترى، إنّها ملفوفـةٌ مـن حديقتي، أُهديها لك، لأنّك، أنت علّمتني أنّي إنسانٌ. وأنا الآن واثقٌ من ذلك لأنّي أكسب عيشي بعملي...

كان الصمتُ مخيّمًا على الحضور.

ولم أستطع أن أقول شيئًا، ولا أن أفعل شيئًا، سوى تقبيله.

١٠- إنّي أرى

منذ سنواتٍ يعيش في زاوية كوخه، وقد أفقده البرَص البصر، ولم يبقَ له إلاّ أن يتعفّن في قبر عماه.

كان يتلقّى عقار السلفون الذي كان المرسل يزوّده به كلّ يومٍ إرضاءً له، لأنّه كان يتخيّل بسمة الكاهن، وهو سجين عماه. وقالت لي الراهبة، ذات يومٍ، إذ كنتُ أزوره: "إنّه يأبى الخروج فقل له إنّ ذلك غير مقبولٍ". وقلتُ له ذلك، داعمًا قولي بالفعل، مؤكّدًا له: "ستأتي معي، في الحال، وأنا سأقودك". وأنهضته، وأخذت بساعده، واجتزنا بضع خطواتٍ، وهو يتعثّر، حتّى وصلنا إلى الباب حيث يغمر النور الأجواء. وحينئذٍ، حدث أمرٌ غريبٌ، لن أنساه، ما دمتُ حيًّا. فلمّا أحاطنا النور، أطلق الرجل صرخةً هائلةً، أعلن فيها:

"إنّي أرى!"

كانت تلك هي المرّة الأولى، مذ لفّه البرَص بالعتمة والليل، يبدّد فيها النور عتمة نفسه، فهتف كي يسمع الجميع، وكلّ شيءٍ، وتسمع الأشجار والحجارة والسماء: "إنّي أرى، إنّي أرى!"

ولكنّه لم يكن يرى بالقدر الكافي، كي يشهد ازدحام الدموع في مآقينا!

١١- أقوى من الموت

محجرٌ يوجز أكثر ما يعنيه المحجر من كآبةٍ وبشاعةٍ، حيث يطوف رجالٌ بحَيرتهم وسأمهم، في داخله، أو في الفناء الصغير المنبسط أمامه.

رجالٌ معزولون، وحيدون، مهمَلون، لم يعُد لهم الكون سوى صمتٍ وليلٍ. ولا يفعلون شيئًا، ولا يُفعَل لهم شيءٌ.

أحدهم – وحده – احتفظ بعينيه، وما زال يبتسم عندما يُقدَّم له شيءٌ، ويقول شكرًا. وحدَه بقي إنسانًا. ورغبت الراهبة في معرفة سرّ هذه المعجزة التي تبقيه حيًّا، متفائلاً.

ولحظتْ أنّ وجهًا يتراءى، كلّ يومٍ، فوق الجدار الشاهق والصفيق، إنّه وجهٌ بحجم الكفّ، يبتسم له، وهو ينتظر ظهوره وابتسامته بانتظامٍ، وكأنّه ينتظر خبز حياةٍ، وقوّةٍ ورجاءٍ، فيحيّيه ببسمةٍ مشرقةٍ، وحينئذٍ، يتوارى الوجه الحبيب. ويستأنف الرجل انتظار ظهوره من جديدٍ.

لّما اكتشفت الراهبة ذلك، باح لها الرجل ببساطةٍ، قائلاً: "إنّها زوجتي!". وإثر لحظات صمتٍ، استأنف البوح، موضّحًا: "قبل مجيئي إلى هنا، كانت تعالجني، خلسةً، بما كان يتيسّر لها من أدويةٍ. وكان ساحرٌ محتالٌ قد زوّدها بمرهمٍ، كانت تدهن به، كلّ يومٍ، وجهي، ما عدا رقعةً صغيرةً منه تكفي لوضع شفتيها عليها. ولكنّ ذلك المرهم أثبت عقمه وضرره، فأُلقي القبض عليّ، ولحقت هي بي، وأقامت في الجوار. وأنا كلّما شهدتها، أتيقّن أنّي ما زلتُ حيًّا.

١٢- سائقٌ بأجرٍ مخفّضٍ

ثمّة ما هو أبشع من خشية البرص، واتّقائه، هو ابتزاز ضحايا المصابين بالبرَص، من خلال التلويح بالتخويف، وبالعار.

إليكم قصّةً دنيئةً، ولكنّها، للأسف، واقعيّةٌ.

رجلٌ ليس من العامّة، بل هو رجل قانونٍ. استأجر سائقًا بأجرٍ قدره ٤٥٠٠٠ فرنك، شهريًّا. وشكره السائق المسكين. فهو قد اعتاد طأطأة الرأس، وقول شكرًا، لأنّه أُصيب، منذ زمنٍ بعيدٍ بالبرص، وشُفي منه. ومع ذلك ما برح، في نظر بعض الأصحّاء، مدّعي الاستقامة، "أبرص" ينبغي اتّقاؤه...

وتنامى الخبر إلى مستخدمه، فاستدعاه، واستجوبه، وهدّده، فاعترف الرجل بماضيه، الذي كان يظنّه منسيًّا. وتظاهر "الأبرص الحقيقيّ" بالاستنكار، والتعرّض للخداع، وطرده.

وفيما كان المسكين، مطأطئ الرأس، منهارًا، مكفكفًا دموعه، يهمّ باجتياز عتبة المكتب، استوقفه "الأُستاذ"، متظاهرًا بالشهامة ونبل النفس، قائلاً: "علينا، نحن، أن نكون القدوة. فسأستبقيك. ولكن، نظرًا لظروفك، لن تنال، بعد الآن، سوى عشرين ألف فرنك، أجرًا!"

لو التقيتُ "أبرص النفس" هذا لبصقتُ في وجهه.

١٣- انتصرت المحبّة، وانهارت الجدران

أنبأني بوّاب الفندق، بالهاتف: "هنا من يطلب رؤيتك". فنـــزلتُ، وفي الصالون كانت تنتظرني فتاةٌ وديعة العينين، جادّهما، جالسةً، مستقيمةً، ويداها على ركبتَيها. وبعد لحظات صمتٍ، بادرتني بقولها: "اعذرني، فقد يبدو لك طلبي مستهجَنًا". إنّي راغبةٌ في رؤية يديك...". حِرتُ، لحظةً، ثمّ مددتُ لها يديّ، فتأمّلتهما، وكأنّها تخشى لمسهما. ثمّ تجرّأت وأقرّت: "إنّي أحبّ البُرْص. وبكلّ قلبي أودّ أن أساعدهم. ولكنّي لا أجرؤ على لمسهم". ثمّ تابعتْ، بصوتٍ خافتٍ: "يساورني شيءٌ من الخوف، ولذلك رغبتُ في رؤية يديك اللتين صافحتا أيديهم، وداعبتا وجوههم".

فقاطعتُها قائلاً: "ما نفع حبِّك للبُرْص، إن لم تقولي لهم ذلك، وما نفع قولك، إن لم تثبتي لهم حبَّك. يجب أن تأتي وتريهم، في الحال، وأن تمسكي أيديهم، كما أنّك تمسكين الآن يديّ.

حدث ذلك، عام ١٩٥٢، في أثينا.

وبعد مضيّ بضعة أسابيع، كتبت الفتاة لي: "إنّهم يسمّونني "ابنة أخيك"، بل يدعونني ، أحيانًا، "الآنسة فولّيرو". وأنا سعيدةٌ جدًّا معهم، ووسطهم، نغنّي معًا، ونصلّي معًا، ونتحدّث عنك، بصفتك أباهم.

وبمناسبة اليوم العالميّ الثالث للبرص، أي يوم ١٩٥٦/١/٢٩، احتفلنا معهم، أنا وزوجتي ، و"ابنة أخي".

لستُ أعرف ما حدث، بعد ذلك، لتلك الفتاة، ولكنّي لن أنساها أبدًا.

وأذكر أنّ على واجهة المسرح المرتَجَل لتلك المناسبة، كانت قد عُلّقت رايةٌ صغيرةٌ، دُوِّن عليها بيتان مقتبسان من قصيدةٍ يونانيّةٍ، وأنّ مريضًا جاء، وتلاهما لي، وهما يقولان:

"يا راوول، أخانا الحبيب، قلوبنا تقول لك شكرًا."

وأذكر، أيضًا، أنّ في ذلك اليوم رفعني أبرصان على كتفيْهما، فيما كان الجميع ينشدون.

كان الأمر رائعًا، يكاد لا يُصدَّق، وتمادى ثلاث ساعاتٍ، وأُعيدت الكرّة في اليومين التاليين، حتّى مغادرتي، إذ لم يكن بدٌّ من المغادرة إلى معارك أُخرى، وإلى ويلاتٍ أُخرى تستدعي حضوري.

ومرّةً أخرى، تحلّقوا حولي من أجل تبادل التمنّيات والهدايا. فقدّمتْ امرأةٌ صورةً لأبنائها، لأنّها لم تكن تملك ما تعطيه سوى تلك الصورة... وأراد الجميع، وكلٌّ بدوره، تقبيل أيدينا، مردّدين، إلى ما لانهاية، أدعيةً رقيقةً. وتمسّكوا بالسيّارة محاولين منعها من الانطلاق، فيما جرى الصغار وراءنا حتّى بوّابة المحجر. وحينئذٍ، التفتّ نحوهم، للمرّة الأخيرة، رادًّا على إشارات وداعهم، فشاهدت العلمين الفرنسيّ واليونانيّ يخفقان معًا، وبينهما قد دُوِّنت على واجهة البناء عبارة "لقد انتصرت المحبّة، وانهارت الجدران".

وكان كتّاب المسرحيّة التي ألّفها المرضى، احتفاءً بزيارتي قد سألوا الوقت: "متى سيتوقّف صديقنا؟"، وأجاب الوقت: "لن يتوقّف راوول أبدًا، طالما بقي على الأرض، مخلوقٌ بريءٌ وحيدٌ، يتألّم، وسيظلّ راوول يسير، ويجوب الجبال والبحار، والغابات، والأنهار، والمدن والصحارى".

في الطائرة استذكرتُ هذه الأقوال المؤثّرة، وتلك التي قالها لي البرص في مدينة "تاهاشيما" اليابانيّة، لبضعة أشهرٍ خلت: "أنت لم تكن تعرفنا قبل اليوم، ولكنّنا، نحن، كنّا ننتظرك. وهناك آخرون ينتظرونك. فلا تبطئ السير، ولا تدع عزيمتك تتراخى".

وكيف لي أن أُفكّر، مدى ثانيةٍ واحدةٍ، بالاستكانة للراحة؟ لن يقوى أحدٌ ولا شيءٌ على ردعي.

تعلم "ابنة أخي" الصغيرة، في اليونان، كما يعلم أصدقائي جميعهم، وجميع الذين نسعدهم، والذين ينتظرون تحريرهم، وبخاصّةٍ الأشدّ بؤسًا، أنّني لن أتخلّى عنهم أبدًا.

وسأواصل الكفاح، كلّ الأيّام، إلى أن يصبح البُرص "بشرًا كالآخرين".

وحتّى يُقرأ على واجهات جميع محاجر البرص في العالم:

"انتصرت المحبّة، وقُوِّضت جدران الفصل".

١٤- قريةٌ صغيرةٌ

إنّها قريةٌ صغيرةٌ، لا شأنَ لها، على مسافة أربعة كيلومتراتٍ من مدينةٍ تدّعي أنّها كبيرةٌ. قاطنو القرية هم ثلاثون أبرص، ثلاثون بائسًا. يقيمون في أكواخٍ زريّةٍ، من أعشابٍ يابسةٍ وقشٍّ، أكواخٍ متهاويةٍ، قد تطيح بها العاصفة الأولى.

كلّ أُسبوعٍ يؤتى إليهم، أو الأصحّ، تُلقى لهم حفناتٌ من حبوب الدخن، تقيهم من الموت جوعًا، وفي أحيانٍ نادرةٍ تُرمى لهم بقايا لحمٍ مشبوهٍ. ومع ذلك لا يثورون على وضعهم الزريّ.

يا لفرحتهم لّما رأونا قادمين إليهم، برفقة الراهبات. معظمهم كانوا قد فقدوا أيديهم. ويا لها من أصواتٍ موجعةٍ، عندما حاولوا التصفيق لنا بقرع جدعاتهم بعضها على بعضٍ.

لم يبقَ لزعيمهم لا يدان، ولا عينان. ومع ذلك، كم كانت رقيقةً محاولته ضمّي بين ذراعيه، بعد قليلٍ!

لم يكن لنا علمٌ بوجودهم، وقد اكتشفناهم صدفةً، ولم يكن معنا ما نعطيهم سوى بعض لفافات تبغٍ. ومع ذلك، عبّروا عن سرورهم بتنظيمهم حفلةً موسيقيّةً راقصةً، بالقرع على قفا وعاءٍ نحاسيٍّ. والذين كانوا قد فقدوا أرجلهم، رفعوا نحو السماء أذرعًا بلا أيدٍ.

كنّا نراقب هذا المشهد المريع والمؤثّر، والخجل يحطّم قلوبنا... فنحن لنا أيدٍ، ولكنّها، اليوم، فارغةٌ، واجتاحنا شعورٌ بالذنب، بسبب وجود هؤلاء على مسافة أربعة كيلومتراتٍ من المدينة، ولم نأتِ إليهم، قطّ.

كان حريقٌ قد التهم أحد الأكواخ في الليلة الفائتة. ولم يبقَ لساكنيه شيءٌ. ومَثُل الزوجان أمامي، وقد ارتسمت على وجهيهما بسمة تسليمٍ، وطلبا غطاءً أو غطاءَيْن، جاءت بهما الراهبات في اليوم التالي.

هما قالا: "شكرًا"، وكم وددتُ، أنا، أن أستغفرهما.

١٥- كنزٌ

كنّا نزور نحو عشرين "أبرص"، في مستشفًى أنيقٍ، يرعاه عمدة المدينة. ومن عمق قاعةٍ، أشار إليّ شيخٌ مسنٌّ، قابعٌ في سريره، كنت قد التقيتُه لسنين عديدةٍ مضت. أجلسني على سريره، وبصوتٍ رقيقٍ قال لي: "انتهيت إلى غاية الشوط، وإلى عتبة الموت، لا تجاملني ولا تكذب عليّ. وزوجتي البرصاء تحتضر، هي أيضًا.

"لم يبقَ لدينا شيءٌ، سوى هذين القرْطَين، اللذين كنتُ قد قدّمتهما لها قـــديمًا، منذ زمانٍ بعيدٍ، قبل... هل تفهم؟ قبل. خذهما فقد يساعدانك على تسريب شيءٍ من الفرح إلى قلبٍ آخر لم يحظَ، مثلنا، بمثل العناية والمحبّة اللتين حظينا بهما هنا".

وفيما كنتُ متردّدًا في أخذهما، أودع الشيخ كنـــزه في راحة يدي وأكـــرهني على إطباق أصابعي عليه.

لم أستطع أن أتكلّم، فقد كان كلّ شيءٍ داخلـــي يبكـــي. فقبّلتـــه ومضـــيتُ بالكنـــز، كالسارق.

١٦- ستنقذ المحبّة العالم

كتبت لي صديقةٌ:

"إنّني أعتني بالمشلولين شللاً بليغًا، وأقضي معهم، كلّ أُسبوعٍ، نصف نهارٍ. وطلب منّي، يوم الأربعاء الفائت، الولد روبير، أن أزور والدته المريضة، منذ عشرين سنةً. وزرتها فأعطتني ألف فرنك كان روبير قد وفّرها، بتضحيته بسلواه الوحيدة: السينما.

ولا بدّ من التنويه بأنّ روبير مصابٌ بإعاقاتٍ جسديّةٍ عديدةٍ بالغةٍ.

أليس هذا رائعًا؟

١٧- أجمل قصّة حبّ

اسمها نورا، واسمه تيوروي. سنّ كليهما، معًا، خمسون سنةً، وهما متحابّان. كانا يعيشان معًا، سعيدين، في بهاء تاهيتي. وبما أنّهما لم يُرزقا أبناءً، تبنّيا، عام **١٩٤٥**، طفلاً عمره شهرٌ واحدٌ. وفي ذلك العام نفسه ظهرت على ساق نورا علامةٌ مشبوهةٌ، سرعان ما تحوّل لونها إلى الحُمرة، فاستُدعي طبيبٌ على عجلٍ، وقام بالاختبار الكلاسيكيّ، فلم تشعر نورا لا بلسعةٍ ولا بحرارةٍ. وتأكّدت إصابتها بالبرَص.

وتوسّل تيوروي الطبيب أن يعالجها في المنْزل، وينقذها. فدأب على إعطائها، كلّ يومٍ، حقنةً، وكان هذا العلاج يكلّفه ألف فرنك شهريًّا. تيوروي نجّارٌ، ولكنّ تلك المهنة كانت، آنذاك، راكدةً. فحاول تدبّر أُموره، بكلّ ما استطاع، ورضي بأيّ عملٍ، وفي أيّ وقتٍ. وأحجم ذووه عن مدّه بالعون، لا بل هجروه، وأمعنوا في تثبيط عزيمته.

كرّت أربع سنواتٍ، لم يتوانَ تيوروي، خلالها، عن أيّة محاولةٍ. باع كلّ ما يملك، والبؤس دائبٌ على مطاردته. عجز عن دفع ثمن العلاج، والداء ماضٍ فتكًا. سيطر اليأس على نفسه، وسحَقه العجز، فيما عوامل البرَص وقروحه ماضيةٌ انتشارًا وئيدًا على جسم نورا، حبيبته وروح حياته. إلى أن تعذّرت عليه متابعة العلاج في المنزل، ولم يعد مفرٌّ من إيداع نورا في محجرٍ. وجهد تيوروي عبثًا، في الإقامة معها في المحجر، غير أنّ باب المحجر انغلق عليها وعلى نحيبها، ورفضِ زوجها.

ومع ذلك لم يستسلم تيوروي، فهو في عزّ شبابه، وقوّته، وجماله. والفتيات يحدّقنَ إليه في الشارع مبتسماتٍ. ووالده راغبٌ في تزويجه، ثانيةً، ويغريه بـ "نصيبٍ رائعٍ"، ولكنّ تيوروي غير مبالٍ لا بشبابه، ولا بجماله، ولا بالفتيات

المبتسمات له، سادٌّ أُذنيه عن إغراءات والده، ولا يرى، في الدنيا إلاّ طيف "نورا" المتألّمة، المشوّهة، التي تمدّ له يدين فتكت بهما آكلة البرص.

قابل "إدارة المحجر"، جاهرًا برغبته في البقاء مع زوجته داخل المحجر، حيثما تكون. وللوهلة الأولى، لم تدرك "الإدارة"، مطلبه. فالفهم والعطف ليسا مهمّتها، بل مهمّتها منحصرةٌ في تنفيذ النظام، والنظام لا يلحظ حالته، لأنّ الحبّ لا يمتّ إلى النظام بصلةٍ...

وحينئذٍ قال تيوروي: "سأبتني، إذن، هنا، بيتًا لنا، وأُقيم فيه مع زوجتي".

إزاء توسّلاته الملحاح، تعاطف موظّفٌ في المحجر معه، وأزاح السدود دون تحقيق رغبته الحارقة، فشمّر تيوروي عن ساعديه وحقّق حلمه في مهلةٍ قياسيّةٍ.

في هذه الأثناء كان مرض نورا يتفاقم باطّرادٍ، وأنظارها شاخصةٌ دائمًا إلى باب منفاها، وإلى ما وراءه، إلى الطريق الجميل الذي يساير البحيرة، بحيرةً تقرن مياهها الزرقة بالخضار، وتتوه بين أشجار جوز الهند.

إنّها متيقّنةٌ من حضور تيوروي من هذا الباب، لأنّه لن يقوى على عدم المجيء.

وجاء تيوروي.

ورأيتهما كليهما معًا، بل ثلاثتهما، فهما تعويضًا عن الطفل الذي كانا قد تبنّياه، تبنّيا طفلةً برصاء.

رأيتهم سعداء، مغرقين في السعادة. وفي المحجر استأنف تيوروي عمل النجارة، ورحّب به الجميع، وأحبّوه.

وتحسّنت صحّة نورا، تحسّنًا ملحوظًا.

جميلٌ هو بيت النجّار الشابّ، ومضيءٌ، وفرِحٌ، وضحكات الطفلة تدوّي في كلّ زوايا المحجر.

وجميع المتألّمين، والممزّقين يبتسمون لهذا الشباب، ويستدفئون بهذه السعادة.

قصّة حبٍّ بسيطةٌ، وربّما هي أجمل قصّة حبٍّ حدثت.

١٨- نصٌ مزدوجٌ

أُصيبَ بالبرص منذ عشرين عامًا، واعتكف في مدينته الاستوائيّة الصغيرة. فَقَدَ القدرة على استخدام يديه، ثمّ فَقَدَ بصره. فتطوّعت خادمةٌ كبيرة القلب لمساعدته على العيش، مقدّمةً له، يوميًّا، الخدمات التي يعجز عن القيام بها بمفرده.

ومنذ البدء أبى الرجل أن يصبح حطامًا، واحتفظ بسلامة عقله، وبعلمه، وبقلبه... وغدا يقدّم دروسًا خاصّةً لطلاّبٍ يتأهّبون للامتحانات. ومن المتقدّمين إلى امتحان الشهادة المتوسّطة، في السنة الفائتة، لم ينجح إلاّ أحد طلاّبه.

وهو ما انفكّ يقدّم للجميع مثالاً مؤثّرًا في الإرادة والشجاعة والمحبّة. لقد تغلّب على مرضه، وأتاحت له جرأته، وتصميمه على إفادة الآخرين، وعلى خدمتهم، أن يظلّ إنسانًا.

انتصر على الأحكام الخرقاء، وعلى الخوف الأحمق الذي قد يمسك طلاّبًا عن المجيء إلى حجرته، كي يقودهم إلى الامتحانات بنجاحٍ.

فهنيئًا للطلاّب وللمعلّم!

تُرى، لِمَ لا يتحقّق مثل ذلك، في مكانٍ آخر، بل في كلّ مكانٍ؟

١٩- المحبّة

عشيّة عيد ميلادٍ، في نهاية يومٍ حافلٍ بالزيارات، والهواتف، والرسائل وأكداس الرزم الموزّعة، باسم الأب شارل دي فوكو، لكي ترسم بسمةً على وجوه آلاف الصغار والمسنّين.

الساعة العاشرة، مساءً. أنا منهكٌ، مرهقٌ، أتطلّع إلى هدنة صمتٍ وعزلةٍ، ووحدةٍ. وإذا بالباب الذي قُرِع ألف مرّةٍ في ذلك النهار، يُقرَع من جديدٍ. وبشيءٍ من نفاد صبرٍ، فتحتُه. وإذا بولدٍ صغيرٍ، شاحب المحيّا شحوبًا شديدًا، وعيناه الواسعتان شاردتان صوب هدفٍ لم أتبيّنه، نحو ما يعجز البالغون عن اكتشافه. أعطاني رسالةً، لم يُرفقها بكلمةٍ، ولاذ بالفرار. إثر لحظة حيرةٍ، هممت باللحاق به. ولكنّ الأوان كان قد فات. فقد هبط الصغير الدرج بسرعةٍ، وغاص في زحمة الشارع.

داخل الرسالة كان خمسةٌ وعشرون فرنكًا، وهذه الأسطر.

"سيّدي،

حبًّا بالله، أرجوك أن تتقبّل من عاملٍ، في سنة مرضه السادسة، هذه المساهمة المتواضعة، ولا تحرمني فرح مساعدة من هو أشدّ بؤسًا منّي".

أنا لست أعرف تعريفًا للمحبّة أجمل من هذا. ففعل المحبّة يجب أن يتمّ، أوّلاً، حبًّا بالله، وبذلك يحقّق معناه الأسمى، ويجعل منّا مساعدي الله، على غير استحقاقٍ منّا.

بمعزلٍ عن حبّ الله، لن يكون التصدّق إلاّ سخاءً، وإيثارًا، وعطفًا. وهذه كلّها جميلةٌ، وأُحيّيها، ولكنّي أكرّر: "ليست هذه هي المحبّة".

المحبّة هي انعكاس وجه الربّ على وجه الفقير، والمتألّم، والمضطهَد، وهي تتحقّق في الفرح، وتولّد الفرح.

يقول تْشِسترتُن: "الفرح هو سرّ المسيحيّ العظيم".

٢٠- ضمادات للمسيح

مستوصفٌ ضائعٌ في أعماق الأدغال. مستوصفٌ صغيرٌ، مُغرقٌ في الفقر، وخاوٍ من مستلزمات الإغاثة. تصطفق على أبوابه، بلا هوادةٍ، أمواج البحر العاتية، وأمواج مآسي الفقر، والحرمان والاستغاثة.

ذات يومٍ، شاهدتُ فيه، المرسلات اللواتي لم يبقَ لديهنّ ما يضمّدنَ به القروح المريعة التي تستصرخ رأفتهنّ، شاهدتهنّ يقصُصْنَ أغطية أسرّتهنّ، كي يصطنعنَ منها ضماداتٍ.

وربّما يحذو حذوهنّ، ذاك الذي كتب لي اليوم:

"إنّي مضطرٌّ، الآن، إلى اصطناع أضمدةٍ من أغطية السكرستيّا العتيقة. قد لا يلومني خدّام الهيكل. ولكنّ ما يقلقني هو نضوب هذا النبع أيضًا.

"لستُ نادمًا على استعمالي، خير استعمالٍ، هذه الأقمشة المقدّسة من أجل غوث أعضاء المسيح المتألّمة".

وأنا، أيضًا، لا أستنكر فعل مراسلي، وتخطر ببالي ذكرى أُسقف "أرل" القدّيس، الذي باع كأس الإفخارستيّا، وصينيّة القربان، من أجل إطعام جياعٍ.

مبادراتٌ تتكرّر عبر القرون، لأنّ المحبّة التي توجز شريعة يسوع، تستطيع فعل كلّ ما هو كفيلٌ بتنفيذ هذه الشريعة، وتستطيع فرض قانونها كلّيّ القدرة، وكلّيّ العذوبة والعطف.

٢١- ذكريان

مرّ رجلٌ مستعجلاً، أمام مرسَلٍ يستجدي من أجل أولادٍ مرضى وجياعٍ. وكان حشدٌ غفيرٌ حول المرسَل يراقب ما يحدث. فتوقّف الرجل، وفتّش في زوايا جيوبه، واستلّ منها عشرة فرنكاتٍ، ورماها في يد الكاهن، وقبل أن يبعد، دنا من المرسَل، وقال له: "اعذرني، فأنا ماضٍ إلى المطار من أجل استلام كلب صيدٍ، أُرسل لي". وتوقّف لحظةً قبل أن يسرّي عن ضيقه، ويقول: "تصوّر: إنّهم يطالبوني بثمانين ألف فرنك، أجرًا لنقل الكلب. أليس هذا عارًا؟".

وأنا أُجيبه: "حقًّا إنّه عارٌ، يا سيّدي، عارٌ حقيقيٌّ!".

ولكنّ العار لا يقع على ناقلي الكلب البريء.

ثمّ مضيتُ إلى محجر برصٍ، حيث توجد تيريز، التي التقيتُها، أثناء زيارةٍ سابقةٍ، واتّفقنا على أن تكون هي خطيبتي. وكانت تيريز، في هذه الأثناء قد شُفيت، تزوّجت (بغيري طبعًا)، وهي الآن تعمل غسّالةً. عملها شاقٌّ، ولكنّها لا تشكو، فهي بهذا العمل الشاقّ تكسب معيشتها.

وقد قالت لي "يا بابا راوول، ها قد تحرّرتُ من المرض. ولديّ ما أعيش به. وبما أنّي لم أُرزَق أطفالاً، أرغب في تبنّي مريضةٍ صغيرةٍ، في بلدٍ آخر، تكون لي ابنتي، عن بعدٍ، وأُرسل لها، كلّ شهرٍ جزءًا من راتبي، لكي تشفى، هي أيضًا، وتصبح امرأةً مثل الأُخريات.

وسمعتني تيريز، بعد لحظاتٍ، أتمتم: "يا للعار!"، فشحب لونها واستفسرت، لَمَ، يا بابا راوول، أليس ما أنويه عملاً صالحًا؟".

فأرحتُ قلبها، موضحًا: "إنّ من عيّرتُه هو قلبٌ قذرٌ، بخيلٌ، ومقزّزٌ. اعذريني". وقبّلتُها.

٢٢- في تاهيتي

عام ١٩٥٦، وصلتُ إلى تاهيتي على متن المركب الذي كان عليه الجنرال ديغول قادمًا ليزور المستعمرات الفرنسيّة في أوقيانيا.

كان جميع سكّان الجزيرة قد احتشدوا في مرفأ "پـــاپـــيت"، ترحيبًـــا بـــالزائر الرفيع، وإلى جانبهم، على حدةٍ، جماعةٌ من خمسة عشر مصابًا بالبرص، كانوا قـــد قدموا، في ذلك الصباح، من محجر "أوروفورا" (Orofora)، تلبيةً لـــرغبتي في أن يكون أصدقائي الخاصّون في استقبالي.

كنت أعرف أسماء معظمهم، وكانوا واقفين في شيءٍ من الحرج والخجل، وبيد كلٍّ منهم طوق زهورٍ.

وانحدرتُ من المركب وسط صمتٍ ثقيلٍ، وأنظـــار الجمهـــور شاخصـــةٌ إليّ. فانبرت، من وسط البُرص، فتاةٌ صغيرةٌ، بارعة الجمال، وقـــد لطّخـــت وجهَهـــا علاماتُ المرض المريعة، وعلى أطراف يديها طوق زهورٍ. فقلتُ لها بصوتٍ تعمّدت إظهاره خشنًا: "ماذا تنتظرون؟" ومددتُ عنقي، فطوّقته بزهورها، وقبّلـــت أنـــا خدّيها، وفقًا للتقاليد التاهيتيّة، وتدافع رفاقها، وكلٌّ منـــهم راغـــبٌ في تطـــويقي بالزهور، والحصول على قبلة.

في هذه الأثناء كانت قبّعتي قد تطايرت إلى أقصى المرفأ، وتعذّر عليّ تبـــيّن أيّ شيءٍ، فقد أعمتني عقود الزهور، وخنقتني، وغرقت في لجّة ذلك الاندفاع، وذلك الفرح الرائع.

حينئذٍ صفّق الجمهور، وأدركتُ أنّنا قد أحرزنا نصرًا نفسيًّا عظيمًا. وبعد أيّـــامٍ

معدوداتٍ، قرّر حاكم المؤسّسات الفرنسيّة في أوقيانيا، إغلاق محجر بُرْص "أوروفورا"، وتحويله إلى مركز علاجٍ، مُلحقٍ بالمستشفى، وأضفى عليه صفة مستشفًى، وزوّده بنظام مستشفًى، وبِملاك مستشفًى، وأُلغيَتْ من سجلّات الأحوال المدنيّة صفة "أبرص".

وبمناسبة هذه الزيارة، أُطلِق سراح اثني عشر أبرص، نالوا الشفاء، فأعلنت، عبر الإذاعة: "لديّ اثنا عشر مريضًا، يطلبون عملاً". وبعد سويعاتٍ وردني طلب استخدام مديرة منزل تتكلّم الفرنسيّة. وسرعان ما وُظّف الآخرون، وتزوّجت الفتيات.

وجميعهم الآن سعداء.

٢٣- القفص

في مدينةٍ صغيرةٍ، اعتلَّ رجلٌ مرموقٌ ومقدَّرٌ. واستُدعي طبيبٌ فشخّص لدى الرجل برَصًا. وبدأت مأساته. فلم يعد له ظهورٌ في الخارج، ولا داخل بيته. فقد حجَرته أسرته في غرفته، أو بالحريّ في جزءٍ من غرفته، أي تحت ناموسيّة سريره. وحُظِر عليه تخطّيها اتّقاءً لنقل عدواه ونشرها في جوّ البيت. وكانوا يقتصرون على دسّ الزهيد من الطعام تحت سريره، لكيلا يموت جوعًا.

لقد أضحت الناموسيّة هي عالمه كلّه. ولم يعُدْ يرى أحدًا إلاّ من خلال سجنه الشفّاف، قفصه.

وذات يومٍ، فرّ من سجنه، ولكي ينعم بتحريرٍ كاملٍ، انتحر. وكان لانتحاره وقعٌ مدوٍّ، فهو رجلٌ مرموقٌ ومحترمٌ.

وشُرِّحت جثّته، فتبيّن أنّه ضحيّة خطأٍ طبّيٍّ، وأنّه لم يُصبْ أبدًا بالبرَص.

ومع ذلك، فقد حياته لأنّه اتُّهِم بالبرَص، خطأً.

٢٤- تقبيل البُرْص

« لطالما كرّرتُ قول إنّي لستُ طبيبًا، ولستُ قادرًا على معالجة البُرْص، ولكنّي قادرٌ على محبّتهم. وعلى امتداد عشرات السنين، جُبتُ العالم، دائبًا على مصافحتهم وتقبيلهم. لقد ضممتُ الألوف، وصافحت عشرات الآلاف منهم. وغالبًا ما اضطررتُ إلى القبض، عنوةً على الأيادي المشوّهة التي كانت تنسحب، وتتوارى حياءً. بَدَهيٌّ أنّ ذلك لم يشفهم، ولكنّه ربمّا شفى أصحّاء من نفورهم ومن خوفهم من البرص ».

ولم يكن، دائمًا، من اليسير على فولّيرو أن يقوم بمبادرات المحبّة هذه، فقد كانت، غالبًا، حواجز منيعةٌ تفصله عن أصدقائه المساكين الذين كانوا محجوزين خلف ستائر حديديةٍ تفصلهم عنه. وغالبًا، ما كان يستولي عليه غضبٌ مقدّسٌ، ويُكره الحرّاس على فتح الحواجز، كي يضمّ المرضى إلى صدره.

في أحد مراكز البُرص رأى برصاء تدعى "ستيلاّ"، فمدّ لها يده، ولكنّها أخفت يديها وراء ظهرها، وقالت بصوتٍ حائرٍ: "ممنوع". وارتبك مدير المحجر، في حين جهر فولّيرو باستيائه. وسرعان ما استدرك، وسأل المدير: "وهل في القانون بندٌ يمنع تقبيل البُرص، أيضًا؟ "ولحسن الطالع، لم يلحظ القانون هذا الاحتمال. وحينئذٍ، أخذ فولّيرو بعنق ستيلاّ، وقبّلها، وتدافع الآخرون والأخريات للتقرّب منه.

ومن أشدّ ما كان يزعج فولّيرو وقوف ممرّضٍ خلفه، وبيده وعاء كحولٍ، وممسحةٌ، فكان فولّيرو يردعه بجفاءٍ، قائلاً: "لا، لستُ أريد ذلك، ألم تفهم؟"، ولا يلبث أن يهدأ روعه، ويعتذر بصوتٍ خافتٍ، هامسًا: "شكرًا".

وسُئل فولّيرو، يومًا، عن أجمل ذكرياته، فازدحمت في خاطره طوائف من الصور الجميلة. وربّما كان من أرسخ الذكريات في ذهنه، وأكثرها التصاقًا بقلبه، ذاك المحجر الآسيويّ الذي وصل إليه في ختام رحلةٍ طويلةٍ، وقد أصفرت يداه من أيّ شيءٍ يمكن تقديمه للبُرص. وفيما كان يعتذر لسكّان المحجر عن مجيئه خالي الوفاض، قاطعه زعيمهم قائلاً: "لا همّ إن لم تأتِنا بشيءٍ. فقد تكبّدت عناء المجيء إلينا، وحسبُنا أن تمسّ أيدينا". وفي الحال انتظم البُرص في طابورٍ، مادّين أيديهم المتآكلة، لا في موقف استجداءٍ، بل طمعًا في تلقّيهم، من خلال مصافحة كفّه اعترافَ إنسانٍ بأخيه الإنسان، يعيد لهم كرامتهم الممتهنة.

ولم ينسَ فولّيرو ذلك المحجر الآخر، في أميركا الجنوبيّة، حيث وصل منهكًا، إثر قطعه الشاقّ لمئات الكيلومترات، تارةً على متن قوارب، وطورًا على طرقات وعرةٍ. ووسط ثماني مئة مريضٍ قال له عميد القرية: "شكرًا لمجيئك. كنّا ننتظرك، فمنذ عشرين عامًا لم يمدّ لنا أحدٌ يده".

٢٥- قصّة حبٍّ مبهرةٌ

إنّهما متحابّان.

هو فَقَدَ أصابع يديه، وقد شرع البرص يلتهم رجليه، وهي ضحيّة سرطانٍ يمكن معاينة اجتياحه الذي لا يرحم. هو رجلٌ ملعونٌ، وهي امرأةٌ لا يطيق أحدٌ الدنوّ منها أو مشاهدتها. وبدَهيٌّ ألاّ يُتاح لأيٍّ منهما عملٌ. ومصيرهما المحتّم هو البؤس. ومع ذلك حبّهما صامدٌ.

بصبرٍ ورقّةٍ غير محدودين، هو يدأب، بيديه اللتين فقدتا أصابعهما، على تبديل ضماداتها المقزّزة، التي لا يرتضي أحدٌ سواه لمسها. وبسبب فقدان أصابعه، وعدم تأهّله لعمل التمريض، كان يستخرج منها صيحات وجعٍ، وحينئذٍ لم يكن له ملجأٌ سوى دموع الأسى.

وذات صباحٍ، فيما كنّا نزور برصًا آخرين، تنامت إلينا قصّتهما، فقصدناهما عبر دهليزٍ من الأكواخ الزريّة، وحُفَرٍ ملأى بالوحول والأقذار. كانت المرأة المسكينة قد لقيت حتفها في تلك الليلة عينها. وكان هو قد ألبسها ثيابًا تخفي قرحها المفتوح المريع، وأسبل مسبحةً بين أصابعها الطويلة والنحيفة، وجلس إلى جانبها فاقدًا النظر والصوت.

قد يُظَنّ أنّ محنته انتهت. ولكنّها، في الواقع، قد بدأت آنذاك، وبلغت ذورة حدّها. فالحرارة، داخل الكوخ تتخطّى ثلاثين درجةً، ولكن من أجل دفنها كانوا يطلبون منه دفع خمسةٍ وثلاثين ألف فرنك، في الحال. وهو لا يملك فلسًا، إذ إنّه، في سبيل تأخير هذه الساعة المشؤومة، كان قد أنفق كلّ ما يملك.

هو جالسٌ بقربها، ينتظر خمسةً وثلاثين ألف فرنك. وهي، في تابوتها، وحرارة الغرفة.

مددتُ له المبلغ، فتناوله ولم يفُهْ بكلمةٍ...

ربّما كان يتوقّع المعجزة التي استأهلها.

غادرنا، أنا وزوجتي، وأصدقاؤنا، بقلوبٍ محطّمةٍ، ولكنّها مبهورةٌ.

٢٦- تقدّم الحضارة

تعطّلت سيّارتنا، فدنوتُ من زعيم قبيلةٍ، جالسٍ أمام كوخه، وقد غرس غليونه بين أسنانه، يطالع جريدةً فرنسيّةً. ورأيته بغتةً، يهزّ رأسه ساخرًا، فانحنيت فوق رأسه، وقرأت النبأ الذي أثار سخريّته: "نحو ألفَيْ ساكن ضاحية مدينةٍ كبيرةٍ، ابتاعوا بأقلّ من خمسين فرنكًا تعويذةً ورقيّةً تضمن حمايةً مؤكّدةً ضدّ الإشعاعات الناتجة عن انفجار القنابل الذرّيّة.

وحاولتُ التعليق على النبأ المنشور. فقاطعني الزعيم قائلاً: "لقد بتنا نعلم، اليوم، أنّ كلّ انفجارٍ يعني خمسين ألف جثّةٍ، أو ثمانين ألفًا، وحتّى مئة ألف جثّةٍ. يا له من تقدّم حضاريٍّ! فعندما كنّا نتحارب كان القتلى يسقطون فردًا، فردًا... ولذلك كنتم تعدّوننا متوحّشين.

وحاولتُ تغيير موضوع الحديث، ووقع بصري على قبّة جرسٍ صغيرةٍ بين شجرتَي مانغو، وبدأت بقول: "ومع ذلك، إنّ المسيحيّة... فقاطعني مجدّدًا: "إنّي أرى ما تشير إليه، ولكن التفتْ إلى الجانب الآخر، وشاهدتُ قبّة جرسٍ أُخرى، تحت أشجار مانغو أُخرى. فاستأنف ملاحظته قائلاً:"لقد جاءا كلاهما، ولكنّهما لم يأتيا معًا. وكان كلٌّ منهما حاملاً مسيحه، وأكّد كلٌّ منهما: "أنا أملك الحقيقة، وإذا استمعت لخصمي فمصيرك جهنّم".

"إذن، قبل دعوتي إلى اعتناق المسيحيّة، فليتّفق المسيحيّون بعضهم مع بعضٍ!".

لحسن طالعي كانت سيّارتنا قد صُلِّحت، فودّعت الزعيم ومضيت.

٢٧- الفئران البيضاء الصغيرة

قالوا لي: ستشهد هنا أمرًا غريبًا، ولم يكذبوا، فما شهدتهُ يتخطّى الخيال، عبثيّةً وهولاً.

في ذلك المركز أربع مئةٍ وخمسون طفلاً يخضعون للمراقبة. وقيل لي إنّ ألفًا ومئتي طفلٍ قد عهدوا هذا المصير. أعمارهم تتراوح بين سنتين وعشر سنواتٍ، وتقدّم مرضهم يتأرجح بين متوسّطٍ وشديدٍ.

والأغرب أنّ الأطفال هنا لا يُخضَعون لأيّة معالجةٍ، لا بسبب تعذّر شفائهم، ولا من جرّاء الافتقار إلى وسائل شفاءٍ، بل بسبب انتفاء إرادة شفائهم، عن سابق قصدٍ وتصميمٍ، وسعيٍ إلى مراقبة تطوّر الداء الذي لا يُعالَج. هذه الرغبة تحكم على هؤلاء الأبرياء الصغار باحتضارٍ مغرقٍ في الوحشيّة. ولا أحد يهتمّ أو يعترض.

وقد كنت شاهدًا على الاندفاع والفرح اللذين اعتريا المراقب عندما تبيّن كيف تردّت حالة طفلٍ، كانت إمكانيّة شفائه شبه مؤكّدةٍ، عندما جيء به، وكيف هوى إلى ليل المرض، بعد أسابيع معدوداتٍ من الإهمال، وصُعِقتُ لّما سمعتُ المراقب يدعو الطبيب إلى تبيّن كيف أصبح ذلك الطفل قادرًا على نقل عدواه.

في هذه الأثناء كان الأطفال الآخرون ينتظرون دورهم، بعيونٍ فارغةٍ مثلما تنتظر، داخل أقفاصها، فئران المختبرات البيضاء، والتي قد تتعاطف معها القلوب الحسّاسة، فيما لا يتعاطف أحدٌ مع هؤلاء الأطفال، ولا أحدٌ يستنكر!

وقد علمتُ أنّ لمدير بيت الرعب هذا أبناءً يحبّهم برقّةٍ؛ وتساءلتُ كيف لم يلمح، قطّ، على وجوه أطفال التجارب انعكاسًا لوجوه أبنائه. كان للمدير منظرٌ رقيقٌ، ونظرةٌ ثابتةٌ، وجفنان جامدان، وسبق أن شهدتُ هذه القسمات لدى المجانين.

قد يردّون على اعتراضي بالجواب المأثور: "باسم العلْم".

ولكن، منذ متى كان العلْمُ يجيز القتل؟

تمويل معركة البرَص

لقد استلزمت المعركة التي شنّها فولّيرو على البرَص، والتي امتدّت عشـــرات السنين، أموالاً طائلةً. فمن أين جاء بها؟

لا ريب أنّ النداءات الناريّة التي كان يطلقها في آلاف محاضراته كانت تدرّ تبرّعاتٍ سخيّةً؛ وأنّ اليوم العالميّ للبرَص كان دافعًا لا يُقاوَم يحدو برؤساء الدول على تخصيص ميزانيّاتٍ سخيّةٍ، من أجل مكافحة البرَص في دولهم، ومن أجل إقامة مراكز استشفاءٍ ذات فاعليّةٍ عاليةٍ.

وتفتّقت عبقريّة فولّيرو عن محاولات خضّ ضمائر القابضين على مقاليد الدول الكبرى لعلّهم يُفرِجون عن جزءٍ ضئيلٍ من الأموال الطائلة التي يهدرونها على تضخيم ترساناتهم الحربيّة، وعلى تكديس آلات القتل والتدمير، ووقف هذا الغيض من فيض هدرهم على معالجة مرضى، وشفاء أدواءٍ، وإشباع بطونٍ خاويةٍ، وإشعال ومضة رجاءٍ وعزاءٍ في قلوب معدومين يائسين.

ولكنّ محاولاته اصطدمت بقلوبٍ مقدودةٍ من جلمود صخرٍ، وبسدود الأنانيّة، والكبرياء، والتنافس المأفون على التفوّق قدرةً على القتل، والبطر، والتظاهر.

وبقدر ما أدمى قلبَه عمى هذه النفوس التي حذّرها يسوع من تعذّر عبورها عتبة الملكوت، مثل استحالة عبور حبالٍ غليظةٍ، مصنوعةٍ من وبر الجمال، من سُمّ إبرةٍ صغيرةٍ، ذابت نفسه تأثّرًا، وغبطةً أمام تضحيات فقراء لامسوا فقر الإملاق، ومع ذلك ضحّوا بما يقيم أوَدهم، كي يحموا وجود من عدّوهم أعمق منهم بؤسًا.

قاذفتا قنابل

كتب راوول فولّيرو في عدد نشرته (مهمّة فرنسا) لشهري تشرين الثاني وكانون الأوّل، ١٩٥١.

« قرأتُ في جريدةٍ هذا الصباح:

"ثمن قاذفة قنابل طراز B-52، هو حاليًّا سبعة مليارات فرنك!" هل قرأتم مثلي: سبعة آلاف مليون فرنك، ثمن آلة قتلٍ. وكلّ ما نرجو لها هو أن تشيخ بسلام، وأن تصدأ بسلامٍ، وألاّ تخرج، أبدًا من عنبرها.

هذه الطائرة تكلّف أكثر من وزنها ذهبًا.

ويبدو أنّ النيّة متّجهةٌ إلى إنتاج هذا الطراز بالجملة.

لستُ أجادلُ في الحاجة الماسّة والحتميّة إلى هذه الطائرة، ولكنّي أتساءل ما الفرق بين طائرةٍ تُضاف إلى رفيقاتها، وطائرةٍ تنقص، طائرةٍ تضاف في السجلاّت، وطائرةٍ أقلّ في العنبر.

الفرق هو الإفراج عن سبعة مليارات فرنك، تُنفَقُ على إطعام فقراء، ومعالجتهم وشفائهم. سبعة مليارات فرنك تحلّ قضيّة البرص في بلدان شاسعةٍ، وربّما في قارّةٍ بأكملها. وكم ستنتج سبعة مليارات فرنك من أرغفة، وعقاقير، وحبوبٍ دوائيّةٍ، وحقَنٍ، ومستوصفاتٍ! وكم ستُشبع جياعًا، وكم ستشفي مرضى، وكم ستبثّ رجاءً وسعادةً!

ولن ينقص سوى طائرةٍ واحدةٍ رابضةٍ في عنبرٍ.

وردًّا على من يدّعون الافتقار إلى ميزانيّاتٍ من أجل معالجة أسقامٍ، وإطعام فقراء، كان يقول: "ألا يجوز اقتطاع هذه الأموال من ميزانيّات الموت؟ ولن تكون تلك سرقةً، بل هي إعادة مالٍ مسلوبٍ" ».

ولم يكتفِ فولّيرو بهذه الإضاءة، بل بعد إنضاج فكرة الانتقـال إلى خطـواتٍ عمليّةٍ، دبّج، في أيلول ١٩٥٤، رسالةً مفتوحةً إلى كلٍّ من الجنرال إيزنهاور رئيس الولايات المتّحدة الأميركيّة، وجيورجي مـالينكوف، رئـيس مجلـس الاتّحـاد السوفييتيّ، قال فيها:

« أنا، مثلكما إنسانٌ يبتغي الخير، ويؤمن بحسن الطوايا، ولذلك أكتب لكما.

أنتما، يا سيّديّ الزعيمان الأقويان. وما أطلبه منكما زهيدٌ جدًّا... بل يكاد يكون لا شيء: أن يعطيني كلٌّ منكما قاذفة قنابل واحدة. فقد تنامى إلى علمي أنّ كلاًّ منها يكلّف نحو سبعة مليارات فرنك. وقدّرتُ أنّ بثمن قاذفتيْن، يمكن معالجة جميع بُرْص العالم. طائرةٌ تنقص لدى كلّ فريقٍ لن تخلخل توازن القوى بينكما... وسيمكنكما الاستمرار في النوم بطمأنينةٍ.

وسينعم ملايين الفقراء، أخيرًا، بالنوم.

أنتما أنصاف آلهة هذا القرن. أفلا تظنّان أنّه يحسن قيامكما بعمل خيرٍ.

عشرة ملايين بائسٍ (أبرص) في العالم ليسوا هم كلّ بؤس العالم، ولكنّهم بؤرة بؤسٍ جسيمةٌ.

أعلم أنّ ما أطلبه لن يحلّ كل قضايا العالم. ولكن هباني هاتين الطائرتين، تريا كيف سيُشرق كلّ شيءٍ، وكيف يولد الرجاء في ملايين القلوب الكسيرة، والتي ليست قلوب بُرْصٍ فقط.

أرجو أن تستجيبا إليّ أخيرًا، وأن تكون هذه مشيئة الله الرحيم، الذي يؤمن به أحدكما فقط، والذي يحبّكما كليكما ».

ربّما كان قد شجّعه على مخاطبة "القويّين" القابضَيْن على مصير العالم، تصريحٌ كان أطلقه إيزنهاور، قبل فترةٍ وجيزةٍ، وجاء فيه:

"كلّ مدفعٍ يخرج من مصنعه، يمثّل سرقة طعام جياعٍ. وإنّ تصنيع السلاح لا

يُخسر العالم مالاً فحسب، بل يهدر عرق العمّال، وعبقريّة العلماء، وآمال المواطنين. إنّ كلفة قاذفة قنابل ثقيلةٍ واحدةٍ، تعادل كلفة ثلاثين مدرسةً حديثةً، ومستشفييْن كاملي التجهيز".

مبادرة فولّيرو كانت فرديّةً وجريئةً على مستوى العالم، وربّما ألهمتها مبادرة الأب "پيير" في تلك الحقبة عينها، إذ أحدثت، في غضون ساعاتٍ عاصفةً شعبيّةً هوجاء، وفجّرت ينابيع سخاءٍ لم يتوقّع أحدٌ مدى تدفّقها وفيضها.

وقد نعمت مبادرة فولّيرو بدعمٍ من صديقه الدبلوماسيّ والصحافيّ الشهير "موريس شومان"، الذي سعى إلى إيصال نداء فولّيرو إلى يدي رئيسي الدولتَيْن الكبريَيْن. وفي الآن عينه، جنّد لها معظم أعضاء الحكومة الفرنسيّة، كما جنّد لها، أيضًا، الصحافة، التي ارتقت بفولّيرو إلى مستوى نبيٍّ، وعدّت مبادرته رمزًا.

مبادرات فولّيرو السابقة كانت قد علّمته أنّ أوفرها نجاحًا، هي الأكثرها جنونًا. ولكنّه لم يكن قد خبَر ردود فعل كبار العالم، المبنيّة على حساباتٍ أنانيّةٍ خسيسةٍ، لا علاقة لها بالعطف والمحبّة.

وفي الواقع، لم يردّ أحدٌ من الزعيمين على نداء فولّيرو. ولو كان أحدٌ منهما قد تحرّك لربّما كان قد جرّ في إثره الآخر، ولو بدافع المنافسة.

ومع ذلك، لم يفُتَّ فشل المبادرة، ولامبالاة الزعيمين من عضد فولّيرو، فأعاد الكرّة. وفي عام ١٩٥٩، دبّج رسالةً ثالثةً إلى الرئيس الأميركيّ الجنرال إيزنهاور، وإلى السيّد خروشتْشيف رئيس مجلس وزراء الاتّحاد السوڤييتيّ، هذا نصّها:

« سيّديّ الرئيسيْن،

ها قد اجتمعتما، أخيرًا، وسيكون بوسع سيّدَيْ العالم التحدّث إنسانًا إلى إنسانٍ، ورجلاً إلى رجلٍ. جميع الشعوب ترجو وترتعد في آنٍ معًا. والجميع

يعلمون أنّ بوسعكما فعل كلّ شيءٍ تقريبًا، من أجل سعادة البشر، ومع ذلك تساورهم خشية الكوارث الماحقة التي قد تنشأ عن خلافاتكما.

إنّنا نعلم أنّ قلبَيكما يخفقان على وقع خفقان قلوبنا، ولا يرغبان في الخفقان إلاّ من أجل سلام العالم.

وأنا لا أكتب لكما إلاّ بدافع ثقتي بسلامة نواياكما. إنّي إنسانٌ كسائر البشر، يتمنّى أن ينام، ليلاً، وهو مطمئنٌّ إلى أنّ جميع الآخرين هم سعداء. هذه هي قوّتي، وهذا هو إيماني، وهذا ما يتيح لي أن أتوجّه إليكما.

سيّديَّ الكبيرين،

هل ترغبان في إنقاذ خمسة عشر مليون إنسانٍ، هم الأكثر وجعًا، ونبذًا، وإهمالاً من أبناء البشر، وقد تردّوا إلى قعر البؤس، والوحدة، وما عادوا يعرفون إلى أيّة فئةٍ ينتمون؟

خمسة عشر مليون بريءٍ، مصابون بداءٍ أعلنت منظّمة الصحّة العالميّة، حديثًا، أنّه قليل العدوى، وقابلٌ لشفاءٍ أكيدٍ. ومع ذلك، ما زال يرين على البرص الحكم بأدهى موتٍ.

فهل ستوقّعان، معًا، العفو عن خمسة عشر مليون إنسانٍ؟

هل ترغبان في أن يُفضي اتّفاقكما الأوّل إلى تحرير خمسة عشر مليونٍ من سجناء الجهل، والأنانيّة والجبْنِ، هذه الأدواء الثلاثة الأخطر عدوى، والأعصى على الشفاء.

تستطيعان تلبية ملتمسي، بكلمةٍ منكما، وبتخلّي كلٍّ منكما عن آلةٍ واحدةٍ من آلات القتل التي تعجّ عنابركم الضخمة بمثيلاتها، آلةٍ لن يلحظ أحدٌ غيابها، وسط أكوام مثيلاتها.

فليُعطنا كلٌّ منكما قاذفة قنابل واحدةً، يعدّها فنّيوكما تحفةً تقنيّةً، ولكنّها تُشيع الذعر في قلوب الجموع.

ثمن قاذفتَيْن سيمكّننا من توفير عقاقير كفيلةٍ بمعالجة جميع بُرْص العالم، وغالبًا بشفائهم.

قاذفة قنابل واحدةٌ تغيب عن عنابر الاتّحاد السوفييتيّ، وقاذفة قنابل تغيب من عنابر الولايات المتّحدة الأميركيّة، لا تحدثان فرقًا، ولن تخلخلا توازن القوى بين الدولتيْن الكبريَيْن...

إذا استمررتُما في التسلّح فسيموت شعباكما، وسنموت معكم، عبثًا، ولكن بجريرتكما، لا لأنّكما راغبان في القتل، بل لأنّكما لم تهتديا إلى السبيل القويم.

لا ريب أنّ تخلّي كلٍّ منكما عن قاذفةٍ واحدةٍ، لن يكون إلاّ خطوةً صغيرةً على درب نزع السلاح. ولكنّه سيمكّنكما من مواصلة الدرب، وربّما ستحثّكما فرحة هذه الخطوة على متابعة المسيرة... حتّى آخر قنبلة، وحتّى حالة البَرَص الأخيرة.

هذا ما وددتُ قوله لكما. وما تجرُّئي على هذا القول، إلاّ بدافع يقيني بأنّ لدى كلّ جانبٍ ملايين من البشر سيسعدون بما تحقّق.

والآن قرّرا القيام بما يمليه عليكما ضميركما، وقلبكما، وأنا سأظلّ أرجو.

يوم حربٍ من أجل السَلام

كان فولّيرو، في أواخر الحرب العالميّة الثانية، قد كتب، عام ١٩٤٤ إلى الرئيس الأميركيّ روزفلت:

« ذات يومٍ ستتوقّف هذه الحرب، مثلما تتوقّف جميع الحروب، من حيث كان يجب أن تبدأ، أي بالسلام. وفي ذلك اليوم، أقترح أن يمدّد جميع المقاتلين الإنفاق على الحرب، يومًا واحدًا، ولا يحاربوا. وحينئذٍ لن يفقدوا الحيلة في إيجاد المال اللازم ليوم حربٍ آخر، المال الذي مكّنكم من القتل على امتداد سنواتٍ، ولتظلّ الحرب تكلّف، في ذلك اليوم، ولكنّها لا تقتل ولا تدمّر.

ولتودع المليارات التي أُنقذت، في صندوقٍ مشتركٍ، من أجل الاشتراك في إعادة إعمار بعض الممتلكات التي تخصّ البشريّة جمعاء، وتشرّفها، والتي دمّرتها الحرب المأفونة سهوًا وعن غير قصدٍ.

وستكون تلك مناسبةً لأوّل تواصلٍ سلميٍّ بين الذين سيضطرّون غدًا إلى الاتّفاق، لأنّهم لم يستطيعوا أن يدمّروا بعضهم بعضًا، تدميرًا كاملاً.

سانحة أملٍ أُولى لشعوبكم بعد سنواتٍ قاتمةٍ وداميةٍ من الخيبات والقنوط ».

واستأنف فولّيرو معلّقًا:

« توقّعتُ ألاّ يكون لصوتي صدًى، ولكن لم يكن ذلك سببًا كافيًا كي أصمت. لن يبوح الكبار، يومًا، بحقيقة كلفة السباق إلى التسلّح كلّ سنةٍ. وهل هم يعرفونها معرفةً دقيقةً؟ وإذا هم عرفوا، ألا يخجلون من البوح بها؟ ومع ذلك هناك، دائمًا، صغارٌ يفشون الأسرار، ويميطون لنا اللثام عن تفاصيل متواضعةٍ، ويوضحون أنّ:

- تجربة صاروخٍ تكلّف ثلاثة مليارات فرنك.
- مجرّد صيانة قاعدة "كاپ كناڤيرال" يقتضي ثلاث مئة مليارٍ، يوميًّا

– قاذفة قنابل "لائقةٌ"، تكلّف سبعة ملياراتٍ

– وما نحن متأكّدون منه، اليوم، أنّ ميزانيّات الموت تتجاوز ألف مليار دولار.

مبلغٌ هائلٌ، ولا سيّما عندما نذكر أنّ خلال سنوات الحرب لم تقدّم الشعوب المتخمة سوى أربعة مليارات دولارٍ، من أجل إطعام الجياع.

وما على الفقراء إلاّ أن يدركوا ذلك، ويصبروا. فمن المتعذّر أن يُعَدّ للقضاء على العالم، وفي الآن عينه، منح وسائل البقاء، لمن نجوا من الفناء.

لا ريب أنّ أربعة مليارات دولارٍ للأكثر بؤسًا هو مبلغٌ زهيدٌ. والرئيس إيزنهاور نفسه، على غرار رؤساء آخرين، قد أنذر أنْ من أصل مليارين وثماني مئة ألف إنسانٍ يسكنون على الكرة الأرضيّة، ملياران منهم جياعٌ.

وإذا أحسنّا الحساب فهذا يعني أنّ كل معدةٍ فارغةٍ تنال دولارين في السنة. ومن المتعذّر أن يستطيع هذا المبلغ الزهيد إسكات جوعها.

هذه هي حضارتنا: ألف مليار دولارٍ للقتل، وأربعة مليارات للغوث. ألا ترون أنّ هناك إسرافًا من جانبٍ، وبخلاً في الجانب الآخر؟

إذن، إليكم اقتراحي:

فليتوقّف سباق التسلّح، يومًا في السنة، يومًا واحدًا. وفي ذلك اليوم فلتودِع جميع الدول، في صندوقٍ مشتركٍ، لصالح الفقراء، ما كان يُنفق، كلّ يومٍ آخر من ٣٦٤ يومًا على أعمال القتل والتدمير.

إنّ يوم تسلّحٍ يكلّف ألفًا وسبع مئة مليار فرنك.

إذن، لماذا لا تتحقّق هذه المبادرة لصالح الذين يحتلّون مكانةً طاغيةً في خطابات سادة العالم، وتصريحاتهم الغوغائيّة، ولا يحتلّون من قلوبهم سوى مساحةٍ ضيّقةٍ؟

أجل، أعلم أنّه لن يكون لندائي صدًى، في هذه النوبة أيضًا، ولكنّي سأستمرّ.

حتّى يحين يومٌ... ».

مئة فرنكٍ من أجل إنقاذ البُرْص مقابل كلّ مليون فرنكٍ، يُنفَق على قتل أبرياء

يعترف فولّيرو، بحزنٍ، أنّ كلّ نداءاته إلى كبار العالم قد تاهت وسط قعقعة السلاح، ويضيف: "بعد عشر سنواتٍ ذُهلتُ وانتفضتُ، عندما تنامى إلى علمي أنّ عشرة فرنكاتٍ في السنة، ثمن مادّة السّلفون، كفيلةٌ بشفاء أبرص من مرضه، وبانبعاثه من مأساته... ولو كانت جميع الدول كبيرها وصغيرها، كلّما ضحّت بمليونٍ على الحرب، قد أعطت مئةً لمعالجة البرص لكان عولج جميع بُرْص العالم. ومع ذلك لم يكن صمت الدول مبرّرًا لأن أخرس".

صحيحٌ أنّ توسّلاته إلى رئيسَي الدولتَيْن العظمَيَيْن لم تنفذ إلى ضمائرهما وقلوبهما. ومع ذلك لم يستسلم، ولم يتخلَّ عن تصميمه العنيد على قهر البَرَص. وربّما شعر بأنّ تضحية كلّ دولةٍ عظمى بثمن قاذفة قنابل كانت ثقيلة الهضم على معدتها، فقد وجّه عام ١٩٦٢ رسالةً إلى جميع رؤساء العالم، مطالبًا بتضحيةٍ زهيدةٍ، أسهل ابتلاعًا. جاء فيها:

« أتوجّه إلى قلب كلٍّ منكم. أنا إنسانٌ حسن النوايا، أواصل، منذ ثلاثين سنةً، وعلى مساحة العالم أجمع، معركةً شاقّةً، قاسيةً، وأخويّةً، في آنٍ واحدٍ.

لقد شختُ، ولكنّي ما برحتُ أومن بالطيبة. لذلك أتوجّه إلى جميع رؤساء الدول، ملتمسًا عفوًا عن خمسة عشر مليون مريضٍ، حُكِم عليهم بأدهى موتٍ، مع أنّ براءتهم لا تشوبها شائبةٌ. إنّهم البُرْص الذين يحقّ لي الذود عن حياضهم، بعد أن أنفقتُ عمري على محبّتهم.

إنّهم مصابون بعلّةٍ كانت، قديمًا، ملعونةً، وتبيّن، الآن، أنّها قابلةٌ للشفاء

التامّ، والدليل أنّ مليوني مصابٍ قد تحرّروا من علّتهم، ومن اللعنة التي كانت تواكبهم وترهقهم.

ولكن ما برح ملايين آخرون محرومين من العلاج والغوث، والمحبّة، وما زالت معركة البرص مستمرّةً.

وأنا بصفتي إنسانًا مثل كلّ كائنٍ يستحقّ تسمية الإنسان، يرعبه ويحزنه، هدر كنوزٍ هائلةٍ على أسلحة الموت، أقمتُ هذا الحساب:

لو منحت كلّ دولةٍ، كبيرةٍ وصغيرةٍ، مقابل كلّ مليون دولارٍ أنفقَتْه، عام ١٩٦٢ على التسلّح مئةَ دولارٍ من أجل معالجة البُرص، لكان عولج بُرْص العالم.

معادلةٌ بسيطةٌ، وتكاد تكون مضحكةً: "ألفٌ واحدٌ للشفاء، مقابل عشرة ملايين للقتل، فهل من يرفضها؟

وهل ستقدّمون للجميع هذه القدوة، وللبعض هذه العبرة؟

باستجابتكم لهذا النداء سيكون دويٌّ رَمْزٍ، وسيُشرع الطريق إلى تحويل أدوات موتٍ إلى أعمال حياةٍ ومحبّةٍ، يقوم عليها خلاص البشريّة جمعاء.

وفيما ثمّة من يتحرّزون ولا يبالون، ويؤثرون اللعب بالكرة في الأجواء العالية، سيجري العالم، بسرعة جرفٍ ثلجيٍّ نحو أدهى كارثةٍ في تاريخه.

لبضع سنواتٍ خلت كانت نسبة الجياع تبلغ خمسةً وثلاثين بالمئة من سكّان العالم، أي ثلث مجموع السكّان. وفي غضون عشر سنواتٍ، سترقى إلى ثلاثة أرباع مجموع السكّان.

أكرّر النداء: مئةٌ من أجل الشفاء مقابل مليون للقتل.

عظمة البلاد لا تُقاس بثرواتها، بل بقدرتها على المحبّة، وبكثافة هذه المحبّة.

وبتحقيقكم هذا التضامن البشريّ، ستعلنون أنّ لا حقّ لأيّ إنسانٍ أن يسعد بمفرده.

وحينئذٍ سيقول التاريخ من هم الكبار ».

نهاية القاذفات

أمسى إيزنهاور جنرالاً متقاعدًا، وتقاعد مالينكوف وخروتشيف بطريقةٍ أُخرى، وربّما، بعد خلعهم معطف السلطة، والمقتضيات السياسيّة التي جرّدتهم من إنسانيّتهم، ندموا لأنّهم لم يلبّوا التماس فولّيرو. وكانت دواعي ندمهم قاسيةً. ويقول فولّيرو، ساخرًا، إنّه قرأ في جريدةٍ هذا الإعلان:

« للبيع، بأسعارٍ مخفّضةٍ ٩٦ قاذفة قنابل هجوميّةٍ من طراز B-26، و١١٠ طائراتٍ نقل من طراز C-46، والدفع مُيسَّرٌ.

"هذا الإعلان صدر عن قاعدة "رايت پيسترسُن"، ونُشر في العديد من صحف العالم.

"فما قولكم؟ ألا يغريكم امتلاك قاذفة قنابل بسعرٍ زهيدٍ لا يتخطّى ألفًا وخمس مئة دولارٍ، أي شبه لا شيء. ويكفي دفع ٢٥% من المبلغ، عند تقديم طلبكم، كما لو كنتم تبتاعون مروحةً.

"أعترف أنّ ٩٦ قاذفة قنابل تجعلني أحلم. أنا لم أطلب سوى قاذفتين، كان ثمنهما كفيلاً بمعالجة جميع بُرْص العالم.

"آلتا قتلٍ من أجل إنقاذ خمسة عشر مليون إنسانٍ.

"ولم أتلقَّ جوابًا من أيّة جهةٍ، وها هم يعرضون للبيع ٩٦ قاذفةً، بسعر الخردة، وبدفعٍ مقسَّطٍ. ما أجمل هذا العرض!

"قد تكون بين القاذفات المعروضة الطائرتان اللتان طلبتُهما ولم أحصل على أيّةٍ منهما. ولكم كانتا قد أدخلتا إلى نفوس بُرْصنا من الآمال التي نادرًا ما تراود أذهانهم.

"كان بُرْصنا ينتظرون آلتين كبيرتين، وربّما خجولتين بجمالهما غير المتوافق

مع مهمّة القتل التي صُنِعتا من أجلها، ومع ذلك فخورتَيْن بتحوّلهما، بمشيئة "الكبيرَيْن"، أداةً لخلاصهم، ورمزًا أوّل للسلام.

"انتظَروا، وانتظرتُ معهم، وطال الانتظار؛ يئستُ، وظلّوا ينتظرون، وفي هذه الأثناء، شرعت الطائرتان تشيخان، بعد أن حُرمتا المصير الرائع، والقدرة على التحليق، وعلى القتل.

"وبانتظار إعلانٍ آخر يقول: حطام حضارةٍ للبيع. بسبب الإفلاس! ».

واستمرّ فولّيرو في نضاله، بدعمٍ من أقوالٍ تقطر عزاءً، وتثلج نفسه برؤية الثمار التي آتتها محبّته، مثل قول أبرص له: "حضورك يخفّف وطأة بؤسنا، لأنّه ينبئنا بمحبّتك لنا".

وكان راوول قد شاهد أبرصَين وصافحهما، في مركز علاجٍ، ثمّ التقاهما في الشارع، فاستوقفاه، وقالا له:

"أنت صافحتنا، والجنرال ديغول، صافحنا. وبذلك تأكّدنا أنّكما تحبّاننا".

وربّما كان من أعذب ما تلقّاه، رسالةٌ من شابٍّ، قال له فيها:

"فيك فهمنا ما هو الله".

وكان الدعم الأشدّ حفزًا على المضيّ قدمًا في معركته، تلك الغمامة من اللامرئيّين، التي واكبته، على دروب المحبّة. ومع أنّه لم يطمح، يومًا، بمكافأةٍ بشريّةٍ، فقد كانت تفعم نفسه غبطةً، أقوالٌ تعبّر، بعفويّةٍ، وتأثّرٍ، عمّا آتته محبّته وجهوده من ثمارٍ شهيّةٍ. فعلى سبيل المثال، لدى عودته إلى باريس من إحدى جولاته المسكونيّة، وجد في بريده رسالةً تخبره بأنّ فتاةً برصاء قبّلها في مطارٍ برازيليٍّ، قد طردت شدّةُ تأثّرها، النومَ عن جفنيها، فقد كانت قبلته لها هي القبلة الأولى التي تنالها في حياتها.

وجاء في رسالةٍ أُخرى تحمل طابع جزُر موريشيوس: "يومَ مـــرورك بمحجـــر البرص، أعلن المرضى عزوفهم عن غسل أيديهم طوال ذلك اليوم، حرصًا علـــى احتفاظهم بأثر يدٍ محبّةٍ، لم تخشَ مسّهم".

وكان الدافع الأقوى لعزيمته، شواهد على استجابة فقراء لنداءاته، وتضحيتهم بمقوّمات عيشهم، كي يقدّموا، ولو مبالغ هزيلةً لمن يساووهم أو يفوقوهم عـــوزًا وحرمانًا.

وقد جمع فولّيرو أمثلةً، ووثائق عن هذه التضحيات، في ملفٍّ، أزرق لون الغلاف، وكان حريصًا عليه، حرصَه على كنـــزٍ ثمينٍ.

الملفّ الأزرق

لطالما أعلن فولّيرو يقينه بأنّ "من حسن طالع الفقراء أنّ هناك إلى جانبهم فقراء (كرام النفس)... فعلى مدى أربعين سنةً، دافعتُ عن الفقراء، ومعهم، وبفضلهم، ومنهم جاءني القسط الأكبر من ثلاثة مليارات فرنك (قديم)، أنفقتُها على البُرْص وعلى قضيّتهم".

"ومن مبادراتهم المؤثّرة، والبطوليّة أحيانًا، استخلصتُ عِبَرًا خضَّتْ أعماق كياني، وستهدهد شيخوختي، وستظلّ حتّى آخر يومٍ في حياتي، محطّ عزائي، وفرحي، واعتزازي.

"فكيف يمكنني نسيان تلك المرأة الفقيرة التي أرسلت لي عشرة فرنكاتٍ (قديمةٍ)، مرفقةً برسالةٍ تقول: "أتمنّى أن يتّسع قلبي كي يحضن كلّ بؤس العالم".

"وتلك التي أرفقت تبرّعًا، أضأل من تبرّع سابقتها، برسالةٍ، هي كنزٌ فائق الثمن، قالت فيه: "لن أشعر بأنّي فقيرةٌ حقًّا، إلّا إذا حرمتُ نفسي من كلّ شيءٍ، ولم يبقَ لي ما أستطيع منحه".

وفي الملفّ الذي سمّاه فولّيرو "الملفّ الأزرق" نسبةً إلى لون غلافه حرص على جمع رسائل، وأكعاب أروماتٍ، مدوّنةً، غالبًا، بخطٍّ سيّئٍ ولكنّها تُفصِح عن أسمى ما في قلوب فقراء من نبل العطاء، وكرَم التضحية. كان "الملفّ الأزرق" كثيفًا، وكلّ مادّةٍ فيه تحتوي على كنزٍ. ولذلك فليعذرنا القرّاء، إذا أسهبنا في سرد نماذج منها، مع أنّها غيضٌ من فيضٍ:

- **أنا وحيدةٌ ومُقعدةٌ منذ عشرين سنةً، ولا مورد لي سوى تقاعد العمّال المسنّين، ومع ذلك، إليك ١٥٠ فرنكًا.**

- **عمري ٧٤ سنةً. وفي سبيل إكمال مقتضيات عيشي، إضافةً إلى تقاعد العمّال المسنّين، أقوم بأعمال غسل أواني الطعام، وإنّي أرسل لك أجري عن خمسين يومًا من هذا العمل الإضافيّ.**

- **من خطيبين: "أردنا أن تكون مبادرة حبّنا الأولى، رمزًا. ونأمل أن تتبعها أُخرياتٌ كثيراتٌ، فقد استعضنا عن الخواتم التقليديّة بحوالةٍ قدرها ألف فرنك، نرسله لك.**

والذين لا يملكون مالاً كانوا يقدّمون حُلًى: أيقوناتٍ من ذهبٍ، وخواتم زواجٍ قديمةً، طالما حرصوا على الاحتفاظ بها.

وفي هذا السياق يروي فولّيرو أنّه عقب تقديمه محاضرةً، في مدينة بولونيا الإيطاليّة، رأى رجلاً كان شلَل الأطفال قد فكّك مفاصله، يقدم صوبه، ويجمع عكّازيه في يده اليُسرى، وبيُمناه يفكّ سلسلةً تتدلّى منها مداليةٌ ذهبيّةٌ، ويودعها بين يديه، ولا يفوه بكلمةٍ، ثمّ يتوارى ليضيع في خضمّ الجموع.

– وروى فولّيرو حادثةً أُخرى، فقال: "جاء شابٌّ وجلس بقربي، وباح: "والدتي توفّيت منذ ثمانية عشر شهرًا، ولحق بها والدي في العام التالي. وبقيتُ أنا وحيدًا، لا أملك من حطام الدنيا سوى خاتمَي زواجهما. وها إنّي آتيك بهما". وكان يبكي، فقلتُ له: "احتفظ بهما فهما إرثٌ مقدّسٌ". ولكنّه رفض مؤكّدًا: "أثناء احتضار والدي، قال لي: "خذ خاتمي وخاتم أُمّك، وهبهما لراوول فولّيرو".

– أخرج رجلٌ من محفظة نقوده خاتمَيْ زواجٍ، وقال: "هذا الخاتم، أثخنهما هو خاتم عامل بناءٍ، وقد اهترأ". وأنا عندما أكون منهكًا، أتأمّل الخاتمين وأنتظر التقاء خطيبين في محجر بُرصٍ، أقدّمهما لهما، عسى أن يكونا خاتمي سعادتهما. وهما يزيّنان الآن إصبعَي أبرصَين يابانيّين، مشوّهتَين، في جزيرة "تاغاشيما".

وأَلِف فولّيرو ذكر هبات خواتم الزواج، في محاضراته، فانهالت عليه هذه الخواتم حتّى غدا لديه احتياطيٌّ زاخرٌ منها، وغدا، كلّما تنامى إليه خبر زواج أبرص وبرصاء في محجرٍ، يقدّم لهما خواتم مثقلةً بالرموز.

وتبيّن لفولّيرو أنّ الذين عانوا آلامًا كبيرةً، هم، غالبًا، الأشدّ تعاطفًا مع آلام الآخرين، كما تؤكّد هذه الرسالة:

"أُرسل إليك ألفَيْ فرنك، هي مدّخرات ابني الذي قضى جوعًا في "داخَاوْ".

وكتب كاهنٌ من ضواحي روما إلى فولّيرو:

"تحدّثتُ إلى أولادٍ عن عملك، فأعطوني تقادمهم التي نرجو منحها لبُرص محجرٍ في الكونغو، البلجيكيّة سابقًا، كي تشهد على غفراننا الأخويّ، عن شعبٍ، قتل ثلاثة عشر طيّارًا إيطاليًّا، في يومٍ أسود من شهر تشرين الثاني ١٩٦١، في منطقة Kivu.

لاحظ فولّيرو أنّ المصائب قد تكون دعوةً إلى تجاوز الذات، كما تـدلّ هـذه الرسالة:

"بدموعي أرجوك، تقبّلْ هذه الأوراق النقديّة، التي هي لنا ذخيرةٌ مقدّسةٌ، ففي الثامن عشر من شهر نيسان الفائت، قضى ابننا نحبه، في سنّ الثماني عشرة، في حادث جبلٍ عندما دُفن تحت ركامٍ جرفيٍّ، ولم يُعثَر عليه إلاّ بعد خمسة عشر يومًا. وكانت محفظته تحتوي على هذه الوُرَيْقات النقديّة التي أتلفها بقاؤها كلّ تلك المدّة في الثلج. ونحن نودّ إنقاذ بعض بُرْصٍ بها".

وكان معانون يهبون ما يساعد من يشاركونهم نظيرَ معاناتهم، مثل ذلك الـذي أرسل تقدمةً "من قِبَل أبرص من أجل إنقاذ أبرص". وآخر قـدّم مسـاعدته "إلى أبرص بُتِرت ساقاه، من قبل أبرص بُتِرت ساقاه حديثًا".

ولم يكن المقصودون بهذه التقادم هم المستفيدين الوحيدين منها. فالمقدّمون، أيضًا كانوا يغتنون بما يقدّمون، بدليل هذه الرسالة:

"إنّي خجلى بما أنفقتُه على عطلتي الصيفيّة، فاقبل مبلغ الخمسة وعشرين ألف فرنك". وأضافت: "المرأة التي تتناول طعامًا مفرطًا في غلاء ثمنه، فيما آخرون جائعون هي أنا، والمرأة التي تقدّم هدايا لمن يملكون، هي أنا!".

وهي التي ترجمت يقظة ضميرها بحوالةٍ سخيَّةٍ.

ولطالما أنقذت نداءات فولّيرو مصائر، كما تدلّ هذه الرسائل:

"أمام حزنٍ جسيمٍ، خطر لي أن أُنهي حياتي. ثمّ جالت ببالي آلام بُرْصك، فوطّنت العزم على مواصلة الكفاح مثلك".

واعترفت فتاةٌ: "لقد عزفت عن إرادة الموت، وعن معاقرة المخدّرات، وعزمتُ على الحياة كي أُعين الآخرين".

ولم يتخلّف الصغار عن امتطاء موجة السخاء، التي كانت نداءات فولّيرو تفجّرها. فعندما روى فولّيرو قصّة الفتى، ابن الثالثة عشرة، الذي طُرد من مدرسته لّما بدأت تظهر عليه أمارات البرَص، وأُودع في محجر بُرصٍ، فهوى إلى قعر اليأس، حتّى فقد القدرة على الكلام. فأخذته مادلين فولّيرو في حضنها، وهدهدته، وأنارت نفسه بالرجاء، ثمّ تولّت أمره راهبات "أدزوپـــي"، حتّى شُفي شفاءً كاملاً، وعاد إلى معهده، وكتب إلى فولّيرو قائلاً: "بفضلك تصدح الموسيقى في نفسي". وإثر اطّلاعه على هذه الرواية كتب طالبٌ باريسيٌّ: "أودّ مساعدة أخي الأسود هذا. ولكنّ أهلي فقراء، ولذلك جُلنا في الحقول، أنا ورفيقٌ لي، واقتطفنا زهورًا بعناها على قارعة الطريق العامّ. وها إنّي أُرسل لك ٣٨٠ فرنكًا من أجل "پـــيير".

وفتيانٌ آخرون كُثُرٌ، برهنوا عن طاقاتهم الخلاّقة، تضامنًا مع المحتاجين. فمنهم من باعوا ألبومات الطوابع التي جهدوا في جمعها، أو حرموا نفسهم من التبغ، والسينما، وغسلوا سيّاراتٍ، وقدّموا محاضراتٍ، ونظّموا معارض، وباعوا قصعات أرزٍّ للغداء، واستطاعوا تقديم مبالغ قيّمةً.

أغنياءٌ حقيقيّون

وقد ضمّ "الملفّ الأزرق" رسائل ممّن كان يدعوهم "الأغنياء الحقيقيّون"، فقراء مالٍ وأغنياء نفوسٍ، قدّموا ما به يعيشون، وقد اخترنا طائفةً من هذه الرسائل الموجزة، البسيطة، والزاخرة بأروع وأسمى ما في قلوب البشر من كنوز المحبّة:

- **أُرسل لك، من أجل البُرْص، خاتم زواجٍ، يحتلّ من نفسي موقعًا أثيرًا. إنّه خاتم زوجي المتوفّى منذ ١٨ سنةً. كنتُ حريصةً على الاحتفاظ به. ولكن حيال البؤس الذي تصفه شعرتُ بواجب مساعدتك على مواصلة عملك الرائع، الذي تضطلع به منذ زمنٍ طويلٍ.**
- **طلبَتْ منّي شقيقتي الراهبة أن أُرسل لك المبلغ الزهيد الناتج عن بيع شعرها، مساهمةً في عملك. وها قد أرسلته لك.**
- **هذه ٢٥٠ فرنكًا، بمناسبة مناولة ابنتي الأولى، عملاً بقولك: "لا يحقّ لأحدٍ أن يسعد بمفرده".**
- **أرجوك قبول هذه الجوهرة المتواضعة لصالح بُرْصِك. إنّها الجوهرة الأولى التي تلقّيتها. وكانت عندي بمثابة رائعة الروائع، وأحببتُها. ووضعتها في إصبعي للمرّة الأخيرة، قبل إيداعها في غمدها، وكانت عيناي مزدحمتين بالدموع. أُقدّم لك جزءًا من قلبي. ومع ذلك إنّها لا تساوي شيئًا، مقابل ما تغدقونه، أنت ومرسلوك الأعزّاء.**
- **من سجينةٍ في "پيروجيا" (إيطاليا)، ألف لير: تقدمة لمن هنّ أشدّ بؤسًا منّي.**
- **نحن عمّالٌ أرسلنا لك مئة فرنك. لم نستطع انتزاعها من رواتبنا التي لا تكفينا للعيش. فعملنا ساعاتٍ إضافيّةً، حتّى جمعنا هذا المبلغ.**

- ٤٧ فرنكًا من مجموعة عمّالٍ، سُرِّحوا من عملهم، ولكنّهم فكّروا بمن هم أشدّ بؤسًا منهم.
- ١٠٠ فرنك من عامل نسيجٍ، عمره ثمانون عامًا، اقتطعها من تعويضه التقاعديّ، دعمًا لعملك الرائع. بدأ العمل في سنّ الحادية عشرة، وواكبه البؤس سنين طويلةً، ويوجعه تقصير الأغنياء في مساعدتك.
- ١٠ فرنكات من خادمةٍ، خدمت طول حياتها، وخبرت البؤس. فالعمل لدى الآخرين لا يتيح حياةً فرحةً.
- لقد قام طلاّبنا بحملة جمع أوراقٍ عتيقةٍ، وأضافوا إليها جزءًا من مصروفهم الخاصّ، وبذلك تمكّنوا من جمع هذا المبلغ.

وقد تلفّظ تلميذٌ صغيرٌ في الصف السابع بهذه العبارة العذبة، مشيرًا إلى فولّيرو: "لم يحصل على طائرته، فسنقدّم له أوراقنا".

وقد وفّرت الأوراق العتيقة للبُرص خمسةً وأربعين ألف فرنك.

- هذه عشرة آلاف فرنك، تكريمًا لذكرى عاجزةٍ مريضةٍ، عانت آلامًا مريعةً، لكي تتقلّص مساحة الألم في العالم.
- سأبلغ، قريبًا، سنّ العشر سنواتٍ. وعمر أُختي سبع سنواتٍ. ونحن نعمل معًا، ونساعد أُمّنا على غسل الأطباق، وتنظيف البيت. وهي تكافئنا كلّما أحسنّا عملنا. وقد ربحنا ألف فرنك، ويسعدنا أن نرسل لك هذه الحوالة، علّها تساعد إسماع صوتك للعالم.
- ٥٠٠ فرنك من امرأةٍ عجوزٍ، عمرها ٨٨ سنةً، فقدت قدرة استخدام يديها. وحيدةٌ وحدةً كاملةً في الحياة بعد أن فقدت ابنها الوحيد.
- أُرسل لك، طيًّا، عشرة آلاف فرنك. عمري سبعٌ وسبعون سنةً، وإنّي أسأل الله أن يهبني قوّة القدرة على مواصلة عمل ساعةٍ ونصف الساعة في خدمة المنازل، من أجل تعويض هذا المبلغ. فأنا أعيش بتعويض العمّال

المتقاعدين، وهذه الساعة والنصف توفّر لي إضافةً صغيرةً تبلغ ١٥٠ فرنكًا، يوميًّا، لقاء غسل أطباق الطعام وأدواته.

- عمري ٧٤ سنةً، وأنا صمّاء. وأتمنّى القدرة على مواصلة العمل من أجل كسب ما يمكّنني من مساعدة أعمالك الخيريّة. شكرًا لله أنّني ما زلت أعمل كلّ يومٍ.
- بمناسبة يوم البرص العالميّ، حدّثنا أُستاذنا عن العمل الرائع الذي تقوم به لغوث مرضى البرص. وحدّثنا عن محاولتك الفاشلة مع رئيسَي الدولتين العظميَيْن. وحينئذٍ خطر لنا أن نقوم بما أحجم عنه الرئيسان القادران. وأخذنا من مخبأ نقودنا هذه الفلوس التي نقدّمها لك، من أعماق قلوبنا، من أجل مرضاك. ولعلّ جميع المدارس تحذو حذونا، وتسهّل مهمّتك. ويا له، حينئذٍ، من عنوانٍ رائعٍ: تلاميذ مدارس يتغلّبون على البرَص.
- ١٢٠٠ فرنك: اليوم يوافق ذكرى ميلاد صغيرنا فرنسوا الذي تُوفّي في سنّ التاسعة عشرة. لو كان بيننا لكنّا قدّمنا له هديّةً، ولتكبّدنا بعض نفقاتٍ احتفاءً به. تعويضًا عن ذلك نقدّم لك من أجل معالجة أبرص فقيرٍ.
- اسمه سيڤيران، وعمره ستّون عامًا. مهنته حمّالٌ في سوق الهال، ويُلقّب بـ "قبضاي الهال". ما الذي فعله؟ وهب دمه ثلاث مئة وخمسًا وخمسين مرّةً لمحتضرين، وأنقذهم من الموت. لقد أفرغ جسده من دمه، عشر مرّاتٍ من أجل الآخرين. وإذا هنّأه أحدٌ على سخائه، يُفاجأ، ويبدو عليه الضيق، ويعتذر متسائلاً: "أليس هذا واجبي؟"
- إليك خمسةً وعشرين فرنكًا، لأجل المسكينة التي بُتِرت ساقاها، من قِبَل امرأةٍ بُتِرت ساقاها مثلها، وهي مثلها فقيرةٌ. ولكن إن لم يساند بعضنا بعضًا، في البؤس، فما نفع أن نكون مسيحيّين؟
- إنّي مقعدةٌ، أعيش بما أُعطاه بمثابة تعويض عجزٍ، وبأعمال تصليح ثيابٍ. وبما أنّ ثمّة من هم أشدّ بؤسًا منّي، فهذه ثلاثون فرنكًا من أجل فقرائك.

- عمري ٧٨ سنةً، وأنا مشلولة الساقين. وهاك تقدمتي المتواضعة، كي أقتسمها مع إخوتي في الألم.
- أنا ماسونيٌّ، ومهنيٌّ بسيطٌ. ولكنّي شديد الإعجاب بك، وبجميع أمثالك الذين يتفانون لصالح البشريّة بلا تمييزٍ قائمٍ على الأجناس والآراء. لذلك كلّما تمكّنتُ سأُرسل لك تقدمةً، حتّى إذا كانت شديدة التواضع.
- أنا في مستشفى، وأتلقّى ١٥٠٠ فرنك كلّ ثلاثة أشهرٍ، وها إنّي أُرسل لك ٣٠٠ فرنك ادّخرتها، بانقطاعي عن التدخين.
- منذ سنةٍ أتلقّى نشرتكم، "رسالة فرنسا". ولطالما بكيتُ وأنا أطالعها. أُمّي وإخوتي في المستشفى. وأبي، في معظم الأيّام، معتلٌّ، ولا يعمل إلاّ بضعة أيّامٍ في الأُسبوع. ويومَ الأحد خدمت عشاءً، ونلتُ ٥٠٠ فرنك مكافأةً، أرسلها لك. مؤكّدٌ أنّ هذا المبلغ لن يساعدك كثيرًا، ولكنّي متيقّنٌ بأنّه سيسرّك.

وعلّق فولّيرو على هذه المبادرات المؤثّرة بقوله:

« تعلمون الآن لماذا سأواصل الكفاح حتّى غاية الشوط، وحتّى نهاية حياتي. ولن تفلح الشيخوخة التي حلّت بي باكرًا من إبطاء مسيرتي، وسأتحدّى التعب من إعاقتي، وسأظلّ أصيح طويلاً، وبصوتٍ عالٍ، بقدر ما يقتضيه الأمر من صوتٍ عالٍ ومن مثابرةٍ، وطالما ظلّ ممتهنو الصمَم، الذين يرتدون "السموكنغ"، من أجل إصلاح العالم، وينوّهون بالمجاعات الكبرى، وهم يتلذّذون بالحلويات الشهيّة، عازفين عن الإصغاء، والفهم، والاستجابة.

ففي قلبي تنبض ألوف القلوب.

وغدًا سأستأنف ترحالي.

"العالم كلّه على منضدتي. عالمٌ كان عالم شقاءٍ، وألمٍ، ولكنّه، اليوم، ينبض فرحًا لأنّه وُلِد على الفرح.

مثل أجراس الفصح تتنامى إليّ من كلّ جانبٍ أصداء أغانٍ وضحكاتٍ مدوّيةٍ. إنّهم بُرْصٌ يُنشدون ويضحكون.

يا إلهي هل كان ينقص هذا القليل من أجل تغيير كلّ شيءٍ؟

قلبٌ يخفق من أجل قلوبٍ أُخرى. وقلوبٌ عديدةٌ أَمست تواكبه... سجونٌ قديمةٌ أصبحت أماكن عيدٍ، وها إنّ اليأس يُطرَد ويُنفى، وبشرٌ يعودون بشرًا، ويسكبون اليوم دموع فرحٍ ».

وإثر تلقّيه إعاناتٍ من قومٍ منكوبين، ومع ذلك، من قعر عَوَزهم أعطوا جــزءًا من معيشتهم من أجل غوث البُرْص، قال:

« ها إنّكم تعرفون الآن سرّ قوّتي وفرحي.

كيف لا أكون سعيدًا، وكيف أَكلّ، وأنا أتلقّى، كلّ يومٍ، مثل هذه الرسائل، وهذه الدروس؟!

هل أرجو؟ لا، فأنا واثقٌ من أنّ البُرْصَ سيُعالَجون، وأنّ البَرَص سيُقهَر، وأنّ المحبّة ستنتصر، ذات يومٍ، على العنف والأنانيّة، وعلى المال.

ولن تكون، بعدُ، مجاعاتٌ، وأكواخٌ، وحروبٌ، ولا أولادٌ يفتقرون إلى الحبّ، ولا مسنّون بلا مأوًى، وغدا كلّ حيٍّ ينعم بحقّ الحياة، ولن يقبل أحدٌ بأن يسعد بمفرده ».

ولكن بقدر ما كانت هذه المبادرات تلهب قلبه فرحًا، وتسعّر حميّته على مواصلة النضال، كانت تستفزّه تظاهرات قومٍ، استبدّ بهم البطر والصلَف حتّى جرّداهم من كلّ ذرّة إنسانيّةٍ، فأمعنوا في نشر قحتهم، وخلوّ نفوسهم، على الملأ، وهم الذين نعتهم بالفقراء الحقيقيّين.

"السـيِّد ڤِنسَان"

قبل الخوض في موضوع "الفقراء الحقيقيّين"، لا بدّ من التنويه، أنّ، في معركـة المحبّة، لم يكن المال هو الوسيلة الوحيدة للإسهام في معركة المحبّة. وكـان فـولّيرو يحتفظ دائمًا، على مكتبه، برسمٍ لصديقه الممثّل والمخرج "پـيير فريسني" (Pierre Fresney).

كانا قد تعارفا بمحض الصدفة. فذات يومٍ كان رسول البُرص قد قدّم محاضرةً، في قاعةٍ سيّئة التدفئة، وكان البرد قارسًا، ونصف أماكنها فارغةً. وشقّ على إحدى المستمعات رؤية ضآلة نتيجة ما تكبّده فولّيرو في سبيل هذه المحاضرة. وجـال في خاطرها فيلم "السيّد ڤنسان"، الصادر حديثًا، والسيّد "پـيير فريسني" الذي أدّى صورةً مُقنِعةً لعملاق المحبّة، القدّيس ڤنسان دي پول"، فكتبت له، وحدّثته بحرارةٍ عن صديق الفقراء المعاصر الذي أصغت إليه قبل قليل.

بعد بضعة أيّامٍ، في نحو الساعة الثامنة ليلاً، وكان فولّيرو قـد لاذ إلى فراشـه، اتّقاءً للبرد القارس الذي أدّى تقنين التدفئة إلى مضاعفة قسوته، قُـرِع البـاب، فتساءل فولّيرو عمّن عسى أن يكون ذلك المزعج الطارق في مثل هذه السـاعة، وهذا الجوّ الزمهريريّ. ومع ذلك نهض وفتح الباب، ورغم شحّ الضـوء تعـرّف وجه من غزت شهرتُه فرنسا، بعد أن مثّل أبرع تمثيلٍ "عملاق المحبّة"، والذي بادره بالقول: ها قد جئتُ لأضع نفسي بخدمتك، إذا كان باستطاعتي أن أفيدك في شيءٍ. طبعًا بوسعي أن أوقّع حوالةً، ولكنَّ ضميري لن يسمح لي بأن أتملّص بهذه الطريقة، من واجبي. فكيف يمكنني أن أُساعدك؟". وكتب فولّيرو:

« مـن هـذ اللقـاء وُلـدت صـداقةٌ، وانعقـد تعـاونٌ منـتظمٌ ومسـكونيٌّ. فـپيير

فريسني" كان پروتستنتيًّا، غير أنّه دأب، منذئذٍ، على تسجيل نداءاتي، وذكرياتي، التي كان يتوِّجُها بصوته النابض تأثّرًا، بحيث كانت تُسمَع من خلاله خفقات قلبه. ونتج عن ذلك فيلمٌ باللغة الإنكليزيّة لإذاعة BBC، ثمّ فيلم "شجاعة المحبّة"، الذي بثّته جميع الإذاعات الناطقة بالفرنسيّة، في العالم أجمع. ولطالما أعاد "فريسني" تصوير مشهدٍ واحدٍ أكثر من عشر مرّاتٍ، قائلاً لم يصِلْ المشهد، تمامًا إلى ما ابتغيتُ إظهاره!" ».

يعلّق فولّيرو على هذه الإعادات بقوله: "أنا كنتُ منهكًا، ضائقًا ذرعًا، ومع ذلك مذهولاً".

ولم يكتفِ "فريسني" بإخراج الفيلم، بل لعب، أيضًا، دور المحامي عن أولئك الذين حُكِم عليهم ببَرَصٍ مؤبّدٍ، هاتفًا: "انظروا أيديهم، هذه الأيدي الملتَهَمة، المشوّهة، المريعة، الممدودة نحو رجلٍ يحبّهم... لقد تبنّى، هو وزوجته، منذ ثلاثين سنةً، هذه الأيدي المسكينة، حتّى اعترف أصحابها بفخرٍ: "نحن بشرٌ، فقد صافحونا".

فقراءٌ حقيقيّون: صَلَفٌ مجنونٌ، وهدرٌ مُجرمٌ

كانت تصدم فولّيرو، وتثير غيظه، إعلاناتٌ في الصحف تفضح اللامساواة الوقحة بين فقراء، ومدّعي الغنى، وهم فاقدو الشعور الإنسانيّ. وقد نشر بعضًا من هذه الإعلانات. نورد في ما يلي، نماذج منها:

في جريدةٍ واحدةٍ خبرٌ يقول: "يوجد في العالم ٣٨ مليون لاجئ.

ويليه خبرٌ آخر: "ببّغاء ترث عشرين ألف دولارٍ".

وفي صحيفةٍ أُخرى: "يوجد في العالم ١٥ مليون مشوّه حربٍ، ويليه: "شيّع ألفا شخصٍ تابوت كلبٍ".

وجنبًا إلى جنبٍ في صحيفة واحدة:

"أربع مئة مليون ولدٍ، في العالم يتضوّرون جوعًا".

يقابله: "أميركيٌّ خلّف ثلاثة ملايين دولارٍ، من أجل صيانة قبر فرسه".

وفي حين يموت أربع مئة مليون طفلٍ جوعًا، تستحمّ فتّانةٌ بمئتين وخمسين ليتر حليبٍ.

وفي حين يموت ملايين البشر بردًا، يتفنّن آخرون بتكييف حُجَر كلابهم.

ورد في "صحيفة جنيــف"، الصادرة بتاريخ ١٩٦١/٣/١١، أنّه بمناسبة حفلة كوكتيل الصحافة، المقامة في حديقة حيوانات "بازل"، تركت سيّدةٌ مسنّةٌ حوالةً بمبلغ ٥٥٥٧٧ فرنك سويسريٍّ لصغير غوريلاّ، من أجل بناء مقرٍّ جديدٍ للقِرَدة.

وفي إحدى الصحف:

"ملك بترولٍ، يُنفق ستّين مليون دولار، كي يعطي درسًا في البذخ، لأهل السينما، إنّه داڤيد ف. ملياردير تكساس، وأحد أغنى أصحاب حقول النفط في العالم، ومحطّم الأرقام القياسيّة في البذخ على عشاء رأس السنة، تكريمًا لزوجته

"جين"، وقد عدّ هذا المبلغ تافهًا، قياسًا للدرس الذي أعطاه في البذخ لأهل السينما. وقد أعلن باعتزازٍ: لقد أثبتت حفلة رأس السنة هذه أنّ أهل تكساس يستطيعون منافسة عظماء العالم".

وغاب عن ذهنه أنّه فيما كان ومدعوّوه يتلذّذون بعشائهم، كان أربع مئة مليون ولدٍ، في العالم يتضوّرون جوعًا.

ولكن لا بأس فقد أثبت داڤيد ف. أنّه من سادة العالم، ومن أقلّهم إنسانيّةً.

وفي صحيفةٍ، هذا الخبر: "توفّي حديثًا في مدينة "أشــڤيل (Acheville) بولاية كارولينا الشماليّة أغنى هرٍّ في الولايات المتّحدة، عن تسعة عشر عامًا، تاركًا ثروةً تبلغ ستّين ألف دولارٍ، كانت قد ورّثته إيّاها صاحبته المتوفّاة".

في هذه الأثناء، وفي كلّ ليلةٍ، سبعةُ أشخاصٍ من أصل كلّ عشرةٍ، ينامون على الطوى.

في مجلّة "تيْم"، الأميركيّة:

"يُقدَّر ما أنفقه الأميركيّون عام ١٩٥٧ على منتجات التجميل بأربعة مليارات دولارٍ. وفي صالونات "روبنشتين"، في شارع منهاتّن في نيويورك ٧٤٠٠٠ سيّدةٍ يحصلن على الاسترخاء والتدليك، وتصفيف الشعر، وأنّ قضاء نهارٍ كاملٍ في هذه الصالونات من أجل ترميم جلودهنّ الجافّة، واستعادة شيءٍ من الإغراء، يكلّف ألفًا ومئتي دولارٍ، في حين أنّ إعادة تكوين جلدٍ سليمٍ لأبرص، لا تُكلّف سوى عشرة فرنكاتٍ جديدةٍ، أي تكلفة دقيقة تجميلٍ في منهاتّن، ولا أحد من الأغنياء البطِرين يستغني عن هذه الفرنكات العشرة كي ينعم أبرص بجلدٍ جديدٍ.

وفيما السيّدات اللاواعيات، الصَلِفات، الوقحات، يسعَيْن وراء جمالٍ هاربٍ، يبقى ملايين البشر في العالم بلا عنايةٍ، ولا غوثٍ، ولا محبّةٍ.

ومع ذلك يريد العالم السلام!

واستمرَّت المعركة رغم الخيبات

لم تكن المعركة على البرَص سهلةً، بل اعترضتها طائفةٌ من العوائق الطبّيّة والإداريّة والاجتماعيّة.

طبّيًّا، كان الأطبّاء قد قدّروا عام ١٩٥٢، قدرتهم على اجتثاث داء البرَص، بحلول عام ١٩٨٠، ولكن سرعان ما تبيّن أنّ هذا التقدير كان مفرطًا في التفاؤل و"اليوطوبيّة". فبعد النتائج الأولى المبهرة، حدثت تراجعاتٌ، وأخفق السُلفون في شفاء العديد من البُرْص. واتّضح لفئةٍ من الأطبّاء ضرورة إضافة مضادّاتٍ حيويّةٍ إلى السلفون. وفولّيرو عينه أيقن أنّ اجتثاث الداء يستلزم لقاحًا، وأراد أن يكون هذا اللقاح عالميًّا، غير محصورٍ بجنسيّةٍ ولا بلغةٍ، ولا بدينٍ، ولا بسياسةٍ. وكان ذلك يستلزم استثماراتٍ باهظة الكلفة، ووقتًا طويلاً، وتعاونًا دوليًّا. ومع ذلك أطلق هذه الفكرة، لعلّها تحثّ العلماء، فيكبّون على البحث والإنتاج.

ومن العوائق التي أثّرت تأثيرًا بليغًا على سير المعركة وفاة صديق فولّيرو ومساعده العالِم الضليع، الدكتور "روشيه" (Rochet).

ومن العوائق الخطيرة هو إعراض مرضى كثُرٍ عن استخدام العلاجات. فكان لا بدّ من تثقيف المواطنين بشأن البَرَص، وربّما إكراه المصابين به على تناول العلاج.

ومن جانبٍ آخر كانت مواقف بعض رؤساء الدول غير متعاونةٍ، وقد أخذ بعضٌ منهم على فولّيرو سخاءه المفرط على البُرص، الذي كان يشجّعهم على التكاسل والبطالة، في حين يُغفِل فولّيرو مرضى آخرين مثل المقعدين والعميان، والمعاقين عقليًّا...

وإلى جانب كلّ تلك المعوّقات، أحزنت فولّيرو تجاوزاتٌ وفسادٌ، في مراكز كان قد أسّسها في دولٍ أفريقيّةٍ وآسيويّةٍ، وكان مسؤولون عنها يستخدمون المبالغ التي تأتيهم من أجل خدمة البرص لأغراضٍ أُخرى، أو كانوا يختلسون جزءًا منها، فكان يضطرّ إلى تصحيح الأخطاء، وسدّ الثغرات، وبذلك يهدر وقتًا ومالاً.

ومع ذلك، لم تتراخَ لفولّيرو عزيمةٌ، ولم يتهاون في السعي إلى المزيد من الإمكانيّات. فوجّه نداءاتٍ إلى عدّة جهاتٍ، ومنها ملوك البترول الراقدين على أكوام الذهب، وعلى حساباتٍ أُسطوريّةٍ في المصارف، والزاعمين بأنّهم يعيشون بأمنٍ، وحدَهم، بلا خوفٍ ولا تأنيب ضميرٍ.

فناشدهم:

« أيّها الملوك الجدُد، انتزعوا الجواهر التي تسدّ آذانكم، وأنصتوا إلى الناس المنتحبين، وهم، أيضًا ملايين، وهم مليون مرّةٍ، بشرٌ مثلكم.

"افتحوا عيونكم على بؤسهم، ووحدتهم، ويأسهم، واسخوا. أعطوا ساعة بترولٍ واحدةً، في السنة، من أجل جميع بُرص العالم، وأعطوا ساعَتَي بترولٍ لإخوتكم الذين فقدوا القدرة على مدّ أيديهم المجرّدة.

وحينئذٍ، ستكونون لهم أكثر من ملوكٍ، وأكثر بكثيرٍ من السلاطين المتسلّطين، ستكونون أصدقاء ».

وفي الواقع تلقّى فولّيرو جرعات عزاءٍ من بلدانٍ خارج أفريقيا. ففي اليابان تأسّس مركز علاجٍ للعناية بالبرص، وفي إيران أُسِّس مركزٌ بمبادرةٍ من الشاه، وزوجته فرح ديبا، التي كانت في صغرها قد استمعت إلى محاضرةٍ ألقاها فولّيرو في مدرستها، فتأثّرت بخطابه، ودعمت مشاريعه بمبالغ طائلةٍ.

وتتويجًا للجهود التي بذلها فولّيرو، وجّه رسالةً إلى الأمين العامّ للأمم المتّحدة، طالبه فيها بإصدار إعلانٍ عالميٍّ، عن حقوق البُرْص يتضمّن أربعة بنودٍ:

١- المصابون بالبرَص مرضى مثل سائر المرضى، يخضعون للقوانين العامّة وينعمون بحمايتها.

٢- لا يحقّ لأحدٍ التعدّي على حرّيّاتهم أو الحدّ منها بأيّة طريقةٍ، عندما يصابون بشكلٍ من أشكال البرَص غير المعدي.

٣- القاعدة العامّة تقتضي معالجتهم في مكان إقامتهم. وعندما يستلزم وضعُهم استشفاءً مؤقّتًا، ينبغي أن تتمّ معالجتهم في مؤسّسات طبٍّ عامٍّ أُسوةً بسائر المرضى. وتُخصّص للحالات المعدية أجنحةٌ خاصّةٌ، وينتهي عزلهم في اليوم عينه الذي يعدّه الطبيب مناسبًا.

٤- كلّ عملٍ تمييزيٍّ يؤدّي إلى منع المرضى الحاليّين أو السابقين من الحصول على عملٍ أو مسكنٍ، يلاحَق ويُعاقَب بالقانون. وكلّ إشارةٍ إلى وضعهم الحاليّ أو السابق، بدافعٍ خبيثٍ، يُعدّ قدحًا وذمًّا، ويُعاقَب على هذا الأساس.

غير أنّ الأُمم المتّحدة، خشيةَ أن يطالبها كلّ أصحاب داءٍ بإصدار إعلانٍ مماثلٍ، أعرضت عن الاستجابة لمطلبه.

وظلّ يواكب فولّيرو الشعور بأنّ اللقاح وحده كفيلٌ بتحقيق النصر الطبّيّ على مرضٍ دهريٍّ، وأراد أن يُنتَج اللقاح، بتعاونٍ دوليٍّ فلا يكون له لا جنسيّةٌ، ولا سياسةٌ، ولا دينٌ، وصرّح: "نحن حركةٌ وزخمٌ وُلِدا من رحم المحبّة، ويتقوّيان كلّ يومٍ بها. فلا نتحوّلنّ إلى وزارةٍ، ولا نسمح لإطاراتٍ تكبّلنا. ولا نغفلنّ أنّ كلّ ما يتمّ بمعزلٍ عن التطلّع إلى مَثَلٍ أعلى مصيرُه الانحطاط والتعفّن، عاجلاً أو آجلاً.

وفي هذه الأثناء كان تواصل الشفاءات وتكاثرها يثلجان صدر فولّيرو، وكان إكباب علماء العالم على اكتشاف لقاحٍ يقضي على البرَص، يُفعمُ قلبه رجاءً.

مسيرَة معركة البَرَص

كانت قصائد شباب فولّيرو قد عبّرت عن عميق ألمه من وجَع فئاتٍ واسعةٍ من البشر، وعن توقه الحارق إلى جوب العالم في سبيل تخفيف هـذه الآلام. فسابق الزمن من أجل تحقيق هذا الهدف، وألجأه خوفه الدائم من هدر الوقت إلى ركوب المخاطر، وإلى استخدام الطائرات التي كانت ما زالت في عهده، بدائيّةً مفتقرةً إلى معظم عوامل الأمان الأساسيّة.

وكان التقاؤه بمأساة البُرْص هو خبرته الأولى. فوطّن العزم على شنّ معركةٍ فريدةٍ من نوعها، ومتعدّدة الوجوه، للقضاء عليها، واجتثاثها من جذورها.

صحيحٌ أنّ أبطالاً كانوا قد سبقوه في هذا المضمار، وضحّى بعضٌ منهم بحياته في خدمة البُرص. وكان أبرزهم الأب القدّيس الشهيد "داميان". ولكنّ آفاقهم الجغرافيّة كانت محدودةً، مع أنّ مساحة الداء كانت شاسعةً جدًّا، ورحبة الانتشار، في القارّات. وكانت خدماتهم ضئيلة الجدوى، لأنّها لم تُعنَ بقضايا البرص الطبّيّة والعلاجيّة. فعكف فولّيرو على منع أسباب حدوثه، والحدّ من انتشاره، والقضاء على الأساليب المجرمة التي كان المجتمع، يُخضِع لها المصابين بالبرَص، ويَحكم عليهم بمرضٍ خطيرٍ ومُعدٍ، يستوجب نبذهم، وإقصاءهم، وحجزهم عن ذويهم، حؤولاً دون انتقال عدواهم إليهم وإلى الآخرين، وسلبهم حرّيّتهم وحقوقهم الإنسانيّة، حتّى بعد شفائهم.

وتميّز أسلوبه بالبحث الحثيث عن علاجٍ علميٍّ، جادٍّ، يمنع حدوث البرص، وانتشاره، ويساعد على الشفاء منه، وإلى انتشال المتعافين منه، من حكم البَرَص المؤبّد، الذي لا غفران له، ولا شفاعة به. فدأب على إيقاظ الضمائر، وإقناع المسؤولين، في كلّ بقاع العالم، بأنّ البَرَص لا يُفقِد المصاب به إنسانيّته. وأنّ الذي

شُفي منه، هو إنسانٌ مثل أيّ إنسانٍ سليمٍ يحقّ له العيش وسط بيته وأُسرته، ويحقّ له أن يعمل، ويكسب عيشه بجهده، وأن ينعم بمسؤوليّاته، وحرّيّته.

عام ١٩٣٣، التقى الطبيب الشهير "پـيير ريشيه" (P. Richet) الذي كان بالتعاون مع علماء آخرين توفّق في القضاء على أوبئةٍ ساريةٍ مثل داء النوم، قد وضع مشروعًا لمكافحة الأوبئة، تبنّته منظّمة الصحّة العالميّة، وسمّته "مشروع ريشيه". وحينئذٍ تجرّأ فولّيرو وأعلن: "إنّ القضاء على البَرَص ممكنٌ". ومضى في إثبات صحّة إعلانه، وقد دفعته قُدُمًا وبعزيمةٍ في هذا المنحى، مآسٍ مخزيةٌ، ومشاهد تفطّر القلوب، منها، على سبيل المثال، ولدٌ حَجَرته أُمّه في كوخٍ واقعٍ في ركنٍ من حديقة بيتها، بسبب إصابته بالبرص، وقد وُجد، بعد فترةٍ، وقد التهمت الجرذان نصف جسده، فمضى فولّيرو إلى كلّ مكانٍ كي يوقظ الضمائر، منعًا لانتشار مثل هذه المآسي.

وكان يفعل كلّ ما يستطيع إليه سبيلاً بصبرٍ، وتصميمٍ وأناةٍ، غير مستعجلٍ رؤية ثمار جهوده، مطمئنًّا إلى أدائه واجبه، وموكلاً النتائج لله.

وعام ١٩٤٨، غمرت السعادة نفسه، عندما اختبر علماء في الهند وفي فرنسا، وفي "كايينّ" (Cayenne)، مفعول السلفون الإيجابيّ، على معالجة البَرَص. ولكن لم يجرؤ أحدٌ، في تلك المرحلة، على إثبات هذا الواقع رسميًّا، حتّى مطلع شهر أيّار ١٩٥٠، عندما قام الدكتور "مونتستروك" (Montestruc)، مدير معهد پـستور في "فور دي فرنس" (Fort de France) في المارتينيك، برحلةٍ اجتاز، أثناءها، ثلاثين ألف كيلومترٍ، واستغرقت ستّين يومًا، مستصحبًا أبرص نال شفاءً تامًّا باستعمال السلفون، وقدّمه لـ "متشرّد المحبّة"، "الرجل الذي يُقبّل البُرص"، كي يثبّت رجاءه، ويؤكّد قدرة العلم والمحبّة على قهر البرص، فتوهّج ذهنه أملاً، وهتف: "أنا إنسانٌ سعيدٌ!".

ومنذئذٍ، لم يعد فولّيرو يقتصر على معانقة البُرص وتقبيلهم، وعلى إعتاقهم من

وحدهم النفسيّة، ومن انهيارهم وقنوطهم. بل انطلق يزفّ لهم البشرى ويتولّى الدعاوة للسلفون، ويسعى إلى دمج البُرْص بمجتمعٍ طالما سامهم القمع والظلم والقسوة، مؤكّدًا أنّ الحضارة الحقّة هي تبادل المحبّة.

ولكي يوفّر الأموال الطائلة اللازمة لخوض معركته إلى النجاح، ومع مقته للتقنيات القاتلة لم يتردّد عن استخدام التقنيات المحرِّرة والمحيِيَة: الأسطوانة، والإذاعة، والفيلم، من أجل غوث جميع بُرْص العالم، والترحال المستمرّ من المرتينيك إلى الـڤيتنام، ومن الـڤيتنام إلى باريس وتاهيتي مستجديًا الكبار والصغار، الأغنياء والفقراء مستنبطًا أساليب لم تخطر ببال سواه.

عندما تهاوت قواه، كان يخطب، أحيانًا، وهو جالسٌ، وفجأةً يهتف: "لا أُطيق الجلوس"، فينتصب واقفًا، جاهدًا في استعادة عنفوانه، ويرتسم القلق على وجه زوجته.

لم يكن يستكين لراحةٍ أو لنقاهةٍ. فبُرصٌ كثيرون ما زالوا بحاجةٍ إليه، وهو لا يقوى إلاّ على الاستجابة لنداءاتهم الصامتة، فيطير إليهم، حاملاً علاجاتٍ مستحدثةً، وأفكارًا مبتكرةً، ومشاريع طريفةً، تؤتي حصادًا وفيرًا. ولطالما باح: "لا أستطيع اجتياز كيلومترٍ واحدٍ سيرًا على قدميّ، ومع ذلك، ما زلت أجتاز مئة ألف كيلومترٍ، كلّ سنةٍ، بوسائل نقلٍ مختلفةٍ". ثمّ يتساءل بحزنٍ:

"ولكن حتّى متى؟".

وقد أوجز فولّيرو مسيرة كفاحه، فكتب:

« من المرجّح أنّ مرض الجذام سيبقى إلى أمدٍ طويلٍ. إنّما لا يجوز، بعد الآن، أن يبقى أحدٌ موسومًا بعار البَرَص الأبديّ. فمَن في العالم، ما زال يجهل أو يتجاهل هاتين الحقيقتَيْن الثوريّتَيْن (ويا لها من ثورةٍ مباركةٍ ورائعةٍ) اللتين مكّنتانا من تعقّب عدوٍّ رهيبٍ، ومن القضاء عليه، ومن التيقّن أنّ البَرَص مرَضٌ ضعيف العدوى، وقابلٌ للشفاء، وأنّ المصابين بالبرص هم مرضى مثل سائر المرضى، وهم بشرٌ مثل الآخرين.

لقد انتصرتْ معركتنا على الخوف الأحمق، وعلى الجبن الحقير، وعلى الأنانيّة المدمّرة، وأزالت، إلى الأبد، أُسطورة البَرَص المستعصي، والميؤوس منه. ولن يكون، بعد الآن، إنسانٌ مقضيٌّ عليه ببرصٍ مؤبّدٍ، ومنفيٌّ، ومنبوذٌ، ما عدا حالاتٍ نادرةٍ.

وكيف لي أن أُغفِل فضل مَن كانت لي محبّتهم الراسخة، وبطولتهم مصدر قوّةٍ وفرحٍ! ففي إثر الأب داميان، عبّدت لي دروبي الأولى، شجاعةُ المرسلين وحنانهم. وكان الأطبّاء، باكتشافهم السلفونات، وتطويرها، قد حكموا بالموت على داء البرَص.

وبقيت مهمّة تحرير المريض، وبثّه الثقة، لكي يعلن عن نفسه، ويخرج من مخبئه، ومن يأسه. وكان لا بدّ، عند شفائه، من اعتباره إنسانًا كسائر البشر، إنسانًا محترمًا، معتزًّا بمسؤوليّته ».

ويضيف فولّيرو:

« خمسين مرّةً، غادرتُ مطارَي أورلي، والبورجيه، بحقائب مترعةٍ أدويةً، وبقلبٍ مليءٍ شجاعةً وأملاً. وخمسين مرّةً عدتُ بأيدٍ فارغةٍ، وبقلبٍ قلقٍ، ولكنّه يفيض فرحًا..

"يعلم أصدقائي القُدامى أنّني كنتُ أتسلّق درجات سلّم الطائرة، أربعًا أربعًا. وفي الآونة الأخيرة صرتُ أحتاج إلى أن أُحمَل حملاً إلى مقعدي في الطائرة. والآن لا أستطيع اجتياز كيلومترٍ واحدٍ سيرًا على قدميّ. ومع ذلك ما زلت أجتاز مئة ألف كيلومترٍ، كلّ سنةٍ، بوسائل نقلٍ مختلفةٍ.

"ولكن حتّى متى؟

"لقد أنفقتُ وقتًا طويلاً مسافرًا، ولا أجرؤ على إبطاء وتيرة مسيرتي من أجل النظر إلى الوراء، واستعادة أنفاسي وقواي. كنتُ أخشى سيطرة السنّ والمرض. وها قد حلاّ بي، كلاهما.

"ويحقّ لي، بل من واجبي أن أُعلن ما يثبته كلّ ما تحقّق: فمعكم، وبفضلكم

حقّقنا أروع نصرٍ في العالم، نصرٍ لم يُفضِ إلى وفاة خمسة عشر مليون حيٍّ، بل إلى بعثِ خمسة عشر مليون حيٍّ ميتٍ، إلى حياةٍ جديدةٍ.

"وسأواصل المعركة طالما ظلّ قلبي ينبض. سأستمرّ، لأنّ طلائع الذين انضمّوا إليّ، مقتنعين بنبل المعركة التي أقودها، والذين أغدقوا عليّ مساعدتهم ومحبّتهم، والتزموا، دائمًا، بالصمت والكتمان، والاندفاع، هم أصحاب الفضل في إحراز النصر في معركةٍ، كانت، جوهريًّا، معركة المحبّة وانتصارها.

"وما كنت سوى الناطق باسمها وباسمهم، ورسولاً لها ولهم. وما البُرْص الحقيقيّون إلاّ الأغنياء الرازحون تحت ضغوط أهواءٍ جامحةٍ، ورغباتٍ لا عهد لها بشبعٍ، ولا يكفّون يشكون ولا يعرفون للعطاء معنًى، ولا يعتزّون إلاّ بفسقهم القاتل ».

وقد لخّص فولّيرو ملحمة كفاحه، ببوْحٍ مؤثّرٍ، جاء فيه:

« خمسين مرةً غادرتُ مطارَيْ "أورلي" و"ليبروجيه" (le Bourget)، وفي صدري تخفق أُلوف القلوب، قلوب صغارٍ، وقلوب بائسين. كنتُ سفير فقراء إلى فقراء. وها إنّي، في هذا المساء، في هذا الغسق الذي يغشى، وئيدًا، مكتبي وحياتي، أُهديهم جهودي، وأُقدّم لهم، تكريمًا، كلّ فرحٍ تمكّنتُ من إعطائه. ربّما كانت العبرة الكبرى التي استخلصتُها من معركة البَرَص، أكثر من مرضى شفوا، وحيواتٍ أُنقِذت، وبشرٍ تحرّروا، هي الحقيقة التي طالما أعلنتها: لا شيءَ يتحقّق بمعزلٍ عن المحبّة. ومع المحبّة، لا شيء يستحيل.

"وقد تعلّمتُ، أيضًا، أنّ الإنسان، ولو كان، في البدء، وحيدًا، إذا أعمل مِعوَله في اتّجاهٍ واحدٍ، دائبًا على تصميمه، وعناده متحاشيًا عن كلّ انحرافٍ أو تحوّلٍ، وإذا واصل جهده كلّ يومٍ، بلا استثناءٍ ولا تخاذلٍ، وعيناه شاخصتان صوب الهدف المقصود، وإذا هو استمرّ يحفر، كلّ يومٍ، سواءٌ كانت التربة صخريّةً أو خزفيّةً، فسينتهي، بلا محالةٍ، إلى شقّ طريقٍ.

"هذه هي الشهادة التي أودّ أن أُسجّلها ».

"قفزةٌ جبّارةٌ تحقّقت، في غضون سنواتٍ معدوداتٍ، ونسفت أسطورة لعنة البرَص، وادّعاء اللعنة الإلهيّة، والداء الذي لا يؤمَل منه شفاءٌ. وقد اعترفت منظّمة الصحّة العالميّة بمحدوديّة عدواه، وبالقدرة على شفائه. وتحوّلت محاجر العار والمذلّة إلى مستوصفات علاجٍ، وسقط حكم البرَص المؤبّد، واستعاد البُرْص الذين نالوا الشفاء كرامتهم المسلوبة، وحرّيّتهم وحقّهم في الاندماج مجدّدًا بالمجتمع، كالسابق، وفي عملٍ يوفّر لهم عيشًا كريمًا ».

وبالإجمال، تحقّقت معجزة انتصار معركتنا على البرَص، بتواطؤ المحبّة مع العلم، وتكاتفهما. وأضرمت محبّة فولّيرو الجيّاشة الباسلة سخاء ملايين البسطاء والفقراء، أكثر ممّا أثارت سخاء الأغنياء وأهل السلطة، واستنهضت اندفاع رجال العلم إلى تطوير العلاج حتّى تمكينه من اجتثاث جذور الداء، ودفنه إلى الأبد.

عام ١٩٥٢، جاء في رسالةٍ وجّهها فولّيرو إلى الأُمم المتّحدة:

« ليست قضيّة البَرَص، اليوم، قضيّةً طبّيّةً، بل هي، خاصّةً، قضيّةٌ إنسانيّةٌ... ولا بدّ من إقرار هل نرضى أو لا نرضى بأن يُعدّ ملايين البشر المرضى الأبرياء، لصوصًا، ويُحكَم عليهم بالنفي، والنبذ، وبالموت ذلاًّ، وبؤسًا؟

"ثمّة صمتٌ يُعَد تواطؤًا ».

وعام ١٩٥٣، أطلق هذه الصرخة:

« لا، لا يمكن أن تستمرّ هذه الحال! هذا غير ممكنٍ، وإلاّ كُفّوا عن الجهر بأنّنا في القرن العشرين من العهد المسيحيّ، وبادّعاء السلام، والحرّيّة، والإخاء، والديمقراطيّة. إنّي خجلٌ، خجلٌ.

"خجلٌ لأنّي آكل بشهيّةٍ، ولأنّ نومي خالٍ من الكوابيس، في حين أنّ ملايين البشر يحتضرون، ويتعفّنون في أشنع وحدةٍ. فلنثُر، أيّها الأصدقاء، ولنهتف بقوّةٍ وطويلاً، بقدر ما يلزم من قوّةٍ، وطول وقتٍ... وسيضطرّ الضمير العالميّ

إلى الاستيقاظ من قيلولته، وسيصغي إلينا، أخيرًا، القوم الغارقون في سعادةٍ رهيبةٍ ».

أثناء انعقاد اليوم العالميّ للبرص، كان سفراء فرنسا في العالم يرسلون، كلّ سنةٍ، تقارير عن مساهمتهم في ذلك اليوم، من خلال بثّ ندائه، بصوت فولّيرو بالفرنسيّة أو مترجمًا إلى لغة البلاد التي يمثّلون فيها فرنسا، وينشرون نداءه في صحفهم.

وكم من شهاداتٍ مجيدةٍ عن مأثرة فولّيرو، والثورة التي أشعلها، في ميدان مكافحة البَرَص، محطّمًا أوهامًا وحواجز، وباعثًا قياماتٍ، ومنعشًا آمالاً.

وقد جعلت هذه الثورة البروفسّور "مونتستروك" مدير معهد "پستور"، في المرتينيك، والملقّب بقاهر البَرَص، والذي بمناسبة اليوم العالميّ السابع للبَرَص، ذكّر بالدقائق التي لا تُنسى، التي وسمت ختام مؤتمرٍ عن البرص في توكيو، وقال:

« ظُهر يوم ١٩٥٨/١١/١٩، كُلّف الدكتور "داڤي" النيجريّ، أمين عامّ المؤتمر بتلخيص كلّ المستجدّات العلميّة التي وردت في مداخلات المؤتمر، وختم خطابه بتقرير اللجنة الفنّيّة حول الجوانب الاجتماعيّة للبَرَص. وأعرب عن أسفه لأنّ المختصّين بداء البَرَص هم رجال علمٍ، وقليلاً ما يهتمّون بالجانب الاجتماعيّ للداء، مع أنّهم يكافحون الداء بشراسةٍ، وثباتٍ وإيمانٍ راسخٍ ».

واتّضح تأثير مداخلة راوول فولّيرو، في اليوم السابع، عندما هتف أمين عامّ المؤتمر: "فلنقف جميعنا إلى جانب راوول فولّيرو، لكي ننتصر في المعركة على البرَص!". وأصدى لهتافه ترحيبٌ حماسيٌّ مدوٍّ.

وأروع ما أسفر عنه ذلك المؤتمر هو أنّ علماء البَرَص العالميّين قد رحّبوا براوول فولّيرو، مع أنّه ليس طبيبًا، ولا عالمًا مثلهم. وأدركوا، بغتةً، شأن الجانب الاجتماعيّ، إلى جانب علم المناعة، والبكتيريا والوباء في معالجة الجذام. فقد أقنع

فولّيرو الجميع أنّ المصاب بداء البَرَص لا يحتاج فقط إلى علاجٍ بل يحتاج، أيضًا، إلى العطف والمحبّة، والحقوق الإنسانيّة الأساسيّة.

تلك هي مأثرة فولّيرو الكبرى التي أهّلته لتقدير ملايين المرضى الذين سيظلّون يدينون بفضله، ويحملونه في أذهانهم وفي قلوبهم.

ولم يتوقّف فضل فولّيرو عند هذا الإنجاز، ولا بدّ من التنويه بالغوث المادّيّ الذي قدّمه للمصابين بالجذام على شكل مالٍ، وأدويةٍ، ووسائل نقلٍ من كلّ صنفٍ، من الدرّاجة الهوائيّة، حتّى السيّارات رباعيّة الدفع، التي تمكّن من المضيّ إلى أيّ مكانٍ يستدعي غوث مرضى. ناهيك عن تزويده أماكن الصلاة والمشافي بآلات الأرغن، وبعارضات أفلامٍ، وأدوات تسليةٍ توفّر متعةً للمرضى. وبالإجمال، لم يغفل أيّ شيءٍ، يفيد بإدخال الفرح إلى قلوب المرضى. وهو خليقٌ بأن يكون للمتطوّعين في سبيل إغاثة العالم الثالث مثالاً يُحتذى.

حصَاد المعركة

في مقدّمة كتابه: "معركةٌ تختلف عن سائر المعارك"، كتب فولّيرو ما يصلح أن يكون إيجازًا لحصاد المعركة:

« معركةٌ مختلفةٌ عن كلّ المعارك.
"فهي لم تحصد حيواتٍ، بل أنقذت حيواتٍ،
"ولم تكن انتصاراتها أولادًا ينتحبون فوق قبورٍ،
"بل بشرًا عدّهم المجتمع ملعونين، ونَبَذهم، وأمسوا يعملون وهم يغنّون.
"كانت معركةً طويلةً، ولكنّها قاسيةٌ وصعبةٌ.
"كانت معركةً على الجهل والخوف والجبن.
"وفي سبيلها ناشدتُ بلا طائلٍ، السلطة والمال،
"والتمستُ: "أعطوني ثمن قاذفتَي قنابل، فأعالج جميع بُرْص العالم".
"ولكن لم تستجب لي سوى المحبّة،
"والمحبّة هي التي انتصرت ».

لقد أنزلت معركة فولّيرو على البَرَص ضربةً قاضيةً على خرافة كون البرص مرضًا ميؤوسًا من شفائه، ولعنةً إلهيّةً، ومحت دمغة "أبرص" الأبديّة، التي كانت تسم كلّ من أُصيب بهذا الداء. وسمحت لأبناء البُرْص أن يغشوا المدارس شرط أن يُراقَبوا، ويتناولوا علاجًا وقائيًّا.

وفتحت المستشفيات أبوابها للبُرْص، واعتبرتهم مرضى أُسوةً بسائر المرضى.

وآتت معركة فولّيرو نتيجةً مزدوجةً: قهر الخوف الموروث من البَرَص، وإعادة الكرامة والحقوق الإنسانيّة للبُرْص.

وإلى جانب ذلك أضحى فولّيرو خير مثالٍ للّذين كرّسوا حياهم من أجل خدمة البرص: أطبّاء، ومرسلين، كهنةً وعلمانيّين، الذين وفّر لهم الوسائل المادّيّـة، كـي تكون خدمتهم أفضل وأجدى.

وقد اعترف ممثّلوا ثلاث عشرة دولةً في أفريقيا أنّ ستّين بالمئة من بُرْصهم قد نعموا بالشفاء التامّ، وأنّ عشرين بالمئة منهم يسلكون درب الشفاء، بفضل فولّيرو.

ومع ذلك، لم تنتهِ المعركة، ولم يفقد البَرَص كلّ قدراته الوبيلة، في حالاتٍ عديدةٍ. ولم يكشف العلم كلّ أسرار هذا المرض، ولم تتوقّق الأبحاث العلميّة، بعدُ، إلى اكتشاف اللقاح القاتل للبَرَص، في بعض الحالات.

وما انفكّ فولّيرو يأمل في القضاء على البرَص قضاءً مبرمًا.

وبالإجمال، سجّل انتصار معركته على آلاف السنين من الرعب الذي يوحيه البَرَص في تاريخ البشريّة، انتصارًا شبيهًا بالانتصار على العبوديّة. وأعاد الاعتبار لقرنٍ دمغته القنبلة الذرّيّة بميسم العار الناريّ.

وكان فولّيرو، بمناسبة اليوم العالميّ للبَرَص الرابع عشر، قد صرّح:

« لم نربح معركة البَرَص، في كلّ مكانٍ، ولكنّنا واثقون من ربحها. وها إنّ خمسة ملايين أبرص قد نالوا شفاءً تامًّا، وهم شهودٌ أحياءٌ على ثقتي بالنصر الحاسم ».

وهتف فولّيرو بغصّةٍ:

« آه، لو استجاب لندائي عام ١٩٥٤ رئيسا الدولتيْن الكبريَيْن، وأعطانا كلٌّ منهما قاذفة قنابل، لكنّا عالجنا جميع بُرْص العالم! وما عساهما يفكّران اليوم وهما يقضيان تقاعدًا كئيبًا، وقد أصبحا إنسانين عاديَّيْن؟

"معركتنا مستمرّةٌ، والنصر ينتظرنا في نهاية المطاف ».

وقد كتب الجنرال "ڤيغان" (Weygand)، عضو الأكّاديميّة الفرنسيّة:

"قيل لنا إنّ راوول فولّيرو قد وزّع ملياراتٍ على الفقراء. هذا رائعٌ، ولكنّه ليس هو كلّ شيءٍ، ولا هو الجوهريّ. فما يميّزه، وما سيبقى، هو كونه مثال حياةٍ وُهِبت بكاملها للأكثر إهمالاً، من البشر، وتطلّعه بشغفٍ إلى تحقيق مأثرة عدلٍ وحبٍّ كبرى. لقد واكبه هوى الانتصار في معركته على البرص، وعلى جهلنا وأنانيّتنا. وقد فرض ذاته، بجرأته ومتانة إيمانه، أكثر ممّا فرضها بكفاءاته ».

لقد أثبت فولّيرو أنّ الحضارة الخاوية من المحبّة ليست سوى وكر حشراتٍ. وبما أنّ كلّ بؤس العالم كان يهصر قلبه، ويحثّه على مكافحته، فقد وطّن العزم على مواصلة الكفاح على كلّ أنواع البَرَص: الحرب والجوع، والأكواخ، والبؤس، فهي مئة مرّةٍ أشدّ فتكًا، وقتلاً، وقد شنّ حربًا على كلّ أصناف البَرَص الجسديّ والنفسيّ، ومن أجل البشر أجمعين، وبسلاح المحبّة فقط.

وكان فولّيرو، بمناسبة اليوم العالميّ الخامس عشر، عام ١٩٦٨، قد أطلق هذا النداء:

« ليست معركتنا على البرَص، سوى الفصل الأوّل من هذه المعركة الكبرى التي يتوجّب على جميعنا، أيًّا كنّا، وأيًّا كان منشؤنا، شنّها على جميع أصناف البرَص الحقيقيّة، الأشدّ عدوى من البَرص الجسديّ، وهي الجوع، والفقر، والأنانيّة، والجبْن.

"من خلال خدمتنا للمصابين بالجذام، تعلّمنا كيف نهاجم هذه الأمراض ونكافحها ونقهرها.

"ويما أنّنا استطعنا الإسهام في تحرير جموعٍ من البشر المنهارين، الملعونين، ظلمًا، البائسين، لمَ لا نستطيع، غدًا، إضرام نيران حروبٍ أُخرى، بحجم أوصاب الكون.

"فلنهبّ لمصارعة هذه الأوبئة التي سيقوى العالم عليها، إذا اقتضت المحبّة ذلك.

"فالمحبّة ستنقذ العالم ».

الفصل الخامس

حربٌ على كلّ أصناف البَرَص

« الحبّ الحقيقيّ لا ينضب أبدًا، فبقدر ما تعطي تزداد قدرةً على العطاء. وإذا استَقَيتَ من النبع الحقيقيّ فهو يزداد فيضًا وسخاءً، بقدر ما يُنهَل منه »

« خيرٌ من محاولة اجتثاث الشرّ، مضاعفة الخير »

"أنطوان دي سانت إكسوپيري"

القنبلة الذرّيّة أو المحبّة

« فلتُطلق الشعوب كلّها نحو حكوماتها، لا رجاءً، بل أمرًا باختيارٍ نهائيٍّ بين الجحيم والعقل »

"ألبير كامو"

قال فولّيرو: "بعد معركة البَرَص، يجب أن نشنّ حربًا على كلّ أصناف البَرَص وفي طليعتها الحروب. فالحرب، في ذاتها هي إنكارٌ لسلطة العقل، ومُثيرةٌ لأسوأ الشهوات، وأحقر الغرائز التي تتغذّى بها".

ووصف فولّيرو عبثيّة الحرب بحدودٍ قائمةٍ بين دولتَيْن، يقف على كلّ جانبٍ منهما رجال أمنٍ، وعلى جانبي الحدود الأشجار عينها، والجوّ واحدٌ، والناس يتحادثون فوق الحدود، ويتصافحون، إلى أن يحين يومٌ يُلبسهم حكّامهم أزياءً خاصّةً، زرقاء هنا، وحمراء هناك، ويأمرونهم بالاقتتال.

ويتساءل فولّيرو: "ماذا فعلنا بهذا القرن العشرين من العهد المسيحيّ، ويجيب: ١٠٣ حروبٍ، يعني أكثر من أيّ قرنٍ في تاريخ البشريّة. وقد أوقعت الحرب الأخيرة مئة ألف جثّةِ شابٍّ لم يكونوا يطمحون إلاّ في العيش، والعمل، والحبّ.

وكانت حصيلة الحرب العالميّة الثانية:

- ٣٢ مليون جنديٍّ وضابطٍ قُتِلوا على ساحة الوغى.
- ٢٩٦٥٠ ألف جنديٍّ وضابطٍ جُرِحوا وشُوّهوا.
- ١٧ مليون امرأةٍ، وولدٍ، ومسنٍّ قُتِلوا قصفًا بالقنابل.

- ٢١٢٤٥ ألف منكوبٍ ١٠٠%، فقدوا كلّ شيءٍ.
- ٤٥ مليون شخصٍ اعتُقِلوا، ومعظمهم قضوا نحبهم في المعتقلات.
- ٣٠ مليون جريحٍ ومُشوَّهٍ.
- ٣٥٠ ألف سُمِّموا بالغاز أو أُحرِقوا، أو اغتيلوا.
- ١٥ مليون مشرّدٍ، معرَّضين للمجاعة والأوبئة.
- مليون يتيمٍ.
- ٢٥٠ ألف بناءٍ حكوميٍّ مدمّرٍ.
- مئة ألف كيلومتر خطوطٍ حديديّةٍ مدمّرَةٍ.
- عشرة آلاف جسرٍ مدمّرٍ.
- مليون مسكنٍ مدمّرٍ.

وكانت الطامّة الكبرى، وقمّة الإبهار القنبلة الذرّيّة التي أُلقيت، يوم السادس من شهر آب على مدينة هيروشيما اليابانيّة، فبخّرت، في ومضة برقٍ، ٧٨١٥٠ إنسانٍ. وسياسيّو اليوم يسعون إلى تطوير دمية هيروشيما هذه، وإلى إنتاج قنبلةٍ هيدروجينيّةٍ، تفوق ألف مرّةٍ قدرة القنبلة الذرّيّة التدميريّة.

وقد علّق خروتشيف عن قدرة هذه القنبلة المتقدّمة: "بعد ستّين ساعةً من إلقائها سيسقط بين ٥٠٠ و٧٠٠ مليون ضحيّةٍ، أي بمعدّل مئةٍ وستّين ألف قتيلٍ في الدقيقة". وأكّد هذه المعلومات الرئيس جونسون أمام الكونغرس الأميركيّ.

يا له من إنجاز رائعٍ!

وسيمضي إنكار العقل شوطًا إلى الأمام. فالتقدّم الموجّه نحو الشرّ سيصبح آلة قتلٍ. ففي روسيّا نال عالمٌ جائزة ستالين مكافأةً على اختراعه سُمًّا صاعقًا، تكفي مئة غرامٍ منه لقتل مئة ألف إنسانٍ، في غضون بضع ساعاتٍ.

هذه الفظائع المريعة دفعت فولّيرو، عام ١٩٤٩ إلى شنّ حملةٍ شعارها "المحبّة أو الزوال"، وإلى إطلاقه نداءً عنوانه "القنبلة الذرّيّة، أو المحبّة"، جاء فيه:

« الأمر أصبح واضحًا: إمّا أن يتعلّم الناس المحبّة أو أن يزولوا. فوحدها المحبّة كفيلةٌ بإزالة القنبلة الذرّيّة من قلب البشر. وكما أنّ الانفجار النوويّ يُحدث سلسلةً من ردود الفعل، وتدمّر ذرّةٌ ذرّةً أُخرى، وكلّ ذرّةٍ تدمّر التي تليها، محدثةً سلسلةً لا نهاية لها من الإفناء، كذلك هي المحبّة، فمبادرة إخاءٍ تنتج فرحًا يولّد أفراحًا جديدةً، وتنتظم سلسلةٌ لا نهاية لها من السعادة. فالخيار هو بين القنبلة الذرّيّة والمحبّة، سلسلة محبّةٍ أو سلسلة موتٍ.

"يجب الخيار، في الحال، وللأبد ».

هذا النداء تُرجِم إلى خمسة عشرة لغةً، ووُزِّعت منه مئات ألوف النسخ، وشرَحه رسول السلام، من خلال محاضراتٍ كان من مستمعيها الكردينال "رونكالي" الذي سيصبح البابا يوحنّا الثالث والعشرين، صاحب رسالة "السلام على الأرض".

واستشهد فولّيرو بقول تيّار دي شاردان: "سيتفجّر العالم إن لم يتعلّم المحبّة. إنّ مستقبل العالم المفكِّر مرتبطٌ ارتباطًا عضويًّا بتحوّل قوى البغض إلى قوى محبّةٍ، فالحبّ هو الطاقة الكونيّة الأوفر شمولاً مسكونيًّا، وعظمةً، وسموًّا".

وقد تبنّى نداء فولّيرو العديد من شخصيّات العالم فعلى سبيل المثال، قالت الملكة إليزابيت الثانية، عام ١٩٥٧: "يحدّثنا العلماء عن سلسلة تفاعلاتٍ. فيجب أن يُطبّق هذا المبدأ على أعظم الطاقات: طاقة حبّنا للآخرين".

وقال نهرو، رئيس الحكومة الهنديّة: "على العالم أن يختار بين رسالة بوذا أو القنبلة الهيدروجينيّة".

وقدّر فولّيرو أنّ ثمن قاذفة قنابل يكفي لبناء ٧٥ مستشفًى، يحتوي كلٌّ منها ألف سريرٍ، وثلاثين كلّيّةً لألف طالبٍ، أو لشراء خمسين ألف جرّارٍ زراعيٍّ، وأنّ ثمن حاملة طائرات واحدةً يكفي لإطعام أربع مئة ألف شخصٍ، مدى سنةٍ كاملةٍ.

وما انفكّ يردّد دعوته إلى:

- الحدّ من عدد الدبّابات الهجوميّة من أجل المزيد من المحاريث.
- الحدّ من قاذفات القنابل، من أجل المزيد من المستشفيات.
- الحدّ من القنابل، من أجل مزيدٍ من الخبز.

"ألقوا الأسلحة لكي تحبّوا، واقتسموا لكي تحبّوا،
وسيُنقَذ كلّ شيءٍ، عندما تُنقَذ المحبّة".

وكان من الجليّ أنّ الحكومات تستسهل توفير المليارات من أجل القتل والتدمير، وتقبض يدها، عندما يُطلب منها وقف نسبةٍ ضئيلةٍ من هذه المليارات على شفاء مرضى، وإصلاح ما هدّمته حروبهم، ومواساة قلوبٍ مفجوعةٍ، وإسكات المِعَد الخاوية.

وبعد أن كان قد أطلق، سدًى، حملة قاذفتَي القنابل، أطلق حملة "يوم حربٍ من أجل السلام"، وأوكل إلى شبيبة العالم، المضيّ بها، بلا هوادةٍ، حتّى إزعاج المسؤولين عن الأُمم المتّحدة.

حملة "يوم حربٍ من أجل السَلام"

بما أنّ "الكبار" لم يستجيبوا، توجّه فولّيرو، عام ١٩٦٤، إلى الأُمم المتّحدة عبر أمينها العامّ مذكّرًا برسالته إلى روزڤيلت، عام ١٩٢٤، طالبًا منه اقتطاع كلفة يوم حربٍ، في السنة من أجل إعادة الثروة العالميّة التي دُمِّرت.

وفي عام ١٩٥٤ كان فولّيرو قد بعث برسالة إلى رئيسَي الدولتَيْن الكبريَيْن، وأعاد الكرّة عام ١٩٥٥، ولم يتلقَّ من أيٍّ منهما ردًّا. وفي عام ١٩٦٢، وجّه رسالةً إلى جميع رؤساء العالم، فلقيت المصير عينه، فكتب:

« إعراض جميعهم عن الاستجابة، لا يبرّر صمتي، ولا اعتباري أنّ ألفاظ الجوع، والفقر، والإخاء، لم تعُد تعني شيئًا في الاجتماعات الدوليّة.

"ولذلك، مرّةً أُخرى – ولا ريب أنّها ليست الأخيرة – أتوجّه إلى ضمير جميع القوى الكبرى، وإلى قلوب جميع الشعوب. أتوجّه إليكم بثقةٍ متجذّرةٍ بفضل وجودكم، لأنّكم تنتمون إلى قارّةٍ حيث الجوع، والفقر، والبؤس، لا تحتاج إلى تعلّمها في المدرسة، ولأنّ كثيرين منكم يعلمونها بالولادة.

"هذه هي أمنيّتي، وهذه صورةٌ عمّا صرّحتُ به، لعشرين سنةً خلَتْ:

"فلتقرّر جميع الدول المنتمية إلى الأُمم المتّحدة، بمناسبة يوم السلام العالميّ اقتطاع من ميزانيّاتها ما يكلّفها يوم تسلّحٍ في السنة، ولتُودِعه في صندوقٍ مشتركٍ من أجل مكافحة المجاعات، والأكواخ، والأوبئة الكبرى، الكفيلة بالقضاء على البشريّة، وسيكون شعاركم: "يوم حربٍ واحدٍ من أجل السلام".

"ربّما يظنّ بعضكم أنّني لست كثير الاقتضاء. غير أنّ عمليّة تحويل أسلحة الموت، إلى عامل حياةٍ، ستكون مبادرةً مدوّيةً، قادرةً على بدء خلاص بشريّةٍ مكبّلة اليدين، مكمومة الفاه، تشهد، عاجزةً، انتحارها الذاتيّ.

"عام ١٩٥٩ بعثتُ برسائل إلى خروتشيف، وإيزنهاور، قائلاً: "إذا مضيتم قدُمًا في التسلّح، فستموتون، وسنموت جميعنا معكم من أجل لا شيء، بسببكم، في حين أنّ لا أحد منكما راغبٌ في القتل، بل لأنّكما لم تهتديا إلى سبيلٍ يجنّبكما هذا المصير.

وها إنّي أدلّكم على وسيلةٍ، متواضعةٍ، ولكنّها ستفتح باب رجاءٍ صغيرًا.

"أوقفوا التسلّح لكي تستطيعوا ممارسة المحبّة، هذا ما أريد قوله، بصوتكم، للأمم المتّحدة. وأنا متأكّدٌ أنّ في جميع البلدان التي تضمّها الأُمم المتّحدة، ملايين البشر الذين سيسعدون بمعرفة ما قلتُه.

فلتقرّر كلّ دولةٍ العمل بما يُمليه عليها ضميرها، وسواءٌ إن هي استجابت لهذا النداء، أو ظلّت متماديةً في اللامبالاة، سيذكر العالم موقفها، ولن تنجو من حكمه.

"وأنا مقيمٌ على رجائي ».

وفي نفس النهار أطلق فولّيرو نداءً إلى شبيبة العالم أجمع بمئات النسخ وبلغاتٍ عديدةٍ، جاء فيه:

« ندائي هذا، وحده، سيتعرّض مرّةً أخرى، إلى الإهمال، وإلى التيه بين طبقات مبنى الأُمم المتّحدة، وإلى السُّبات، من مكتبٍ إلى مكتبٍ، إلى أن ينتهي على غرار سابقيه، في متاهات برج بابل الحديث الذي طالما كان مقبرة الكثير من الآمال.

"ولكن إذا واكبت صوتي مئات ألوف الأصوات الشابّة، الملتهبة، والمُصمّمة، والتي تأبى أن تختنق، وترفض الصمت وتعتبره إهانةً، فحينئذٍ، عوضًا عن قول متطوّعي الصمت: "هو، أيضًا!"، سيتساءلون: "ها هم الآن، أيضًا، هؤلاء المنبرون للهجوم على منع المسؤولين من النوم، حتّى يؤدّوا الحساب، وحينئذٍ لن يعود لهم بدٌّ من الإصغاء إليكم، لأنّكم ستكونون أنتم، غدًا، الكبار.

"فاكتبوا، في الحال إلى نيويورك، جماعاتٍ من عشرة شُبّانٍ، ووقّعوا البطاقات التي تؤكّد تصميمكم.

"وعندما يتلقّى من يستطيعون، ومن يتوجّب عليهم الاستجابة آلافًا إثر آلافٍ من بطاقاتكم، الشاهدة على مطالب إرادتكم الشابّة، سيتبنّونها، أخيرًا، في كلّ طبقات منظّمة الأُمم المتّحدة. فلْنُغْرِقْ، إذن بنداءاتنا مكاتبهم وبيروقراطيّتهم، ولْنكرِهْهُم على إنهاء العبث بحياتكم.

"إنّ عالم اليوم يصغي إلى ثلاث سلطاتٍ ويحترمها: العدد، والقوّة، والمال. فاربطوا قوّة عددكم لا بقاطرة المال الفاسد، ولا بخدمة القوّة العشواء، بل قفوها على خدمة المحبّة المشرقة.

"فالمحبّة هي الحقيقة الوحيدة. أعرضوا، إذن، عن الاسترخاء، والاستسلام، وعن السعي إلى الربح، والاستكانة للخنوع، بل أكبّوا على البناء، والدفاع، والإضاءة، ولا تكتفوا بالعيش، بل استحقّوه.

"حيال عبثيّة الأسلحة، وفي مواجهة هذيان الحقد، قضيتُ أفضل سنواتي العشرين، كي أحميكم، وها قد حان وقت دفاعكم عن ذواتكم.

"وقد أعددت بطاقاتٍ، بكلّ اللغات العالميّة (ومنها العربيّة، واليابانيّة، الروسيّة، والصينيّة)، ووضعتها، مجّانًا بتصرّف الشبّان الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والعشرين سنةً. وهي مرقّمةٌ، وتتألّف من قسمين، أحدهما يتّسع لعشرة تواقيع، قسمٌ منها يرسل مباشرةً إلى الأُمم المتّحدة، أمّا القسم الآخر (الأرومة) فيعود إليّ، ويمكّنني من مراقبةٍ يوميّةٍ لأعداد التواقيع التي استلمها "يو ثانت" (U Thant)، وأتبيّن مصادرها الجغرافيّة ».

وقد أطلع فولّيرو رؤساء الدول، والسلطات الدينيّة المختلفة وجميع المسؤولين عن الشبيبة، على رسالته إلى الأُمم المتّحدة، من خلال نشرته التي وزّع منها آلاف النسخ.

وردّ عليه رؤساء دولٍ كثيرون معبّرين عن تشجيعهم، وتضامنهم، وواعدين بدعمه، من خلال الإيعاز إلى ممثّليهم في الأُمم المتّحدة بمساندة اقتراحه، حين مناقشته فيها.

وسرعان ما عبّرت الشبيبة العالميّة عن اندفاعها، وانهمرت الطلبات على البطاقات. وفي كانون الأوّل، أي في أقلّ من ثلاثة أشهرٍ من بدء الحملة، كان أربعةٌ وتسعون ألفًا ومئتان وثمانون شابًّا، من خمسةٍ وخمسين بلدًا قد وقّعوا، وأعلنوا:

« نحن شبّانٌ تتراواح أعمارهم بين ١٤ وعشرين سنةً، نتبنّى نداء "يوم حربٍ من أجل السلام"، الموجّه من راوول فولّيرو إلى منظّمة الأُمم المتّحدة، ونلتزم باستخدام حقوقنا المدنيّة والسياسيّة، من أجل إنجاحه ».

وأغرقوا المنظّمة الدوليّة بطوفان بطاقاتهم الموقّعة.

في الرابع من تمّوز عام ١٩٦٤، استقبل البابا بولس السادس راوول فولّيرو استقبالاً خاصًّا، واطّلع منه على عرضٍ مشروعه، "يوم حربٍ من أجل السلام". وفي الخامس من كانون الأوّل من العام نفسه، وكانت قد انقضت ثلاثة أشهرٍ على بدء الحملة، أعلن الحبر الأعظم، من مدينة بومباي الهنديّة:

« نرجو أن توقف الأُمم المتّحدة السباق إلى التسلّح، وتكرّس مواردها وطاقاتها لمساعدةٍ أخويّةٍ تُغيث البلدان الساعية إلى النهوض والازدهار. على كلّ دولةٍ متحرّرةٍ من نزعة الإضرار والحرب، وراغبةٍ في السلام، أن تقف ولو جزءًا من نفقاتها العسكريّة، لتغذية صندوقٍ عالميٍّ، بغية حلّ العديد من القضايا التي تواجهها حشودٌ من "المفتقرين إلى غذاءٍ، وكساءٍ، ومسكنٍ، وعنايةٍ طبّيّةٍ ».

وكأنّ نداءَه كان صدًى لنداء فولّيرو.

وفي الخامس عشر من كانون الثاني ١٩٦٥، كان أربع مئة ألف شابٍّ، منتمين

إلى ٧١ بلدًا، قد وقّعوا عريضة فولّيرو، فكتب فولّيرو: "مثل طوفانٍ مباركٍ وخيِّرٍ، تغزو البطاقات منظّمة الأُمم المتّحدة، مقتحمةً بيتها الكبير. بلدانٌ بأكملها تتأهّب، وشبيبتها في وضع استنفارٍ. أربع مئة ألف توقيعٍ نتيجةٌ جيّدةٌ، ولكنّها ليست سوى بدايةٍ صغيرةٍ.

وناشد الشبّان: "ضاعفوا جهودكم، استنفروا جميع الشبّان الذين تتراوح أعمارهم بين ١٤ و٢٠ سنةً، الذين يمكنكم الاتّصال بهم، وأطلعوهم، ولكن لا تفرضوا عليهم شيئًا. فالمطلوب ألاّ يوقّعوا تشبُّهًا بالآخرين، بل فقط، عندما يكونون مقتنعين، مستنكرين، وعازمين، بما أنّ هذه المناسبة، الفريدة حتّى الآن، متاحةٌ لهم كي يُسمعوا صوتهم، وقول "لا" للبغض، والبؤس، والموت. ولنعمل حتّى نحرم المسؤولين النوم".

في الأوّل من تشرين الثاني ١٩٦٥، كان عدد التواقيع قد ارتقى إلى مليون توقيعٍ. فكتب فولّيرو إلى الشبّان، شاكرًا، مشجّعًا:

« أرومات بطاقاتكم الواردة إليّ من أكثر من مئة بلدٍ، غزت مكتبي وبيتي، وكلّ مكانٍ عندي، لست أرى سواها، وأنحني، وأنا أتأمّلها. أمّا الأُمم المتّحدة فلديها البطاقات عينها. ومع أنّ مكاتبها أرحب من مكاتبي، فهل تحتلّ فيها مكانًا، وفي كلّ يومٍ تُضاف إليها آلاف البطاقات إلى تواقيعكم، وسيستمرّ هذا التدفّق بقدر ما تريدون، وستظلّون صامدين بقدر ما يقتضي الأمر.

"أصواتٌ قويّةٌ وقديرةٌ واكبت هذه الحملة، وأكسبتها نبلاً. ربّما ظنّ الممعنون في الكِبَر والسطوة، أنّكم ستملّون ذات يومٍ. ولكنّ ظنّهم سيخيب، فما أضرمتموه ليس لهيب قشٍّ، بل حريقٌ جسيمٌ.

"تابعوا ولا تتراخوا، تشبّثوا ولا تستسلموا، وسيضطرّ العالم إلى الإصغاء إليكم فأنتم العدد وأنتم المستقبل، ولن تُقهَروا.

"أنتم مليون شابٍّ استجبتم لندائي، فشكرًا. لقد كنتُ بحاجةٍ إلى حضوركم والآن تيقّنتُ أنّني كنت على حقٍّ.

"وفي صدري الهَرِمِ سينبض، بعد الآن، مليون قلبٍ فتيٍّ ».

وتقاطرت على فولّيرو آلاف الرسائل من طلاّبٍ وطالباتٍ، ومن آبائهم، شاكرين له ما أحدثه فيهم من تحوّلاتٍ سلوكيّةٍ، وما أحدثتها فيهم حملته، وكتبُه التي فتحت لهم آفاقًا جديدةً، وأعطت لوجودهم معنًى. وحتّى إن لم تؤدِّ الحملة إلى نتائج باهرةٍ إلاّ أنّها تكون قد تركت على مصير شبابٍ كثُرٍ، آثارًا خصبةً دائمةً.

واستمرّ شبّانٌ يمطرونه برسائل تتضمّن مثل هذه الأقوال المنعشة:

"في حملتك على جميع أصناف البرَص، نحن معك بكلّ قلوبنا. شبيبة العالم أجمع إلى جانبك، تريد أن تحبّ معك، لا تخشَ الجهر بما تؤمن به، فملايين الأصوات الصغيرة، جاهزةٌ لدعمك".

وقد جاء في رسالةٍ من طالبٍ: "اخترتَ الإيمان والرجاء، فيما كُثُرٌ استسلموا وفقدوا الإيمان بالطيبة والإخاء. في مواجهة كلّ الصعاب، واصل رسالتك بعزيمةٍ. إنّي على يقينٍ بأنّ ملايين القلوب الفتيّة، تخفق على وقع قلبك، بقناعةٍ مطلقةٍ أنّ المحبّة ستتغلّب، أخيرًا، على البغض".

وتحت ضغط هؤلاء الفتيان استجاب ٦٦٠٠٠٠ شابٍّ إيطاليٍّ، ومئة ألف شابٍّ بلجيكيٍّ، وانبرى نوّابٌ لدعم المعركة. ففي إيطاليا قدّم نائب مدينة بولونيا، يوم ١٩ نيسان، إلى برلمان بلاده مشروع إقرار "يوم حربٍ من أجل السلام"، وشاركه في التوقيع ١٣٧ زميلاً له. وكذلك فعل نائب بروكسيل في بلجيكا.

وكتب فولّيرو مشجّعًا:

« كنتُ واثقًا بكم، واثقًا بأنّكم ستُسمعون صوتكم. هل انتهت المعركة؟ لا فهذه مجرّد بدايةٍ، وستكون المعركة أسهل. إنّ هذه المبادرة متواضعةٌ، ولكنّها رمزٌ متألّقٌ: العطاء من أجل سعادة الجميع وخلاصهم: إعطاء يومٍ من ميزانيّة الدفاع من أجل السلام.

"استمرّوا في قصف منظّمة الأُمم المتّحدة ببطاقاتكم.

"وتيقّنوا أنّ مبادرتكم أمست مفيدةً أكثر من أيّ وقتٍ كان. وإذا نفذت ذخائركم (البطاقات) فأخبرونا، ففي معركة السلام والمحبّة نحن تجّار القذائف.

"لا تفعلوا ذلك إرضاءً لي، أو فضولاً، لمعرفة النتائج، بل، فقط إذا أردتم فعله بكلّ قوّتكم، وبكلّ قلبكم... إنّ ما أطلبه منكم الآن هو خطيرٌ جدًّا، وعظيمٌ جدًّا. وقد يكون حاسمًا لمصير البشريّة المفتقرة إلى شعلة المحبّة.

"فإذا آمنتم مثل إيماني، فلا تتلكّأوا، ولا تتردّدوا، ولا تيأسوا. فبإيمانكم ستُغنون العالم، وغدًا ستضمنون خلاصه ».

في تشرين الثاني ١٩٦٨، لاحت أمارات النصر، بفضل الإصرار على مواصلة المعركة، عندما طرح مندوبو خمسة عشر دولةً، على الأُمم المتّحدة بحث قرار "يوم حربٍ من أجل السلام". وكانت مداخلاتٌ لأربعةٍ وعشرين مندوبًا، أيّد ١٨ منهم المشروع بلا تحفّظٍ، فيما طالب آخرون بتصويتٍ ونقاشٍ، واقترح الأربعة الكبار رغبتهم في مهلة تفكيرٍ وقرّروا بالإجماع أن يُسجَّل هذا المشروع في جدول أعمال الجلسة العامّة القادمة التي ستُعقد في خريف ١٩٦٩.

وناشد فولّيرو شبّان العالم بتكثيف النضال، داعيًا:

« حاصروهم، اغزوهم، أزعجوهم بصيحاتكم حتّى لا يظلّوا صامتين. أنتم مليونان. فاكتبوا إلى الأُمم المتّحدة، حتّى تخرجوهم عن صمتهم. مليونان منكم أرسلوا بطاقاتهم إلى المنظّمة. عليكم أن تكونوا ثلاثة ملايين قبل نهاية السنة ».

وقد ارتقى عددهم، فعلاً، إلى ثلاثة ملايين من **١٢٥** بلدًا، في خريف **١٩٦٩**. وهل من يأبى سماع ثلاثة ملايين صوتٍ فتيٍّ تهدر معًا؟.

وكتب فولّيرو: "إذا استجابت الأُمم المتّحدة، فسنبتهج، وإذا رفضت الاستجابة، هذه المرّة أيضًا، فسنستمرّ، في هذا العالم المكبّل بأنانيّته وكراهيته، وستبقون أنتم أبواب الرجاء.

وإن كانت ثلاثة ملايين صرخة شبابٍ غير كافيةٍ للتأثير، ففي غضون ستّة أشهرٍ، أو سنةٍ، أو خمس سنواتٍ سنكون أربعة ملايين، أو خمسةً، أو عشرة ملايين. وسنملك الوسائل الضروريّة لأنّنا نملك ما يلزمنا من إيمانٍ، ولن يُسكتنا أحدٌ. وفي كلّ جلسةٍ من جلساتها ستجرّ الأُمم المتّحدة معها هذه القذيفة التي ستزداد ضخامةً، وثقلاً، ولن تتخلّص منها، إلاّ عندما ستستجيب للنداء الأكثر صوابًا وعدلاً".

وقال فولّيرو: "كنتُ قد كتبتُ عام **١٩٤٩**، إن لم يَخُضّ زخمُ المحبّة الضميرَ البشريّ، فسيُسرّع الجوع نهاية العالم".

وبعد عشرين سنةً، أعلن "يوثانت"، أمين عامّ منظّمة الأُمم المتّحدة: "ربّما ما زالت لدينا مهلة عشر سنواتٍ لكي نحلّ المشاكل التي تهدّد بقاء العالم، فجوع البشريّة هو نهاية العالم".

نجاحٌ أوّل

سُجِّل اقتراح "يوم حربٍ من أجل السلام"، على جدول أعمال اللجنة الثانية للأُمم المتّحدة، في ٢٨ تشرين الأوّل ١٩٦٩. وفي الخامس من تشرين الثاني قُدّم مشروع القرار إلى الجلسة العامّة للأُمم المتّحدة، فحصد ٩٢ صوتًا موافقًا، وامتنعت سبعة أصواتٍ عن التصويت، ولم يجرؤ أحدٌ على إعلان رفضٍ، وكان نصّه:

« يوم حربٍ من أجل السلام

"إنّ الهيئة العامّة، تأكيدًا لعزمها على تقرير التقدّم الاقتصاديّ والاجتماعيّ، ونظرًا للتفاوت المقلق والمتعاظم، في مستويات الحياة بين الدول النامية، وأُخرى ضئيلة النموّ، وعملاً بقرارات الأُمم المتّحدة، المتعلّقة بتخصيص الموارد المحرّرة من جرّاء وقف التسلّح لأغراضٍ سلميّةٍ، واعترافًا بأهمّيّة تدابير وقف التسلّح، من حيث تحرير موارد إضافيّةٍ، من أجل التقدّم الاقتصاديّ في العالم، وخاصّةً في الدول الساعية إلى النموّ:

١- تدعو الدول الأعضاء إلى تعيين، كلّ سنةٍ "يوم حربٍ من أجل السلام" يُخصّص لدراسة النتائج التي قد تحدثها تدابير وقف التسلّح على النموّ الاقتصاديّ والاجتماعيّ.

٢- وترجو الدول الأعضاء أن تدرس، في هذه المناسبة، إذا كانت تدابير وقف التسلّح، قادرةً على تحرير موارد إضافيّةٍ، وإمكانيّة استخدامها وفقًا لأهداف الأُمم المتّحدة، من أجل النموّ.

٣- وتقترح أن تُرفِق الدول الأعضاء بتقاريرها الملاحظات التي تراها مناسبةً بشأن النتائج المتوقّعة في هذا الإطار ».

استجابت، إذن، الأُمم المتّحدة بأسلوبها الذي يُغرق الجوهر في طوفانٍ من المواربات، والاحتياطات، وتحفّظات الإنشاء، والتعابير الدبلوماسيّة. غير أنّها

استجابت، وكانت استجابتها، في ذاتها، نصرًا كبيرًا، نصرًا أوّل، مبدئيًّا، ريثما تتّضح نتائج "دراسات" الدول الأعضاء، وقراراتها، وأفعالها. ومؤكّدٌ أنّه سيفخر ويسعد بهذه النتيجة الأوّليّة ثلاثة ملايين شابٍّ وشابّةٍ دعموا بتواقيعهم على البطاقات. فللمرّة الأولى تستمع الأُمم المتّحدة إلى صرخة الشباب الذي ألقى بثقله على مداولاتها. ولن تتوضّح أهمّيّة هذا الحدث التاريخيّ، إلاّ بعد حينٍ.

كان فولّيرو قد توقّع تأسيس صندوقٍ عالميٍّ، تديره الأُمم المتّحدة، ولكنّه اصطدم بعوائق قانونيّةٍ وإداريّةٍ، ولكنّ ذلك لم يردعه عن حثّ الدول على اقتطاع كلفة يوم تسلّحٍ من ميزانيّتها، وتوزيعها على مؤسّساتٍ دوليّةٍ مثل منظّمات الصحّة والإغاثة، وعلى الدول الفقيرة.

واستجابت لطلبه إيران، عام ١٩٦٦، واستجابت كندا، عام ١٩٦٨ التي دأبت على إنفاق قيمة تسلّح يومٍ واحدٍ من ميزانيّة تسلّحها على غوث مرضى، وعلى الدعم الاجتماعيّ.

وبادرت دولةٌ صغيرةٌ هي دوقيّة لوكسمبورغ، التي استجابت لكلّ مبادرات فولّيرو، إلى تنفيذ ندائه ودأبت على اقتطاع كلفة يوم تسلّحٍ من ميزانيّتها السنويّة، وإنفاقه على مشاريع إنمائيّةٍ.

وحذت حذوها بعض دول العالم الثالث، مرحّبةً بنداء فولّيرو.

كان الأب "پيير" (Pierre) قد صرّح: "ليس المهمّ تسلّح الأيدي، بل المهمّ هو تسلّح القلوب". وهذا ما دأب فولّيرو على ترديده:

« "ليست الحضارة عددًا، ولا قوّةً، ولا مالاً. بل هي الرغبة الصبور، المندفعة، العنيدة في أن تتقلّص، على الأرض مساحة الظلم الاجتماعيّ، والوجع والتعاسة.

"إنّما الحضارة هي تبادل المحبّة ».

حَربٌ على الجوع

« حَسَنةٌ هي إغاثة الجائعين، ولكن الأفضل ألاّ يكون جياعٌ »

"القدّيس أوغسطينُس"

خلال مراقبة فولّيرو لانتشار البَرَص، أظهرت له الخريطة تراكم البُقع السوداء، وامتدادها في الهند والباكستان، وأندونيسيا، وڤيتنام، وكوريا، وكلّ أرجاء أفريقيا الاستوائيّة، وأميركا الجنوبيّة، ولها آثارٌ خفيفةٌ في النواحي المتّصلة بالبحر المتوسّط. أمّا أميركا الشماليّة فهي بمنجاةٍ من البرَص.

واتّضح له أنّ خريطة البرَص هي عينُها خريطة الفقر والجوع. ومن ثمّ تبيّن لفولّيرو أنّ الآفتَيْن اللتين يجب مكافحتهما هما الحرب والجوع.

وأقرّ فولّيرو أنّ الجوع كان رفيقًا دائمًا لتاريخ البشر، ولكنّه لم يبلغ، قطّ، هذا القدر من الحدّة الذي بلغه في القرن العشرين. وصرّح: "في عام ١٩٣٥ كانت نسبة عدد الجياع قد بلغت ٣٥% من عدد سكّان العالم. وفي سبعينات القرن العشرين ارتقت إلى نحو ثلثي سكّان المعمورة. وفي كلّ سنةٍ يُكدّس الجوع من الجثث أكثر ممّا كدّست الحرب الأخيرة، في خمسين سنةً.

وأورد قول باحثٍ أميركيٍّ: "لو تغذّى جرذٌ بما يأكله فلاّحٌ بنغلاديشيٌّ لنفَق سريعًا". وشفع قولَه بهذا الإحصاء: من أصل ألف طفلٍ يولدون في الهند، لن يحتفل ١٢٥ منهم بذكرى ميلادهم الأولى، لأنّهم يكونون قد قضَوا نحبهم جوعًا. أمّا الذين سيبقون على قيد الحياة، فمعدّل عيشهم سيكون ثلاثين سنةً، في حين يتراوح بين ستّين وسبعين سنةً في أوروپا.

وكان فولّيرو قد شاهد، بأُمّ العين، ما هو الموت جوعًا، في مركز الموت الكريم، الذي أحدثته الأُم تيريزا، في كلكتّا، بجوار معبد الإلهة "كالي". ففي القاعة الكبرى حيث اصطفّت أَسِرّةٌ ميدانيّةٌ على مجموعتَين متقابلتَين، ترقد عليها هياكلُ عظميّةٌ، انتُشلت من فوق الأرصفة، غالبًا، في حالة سُباتٍ، وانحنت عليها أيدٍ أُموميّةٌ، تنظّفها، وتطعمها شيئًا من الحليب، وتطرد عنها أفواج الذباب الملتصقة بالجلود الجافّة، والشفّافة التي تغطّي عظامًا ناتئةً. هذه الكائنات التي لم تعهد في حياتها سوى الألم والوحدة والجوع والحرمان، اكتشفت، أخيرًا، عذوبة البسمة، والمبادرة الرقيقة، والكلمة المُحبّة. ومع ذلك لا تنجو من الموت، من جرّاء كلّ ما كابدت.

وهناك، كان فولّيرو شاهدًا على وفاة فتاةٍ لم تتخطّ الثانية والعشرين، وراقب وداعها للحياة بانتفاضاتٍ خفيفةٍ. ولمّا لفظت أنفاسها أخذته رغبةٌ عارمةٌ في وزنها، فتناول بين يديه تلك الكومة الضئيلة من العظام التي ما برحت فاترةً، ووضعها على ميزانٍ أظهر أنّها تزن عشرين كيلوغرامًا.

وقد تسنّى لفولّيرو أن يشهد مفاعيل الجوع الذي يبدأ بوهَنٍ بالغٍ، وخَدَرٍ مُبهَمٍ، ويتصاعد، بلا رحمةٍ، من الساقين إلى البطن، مُحدِثًا استسقاءً مريعًا، شادًّا الجلد حتّى يكاد يتمزّق. وفي حالاتٍ أُخرى ينشف الجلد، ويذوب العضل ويحدث الموت بعد آلامٍ مُريعةٍ.

وغالبًا، ما يقترن الجوع إلى الطعام بالجهل، ويؤدّي إلى التخلّف. وفي تلك الحقبة من القرن العشرين، كان العالم يضمّ أكثر من مليار أُمّيٍّ غير قادرين على استيعاب البند السادس والعشرين من شرعة حقوق الإنسان التي تؤكّد حقّ كلّ إنسانٍ بالتعليم. وكان سبع مئة مليون كائنٍ بشريٍّ لم يروا، قطّ، طبيبًا، وفي حين كان لكلّ ألف مواطنٍ في أوروبا، طبيبٌ؛ وكان، في آسيا طبيبٌ لكلّ عشرين ألف إنسانٍ.

ويذكر فولّيرو أنّه كان بوسع منظّمة الصحّة العالميّة، عام **١٩٦٥**، إنقاذ خمس مئةٍ وخمسين مليون إنسانٍ من الملاريا، لو امتلكت **١٦٥** مليون فرنك، أي **٣٣** سنتًا من الفرنك لكلّ فردٍ. فهل افتقرت الدول الكبرى إلى هذا المبلغ الزهيد، وهل عجزت عن اقتطاعه من ميزانيّات القتل والموت، والهدر؟!

وكان بَدَهيًّا أن تستفزّ فولّيرو، مع كلّ مآسي الجوع في العالم، إعلاناتٌ وقحةٌ دافعها التباهي. وقد ذكر منها، فضلاً عمّا أوردناه آنفًا:

- أنفق الأميركيّون في سنةٍ واحدةٍ، خمسَ مئةٍ وثلاثين مليون دولارٍ، ثمن أطعمةٍ خاصّةٍ لكلابهم.
- ببّغاء ورثت عشرين ألف دولارٍ.
- أوصت سيّدةٌ لهرِّها الأسود بثلث ثروتها، أي **٨٣٣٣٣** دولارًا، لكي يعيش برفاهٍ.
- وفي فرنسا التقط فولّيرو من الإذاعة هذا الإعلان: عيد الميلاد يقترب، فكّروا بكلبكم. لقد أعددنا له سريرًا متوَّجًا بقبّةٍ مطرّزةٍ فاخرةٍ، ومعطفًا متقن التبطين، وبزيّ كاوبوي مزيّنٍ بنجم "الشريف".
- صناعيٌّ باريسيٌّ ابتاع لكلبه، بمناسبة عيد ميلاده، طوقًا من ذهبٍ مرصّعٍ بالألماس، بمليوني فرنك. واحتفالاً بهذا الحدث السعيد، دعا على العشاء مئتي شخصٍ في ملهًى، حيث كلّفه كلُّ شخصٍ ستّة آلاف فرنكٍ، والتهم الكلب قالب حلوى جسيمًا.

وبهذه المناسبة ذكّر فولّيرو بالصرخة التي كان القدّيس يوحنّا ذهبيّ الفم، قد أطلقها في وجه أثرياء بيزنطيا، في القرن الرابع: "إنّكم تُعنَون بإطعام كلابكم، وتَدَعون إنسانًا، قد يكون هو يسوع نفسه، يموت جوعًا!".

وذكر، أيضًا، أنّ في الـــپيرو يتنازع الجياع على النفايات، في مستوعباتها، مع الكلاب والكواسر، وتتنافس الأُمّهات، الحاملات أطفالهنَّ على ظهورهنّ، مع الدجاج على ثمارٍ فاسدةٍ، وأحشاء سمكٍ.

وفي النيجر يلتهم المزارعون البذار الذي توزّعه الحكومة لزراعته. وبما أنّه، غالبًا، معالجٌ بموادّ كيماويّةٍ يموت كثيرون منهم مسمَّمين. ويُفضي ببعضهم الجوع إلى البحث عن حبوبٍ في طوايا براز الجمال والبقر.

وفي مقابل هذا البؤس، كم من تبذيرٍ وقحٍ في بلاد الأغنياء، وكم من هدرٍ على أدوات القتل والتدمير، لدى السياسيّين الأقوياء!

وندّد فولّيرو بالمؤامرات الشيطانيّة التي كانت شركاتٌ متعدّدة الجنسيّات تدبّرها، وتؤدّي إلى سحق أسعار الموادّ الأوّليّة، الموادّ التي كانت تنتجها الدول الفقيرة، كي تزيدها فقرًا، وخضوعًا لهيمنة الشركات الكبرى. فقد كانت بعض الشركات تتلف كمّيّاتٍ هائلةً من الغذاء الكفيل بإطعام ملايين الجياع، لكي تحافظ على مستوى أسعار يضمن لها الربح الوفير.

وبالمقابل عقدت دولٌ في العالم الثالث، عام ١٩٥٥ مؤتمرًا في مدينة "بَنْدُنْغ" (Bandung) الأندونيسيّة، من أجل مناقشة هذه المناورات الجهنّميّة. ثمّ عقدت مؤتمرًا ثانيًا في الجزائر، حيث استقبلت المشاركين بالمؤتمر لافتاتٌ تقول: "يا فقراء العالم أجمع اتّحدوا"، و"أنتم قنبلة العالم الثالث الذرّيّة".

وكيف لا يهدّد الفقراء، المتلاعبين بمصائرهم، بعد أن أعلنت الأخبار أنّ الدول الغنيّة، البَطِرة قد أطعمت بهائمها مليون طنّ حبوبٍ، وأنّ الأطعمة التي يرميها مواطنٌ غربيٌّ في صناديق القمامة تكفي لإطعام آلاف الأفريقيّين والآسيويّين، وأنّ ثلاثين بالمئة من الفرنسيّين يعانون التخمة؟

وحذّر فولّيرو من أن يُسرِّع جوعُ البشر نهايةَ العالم. وكان الكردينال هيلدر كامارا، قد هتف: "حذار من انفجارٍ أدهى من أدهى القنابل، قنبلة الجوع والبؤس!".

وخير اتّقاءٍ لهذا الانفجار هو شنّ حربٍ على الجوع، والبؤس، والجهل، والمرض، والتخلّف.

وظلّ فولّيرو يؤكّد:

« سنظلّ مُقيمين على إيماننا بأنّ حياة إنسانٍ، وبسمة إنسانٍ هي أثمن من كلّ اكتشافات الفضاء. وسنواصل الكفاح كي تتقلّص على كوكبنا الأرضيّ، مساحات الظلم الاجتماعيّ، والألم والبؤس.

"هذا هو سبيلنا، نحن المسيحيّين، إلى بلوغ السماء".

"المحبّة المتبادلة أو الزوال".

"والكلمة الأخيرة للمحبّة" ».

وكان قد سبق لفولّيرو أن كتب:

« حسنٌ أن تمنعوا موت الفقراء جوعًا، ولكن احذروا من أن يؤدّي ذلك إلى احتضارهم الدائم، وإلى موتهم موتًا بطيئًا، مدى حياتهم كلّها، وجوعًا لا نهاية له، وإلاّ لكنتم متواطئين على اغتيالهم، لأنّكم أمسكتم عنهم ما يلزمهم للعيش، واحتفظتم به لذواتكم.

"أتدّعون أنّكم لا تستطيعون فعل شيءٍ من أجل مكافحة جوع العالم؟ هذا هو نموذج العذر الباطل الذي ليس سوى إقرارٍ بالجبن والتخاذل.

"ألا تستطيعون شيئًا؟ وما أدراكم؟ وما الذي حاولتم فعله؟ من المؤكّد أنّكم لم تقوموا بأيّة محاولةٍ. فأنتم معنيّون بذاتكم، ثمّ بذاتكم، ثمّ بذاتكم!

"أهذا هو عالمكم؟ فليكن! ولكن لا تقولوا، بعدُ، إنّكم مسيحيّون، بل لا تقولوا إنّكم متحضّرون.

"المطلوب هو عيش مِحَن الآخرين، ومعاناة بؤسهم الجائر.

العالم جائعٌ إلى خبزٍ، وحنانٍ. فلنعملْ...

إذا كان لدى كلّ فردٍ قدرة التغلّب على أوهامه، وجرأة المحبّة المطلوبة منه، لأشرَقَ على العالم نور رجاءٍ عظيمٌ.

"ليس الوقت وقتَ تأوّهٍ ونواحٍ. فسيحين للقلوب الحسّاسة وقتٌ للنواح، عندما لن يعود بالإمكان فعل أيّ شيءٍ.

"آن لنا أن نعمل في الحال جميعُنا معًا، وإلاّ فلا بدّ من الإقرار بأنّنا أصبحنا وحوشًا ».

وناشد فولّيرو، كلّ إنسانٍ، بهذا النداء:

« إذا رغبتَ في تناول طعامك، فلا تقلْ: "أنا جائعٌ". بل فكّر بأربع مئة مليون شابٍّ وفتاةٍ لن يتوفّر لهم طعامٌ اليوم. إنّ نصف شبّان العالم جائعون.

وإذا أُصبتَ بزكامٍ، فلا تقلْ: "يا إلهي، كم أنا معتلٌّ!"، بل فكّر بجموع المتألّمين. بثماني مئة مليون كائنٍ بشريٍّ، لم يروا طبيبًا، قطّ. وفكّر، خاصّةً، بخمسة عشر مليون أبرص، لعَنَهم العالم، وما زال اثنا عشر مليونًا منهم محرومين من العناية، ومن الغوث ومن المحبّة.

ولا ذنب لهم سوى أنّهم مرضى. وقد بات معلومًا، اليوم، أنّ مرضهم مغرقٌ في ضآلة عدواه، وأنّه قابلٌ للشفاء التامّ. غير أنّ اسم هذا المرض هو "البرَص"، وهو موضع خوفٍ وعارٍ. والعلم كفيلٌ بإزالة المرض، ولكنّ العار لا يزول ».

وكان فولّيرو إثر مشاهدته، في الهند فتاةً برصاء، تقضي نحبها وهي في الثانية والعشرين، ولم يتخطَّ وزنُها عشرين كيلوغرامًا، قد استنكر، وثار، وغضب، فقيل له: "هذه هي الحال منذ كان العالم، ولن يتغيّر فيه شيءٌ". فصاح:

« لا، فالمستحيل الوحيد هو أن أستمرّ آكل، وأنام، وأضحك، وأنا عارفٌ أنّ على الأرض نساءً في الثانية والعشرين من عمرهنّ يقضين نحبَهنّ لأنّ وزنهنّ عشرون كيلوغرامًا.

... في القرن العشرين المسيحيّ شاهدتُ بُرْصًا في السجون، وفي دور المجانين، وفي مقابر، وشاهدتهم جياعًا يجأرون يأسًا. وشاهدتُ قروحهم تعجّ بالذباب، وأكواخهم القذرة، وصيدليّاتهم الخاوية، وحرّاسهم المدجّجين بالبنادق، والرشّاشات، شاهدتُ عالمًا يتعذّر تخيُّله، عالم آلامٍ، وأهوالٍ، وظلمٍ، وقنوطٍ.

"هذا هو ما يستحيل أن يدوم! ».

قبل إرسال بشرٍ إلى القمر

« قَوْلي هذا سيوحي بأنّي فلاّحٌ وجاهلٌ. فليكُنْ:

"فكلّ هذه الصواريخ وهذه الدمى التي يعبث بها أولادٌ مدّعون، ويُطلقونها إلى الفضاء، والتي تصيب الزهيد أو الكثير من النجاح، لا تثير فيّ أيّ حماسٍ. بل إنّها تغضبني، وتستفزّ استنكاري.

"لستُ أجهل الاعتراض الذي سيقابلني. سيُقال إنّها تجارب علميّةٌ فائقة الشأن، تلبّي فضول عقولٍ فائقة الذكاء. وما علينا، نحن الفقراء، الذين لا تطال تطلّعاتهم هذه المستويات الرفيعة إلاّ أن ننحني، وأن ندفع الفاتورة... التي أعترض عليها.

"للأسف لستُ أملك عبقريّةً علميّةً، ولستُ سوى كائنٍ مسكينٍ قدماه راسختان على الأرض، وأعرف أن أحسب الأموال التي تُهدَر في العالم، بعد أن شهدتُ إخوةً لي يموتون جوعًا، وغدوتُ ضنينًا بمال الآخرين، بعد أن صرتُ مسؤولاً عن مبادرات سخاءٍ.

"وأُقِرّ، أنا المتوحّش أنّ هذه الاكتشافات باهظة الكلفة. فهم يحدّثوننا عن مئات المليارات من أجل اكتشاف كوكبٍ. وأنّ كلّ صاروخٍ يُطلَق، تتطاير معه المليارات، مثلما تتبدّد الصواريخ عينها أحيانًا. وهم يقرّون بذلك، بمثل اللامبالاة القصوى التي برّروا بها رفضهم منحنا ثمن قاذفتَي قنابل، لبضع سنواتٍ خلت. وكان هذا المبلغ كفيلاً بتمكيننا من معالجة جميع بُرْص العالم. لم نطلب، حينذاك، سوى عشرة مليارات فرنكٍ قديمٍ، ولكنّهم كانوا غير معنيّين بالترّهات، وبالمبالغ الزهيدة.

"مثلٌ آخر: الملاريا التي نخرت حضاراتٍ، وما زالت تقوّض إمبراطوريّات. ما برحت، اليوم، الداء الأوسع انتشارًا في العالم. وقد قدّرت منظّمة الصحّة

العالميّة، عام ١٩٦٥ أن وضع ٣٢٢ مليون دولارٍ بتصرّفها، يمكّنها من إنقاذ خمس مئةٍ وخمسين مليون إنسانٍ في العالم، ما برحوا مصابين بهذا الداء، أعني إنفاق أقلّ من ٠.٣ فرنكٍ جديدٍ على كلّ كائنٍ بشريٍّ يعاني الملاريا. لا يدّعيَنَّ أحدٌ استحالة اقتطاع ثلاثين سنتيمًا من الفرنك لأجل إنقاذ كائنٍ بشريٍّ مصابٍ بالملاريا، من ميزانيّات الموت، ومن كلفة الدمى التي يتلهّون بإطلاقها إلى الجوّ.

"قبل التفكير بتنظيم رحلاتٍ إلى القمر، ألا يُستحسَن منع موت ملايين البشر فقرًا وبؤسًا، على الأرض؟ ».

الفصل السادس

زارع فرحٍ، وبستانيّ محبّةٍ

« البارّ هو من يحيا من أجل قريبه »

"أورپيد – كاتبٌ مسرحيٌّ إغريقيٌّ"

« لمَ لا أجعل من جميع أيّام حياتي فعلَ حبٍّ واحدًا؟ »

"فولّيرو"

عيد الميلاد مع الأب شارل دي فوكو

احتلّت شخصيّة الأب شارل دي فوكو وروحانيّته مكانةً مؤثّرةً في نفس فولّيرو.

ففي عام ١٩٣٥، كانت صحيفةٌ أرجنتينيّةٌ قد كلّفته بإجراء تحقيقٍ عن ذلك الضابط الأرستقراطيّ، الذي قلب حياته، رأسًا على عقبٍ، هوس الروح، فهجر كلّ ماضيه المتألّق، وأصبح "حاجّ المطلق". فسافر إلى "تمنراسّيت"، في الجزائر، وفي الكوخ الطينيّ، الذي اتّخذ منه "دي فوكو" منسكًا، تأمّل فولّيرو مليًّا، في التحوّل الروحيّ الذي جعل من ذلك الناسك "محبّةً حيّةً"، و"أخًا مسكونيًّا شاملاً، وخادمًا للفقراء، والبائسين واليائسين.

وفي عام ١٩٣٧، أنشأ فولّيرو مؤسّسة شارل دي فوكو، وباشر سلسلةً من المحاضرات في العالم، بُغيةَ إشعاع روحانيّته.

وعام ١٩٤٦، كانت الحرب قد انتهت، ولكنّها خلّفت أهوالاً من البؤس والدمار. واتّضح لفولّيرو أنّ جموعًا غفيرةً، أولادًا وشيوخًا، سيحلّ عليهم عيد الميلاد، وهم مقرورون بردًا، ومتضوّرون جوعًا، ومرتعدون وحدةً وحرمانًا. وسعيًا إلى تقليص مدى هذا البؤس، اتّخذ فولّيرو، في إطار المؤسّسات التي أنشأها، مبادرة "عيد ميلاد الأب دي فوكو"، بمناسبة الذكرى الثلاثين لاغتياله، وأنشد:

« الميلاد ليلة الرجاء، وعيد المحبّة.
من أجل مَن تحيَوْن هذه الليلة؟
أَمِنْ أجل ذواتِكم؟ فبئسًا لكم!
أَمِنْ أجل ذويكم؟ هذا جيّدٌ، ولكنّه غير كافٍ.
يجب أن يكون عيد الميلاد فعلَ محبّةٍ شاملةٍ.

وبفضلكم لن يكون مسنٌّ وحيدًا في هذا اليوم،
وستشرق بسمةٌ على شفاه صغارٍ كثيرين،
وليكن موقد الميلاد الجمّ، لهم، شرارة محبّةٍ! »

وناشد الأهالي، وهم يُعدّون أسباب الفرح لأبنائهم أن يفكّروا بالمحرومين من كلّ شيءٍ.

وناشد الصغار الذين ستغمرهم سعادة الهدايا اقتسام دُماهم، والحلويات التي يتلقّونها، مع يسوع الطفل، الماثل في كلّ ولدٍ فقيرٍ.

وقد لاقت هذه المبادرة نجاحًا باهرًا. وانهالت عليه الرزَم، والرسائل، والهبات من كلّ أرجاء فرنسا. وسرعان ما ضاق بها منـزله، فأعدّ له صديقه الوفيّ الذي كان يتعهّد بطبع نداءاته، ونشراته فسحةً في مطبعته، حيث أكبّ راوول، وأُمّه الطاعنة في السنّ، وزوجته، وثُلّةٌ من الأصدقاء، بفرحٍ وتأثّرٍ، على فرز الهبات، وإعادة توضيبها وشحنها إلى المحتاجين.

وما كان أروع فولّيرو، مكسوًّا بالغبار، وبمخلّفات التعبئة، وسط عالمٍ ساحرٍ من الدمى، والحيوانات، ومختلف الطُرَف، وأدوات الزينة المتلألئة.

عام ١٩٤٧، كلّلت الأكّاديميّة الفرنسيّة تلك المبادرة، وفي عام ١٩٥٠، قدّم فولّيرو، بمناسبة عيد الميلاد غوثًا، وفرحًا، وحلويات إلى أكثر من ثمانين ألف مسنٍّ وولدٍ.

كان فولّيرو قد قال، سابقًا: "في كلّ إنسانٍ تكمن كنوز محبّةٍ"، وجاءته هذه المبادرة بالدليل القاطع، على قوله.

وكم من مفاجآتٍ مذهلةٍ سجّلها في تلك المناسبة، مثل حادثة الولد الفقير الذي قرع بابه في ساعةٍ متقدّمةٍ من الليل، وكان هو منهكًا، ومع ذلك جرّ نفسه إلى

الباب وفتحه، وإذ بفتًى فقيرٍ يسلّمه ظرفًا يحتوي مبلغًا ضئيلاً ورسالةً مؤثّرةً، ويفرّ في الحال. وقد سبقَ لنا أن سردنا تلك الحادثة. وعندما كان يختلي بذاته منهكًا، كان، لاشعوريًّا، يُنشد سعادته، مستخلصًا:

« أعلم الآن أنّني لن أكون بعد الآن مُثبطًا، ولن أكلّ، بعدُ، أبدًا، ولن ينفد صبري، حتّى إذا قُرِع بابي للمرّة المئة، في نهاية يومٍ مُرهقٍ. فقد جاءني طفل الميلاد كي يعلّمني المحبّة، من جديدٍ ».

وبالإجمال، كانت له عشيّة الميلاد، ويوم الميلاد، أوقاتًا شاقّةً. حافلةً بالزيارات، والهواتف، والرسائل، وأكوام الرزم، التي ترسم بسماتٍ على شفاه عشرات أُلوف مُسنّين وصغارٍ.

وفي سبيل تعميم مبادرات محبّةٍ من هذا النمط، ونَظْم أصدقائه في سلسلة محبّةٍ، تشمل العالم أجمع، أسّس فولّيرو "نظام المحبّة". لم يكن نظامًا نسكيًّا، ولا فروسيًّا، بل كان تجمّعًا حرًّا للملتزمين حيال ذواتهم بأن تطبعَ الأُخوّةُ أفكارَهم، وأقوالهم، وأعمالهم. لم يُلزِمهم إلاّ بما ألزموا به ذواتهم، ولم يقتضِ منهم إلاّ الإرادة الطيّبة:

« إسعوا إلى أن تكونوا طيّبين، وعندما ستعهدون سعادة الطيبة، أشعّوها.

"لا يكفي أن يكون الإنسان المرء طيّبًا مع ذويه وأخصّائه، بل فلينضمَّ إلى أعضاء "نظام المحبّة".

"وليكنْ لاهتمامات أعضاء نظام المحبّة ونشاطاتهم حجمٌ كونيٌّ، ولا ينسوا أبدًا أنّ في العالم:

- **٨٠٠ مليون كائنٍ بشريٍّ لم يروا قطّ طبيبًا.**
- **٦٠٠ مليونٍ لم يتلقّوا لقاحًا.**
- **مليون وثلاث مئة ألف أُمّيٍّ.**
- **خمسة ملايين إنسانٍ يقضون نحبهم جوعًا كلّ سنةٍ.**

وليعلم كلّ عضوٍ أنّه طالما ظلّ على الأرض بريءٌ واحدٌ جائعًا أو مقرورًا، أو مضطهَدًا فلن يحقّ له الصمت، ولن تحقّ له الراحة.

وأنّ على كلٍّ من أعماله، حتّى الأسحق وضاعةً وإغفالاً، أن يكون فعل عدلٍ ومحبّةٍ، وإسهامٍ في مستقبلٍ أفضل، وأنّ نظام المحبّة هو الانتظام في عالم المحبّة ».

بعد عشرين سنةً، وخلال سهرةٍ تليفزيونيّةٍ، بمناسبة عيد ميلاد ١٩٧٠، سُئِل فولّيرو عن سبب تسمية هذا العيد بميلاد الأب دي فوكو، فأجاب:

« لأنّ الأب دي فوكو وجهٌ رائعٌ، كان يصف نفسه بالأخ المسكونيّ، وكان قد كتب مرّةً لشقيقته: "هل تذكرين أعياد ميلاد طفولتنا، التي خلّفت أعذب الذكريات في نفسي. أعِدّي لأولادك عيد ميلاد جميلاً، وهكذا تُشرَع حياتهم على عالم من الفرح، لأنّه عالَم محبّةٍ".

"وخطر ببالي أنّ هذا الأخ المسكونيّ سيكون نموذجًا رائعًا لعملٍ يستهدف نشر الفرح والسكينة والسلام، في هذه الليلة ».

وذكّر فولّيرو بالنداء الذي أطلقه، عام ١٩٤٥، بهذه المناسبة، حيث قال:

« طلبتُ أن يكون فرح الأولاد، يوم العيد، فرحهم المتألّق، ورائع البراءة، كبراءة الطفل الذي وُلد في تلك الليلة، والذي سيخصُّ حبّه العالم. وطلبتُ أن يقتسموا هذا الفرح، في الحال، بتقديمهم جزءًا من الهدايا التي سيتلقّونها مع أطفالٍ فقراء، ويقدّموا لهم، بذلك، وفي الحال، فرحة العيد، لأنّه يبدو لي مخزيًا أن يكون، صباحَ العيد، أطفالٌ تثقل سواعدهم الدمى والهدايا، وأطفالٌ آخرون ينظرون إليهم بحزنٍ. فلدى الأطفال حاجةٌ إلى العدل والمساواة والإخاء، ينبغي إيقاظها وإنماؤها وجعلها تزهر.

"وهذا ما حاولتُه، وكانت النتائج مذهلةً، في الحال.

"وما زلت أذكر أعياد ميلاد الأب دي فوكو الأولى التي طبعت قلبي بدمغةٍ أبديّةٍ. وقد دأبنا، مدى خمس عشرة سنةً، أنا وأُمّي وزوجتي، على إعداد رُزم هدايا العيد.

كانت أُمّي قد طعنت في السنّ، غير أنّها كانت أكثرنا حماسًا وبهجةً، وفي كلّ لحظةٍ، وكلّما فَتَحتْ رزمةً قادمةً كانت تناديني: "تعالَ، راوول، وشاهد كم هذا رائعٌ!"، وكنتُ غالبًا أُبدي إعجابي، لأنّني كنت، غالبًا، معجبًا حقًّا.

"وأذكر أنّ عاملاً كان يساعدنا، فيأتينا من مركز البريد بالرزم المرسلة إلينا، ويلقيها بين أيدينا، بلا توقّفٍ. كان يحمل الرزم على ظهره، ويصعد بها إلينا، والسيكارة لاطيةٌ بين شفتيه، وهو يدمدم أُغنيّةً. وقلت، يومًا، لصاحب المطبعة: "ألا يحسن أن تكافئه على عمله"، فعرض عليه صديقي شيئًا لقاء أتعابه، فحدجني بنظرةٍ اختلط فيها الاستنكار بالحزن والخجل، ولكأنّه ارتكب خطأً، وقال: "علامَ تقدّم لي مالاً، يا سيّد؟ ألا يحقّ لي، أنا أيضًا، أن أُعين الآخرين البائسين؟".

"وفضلاً عن الرُزَم التي كانت تفتحها أُمّي التي ما زلتُ أذكرها، مثل شمسٍ لا تغيب، كان يرد إلينا بريدٌ كثيفٌ، وحوالاتٌ كان بعضها ضئيلاً، متواضعًا، زهيدًا، ومع ذلك كانت رائعةً، واحتلّت مكانًا رحبًا من "ملفّي الأزرق".

"لطالما صرّحتُ: "من حسن طالع الفقراء، وجود فقراء إلى جانبهم". فالفقراء هم، الذين ساعدوني، وهم طليعة مَن فهموني، ودعموني وأحبّوني، أكثر من جميع الآخرين.

سألتموني هل كلمة "إحسان" فقدت قيمتها، في غروب هذا القرن، وأنا أقول إنّ أنانيّة البعض، ولاوعي آخرين هي التي أفقدتها قيمتها، لأنّهم جعلوا منها مرادفًا للصَدقَة. والصدَقة هذه هي مسخٌ للمحبّة، وشبحٌ لها. والإحسان هو المحبّة المتبادلة، والمحبّة هي المضيّ في الحياة، بأيدٍ ممدودةٍ، وبسمةٍ مشرقةٍ حتّى في غمرة التعب...

رجائي هو شبيبة العالم، فإنّها رغم تجاوزاتها، ومظالمها، وعنفها، وعبثيّتها، أحيانًا، بحاجة إلى هدفٍ سامٍ، توجّه إليه حماسها، وتحرُّقها إلى إنجاز أُمورٍ ذات شأنٍ.

"لمَ هي تحبّني، وتلتفّ من حولي؟ ألأنّي عجوزٌ أنجز أعمالاً رائعةً، أو لأنّهم، بتسامحهم، وحلمهم، وسماحة نفوسهم، يعتقدون أنّي أنجزت أُمورًا ذات شأنٍ، ولأنّي، قبل أن أُبشّر بالإخاء، سعينا أنا وزوجتي أن نحيا الإخاء المسكونيّ، على امتداد نصف قرنٍ، وعلى أكثر دروب العالم ألمًا، فقالوا إنّ فولّيرو هذا العجوز، رجلٌ طيّبٌ، يمكن الإصغاء إليه، لأنّه بشّر بمثاله، فهذا هو المهمّ.

"أنا لا أُدين الآخرين، ولا أرى أنّ العالم لا يسكنه سوى سيّئين. إنّما هناك قومٌ جاهلون، عندما يجدون قطعة لحمٍ في طبقهم، يوميًّا، يتوهّمون أنّ أطباق جميع البشر ملأى باللحم، ويزعمون أنّ عالمَهم هو عالَم جميع الآخرين، وهذا مريعٌ. فينبغي فتح عيونهم، وقلوبهم.

"في إحدى رسائلي إلى الشبيبة، أكّدتُ يقيني بأنّ في قلب كلّ إنسانٍ كنوزَ محبّةٍ، وعلينا أن نستخرجها، وأن نجعلها تزهر وتثمر.

هذا هو توجيهٌ جميلٌ، بمناسبة عيد الميلاد. وإنّي أناشد الشباب الذين طالما سمعوني، وفهموني، وعملوا بوصاياي:

"أنتم المستقبل، والغد سيكون ما تريدون أنتم أن يكون، وسيكون له وجهكم.

"اقتحموا هذا المستقبل بفرحٍ، واعتزازٍ، وتبصّرٍ. انظروا مليًّا إلى الحياة، إنّها جميلةٌ، مع ما يشوبها من عيوبٍ، ومع دناءة من يستغلّونها لأغراضهم. الحياة جميلةٌ، وعظيمةٌ، ونبيلةٌ.

"اقتحموا المستقبل واثقين أنّ أدهى مصيبةٍ قد تحلّ بكم، هي ألاّ تفيدوا أحدًا، وألاّ تؤتي حياتكم نفعًا لشيءٍ.

"ارفضوا الحرب، فهي انتحارٌ جماعيٌّ. كونوا أنتم فجر عالم الألفَيْن.

"ذودوا عن حياض الإنسان. ففي العام ألفَيْن، سيكون أبناؤكم في العشرين من عمرهم، وإنّما أنتم تناضلون من أجلهم.

"ناضلوا بلا حقدٍ، ولا جُبنٍ. وتأكّدوا أنّ الاستسلام هو تنازلٌ والإحجام هو خيانةٌ.

"تلك هي الوصيّة التي أودّ أن أهديكم إيّاها في غروب حياتي، كما أودّ أن أُحسنَ استخدام أيّامي الأخيرة، وأن أبثَّكم الروح الذي آتاني جمًّا من النور والفرح، مؤكّدًا أنّ الغد سيكون لكم وللجميع، أجمل، وأوفر إخاءً، وأشدّ سيطرةً على الآلة، وأعمق ازدراءً للمال.

"وستكونون، ببساطةٍ، وبنُبلٍ، بشرًا.

وعيد ميلادٍ جميلٌ! ».

الفصل السابع

مرض فولّيرو ووفاته

« هنيئًا لمن يحيا في الله،

وبورك من يموت وهو يبحث عنه »

"فولّيـرو"

أيّامه الأخيرة ووفاته

في سنوات فولّيرو الأخيرة، أمست الأسفار شاقّةً على جسده المنهَك، فأكبّ على اختيار خلفائه، وعلى تنظيم مؤسّسات فولّيرو المكلّفة بمتابعة مشاريعه، والتي أمست لها فروعٌ في معظم المدن الأوروپيّة، وفي أفريقيا وآسيا.

وتضاءلت محاضراته، ومداخلاته الإذاعيّة، بعد أن طغى التليڤزيون على الإذاعة، ولم تهتمّ المحطّات التليڤزيونيّة باستضافته.

ومع ذلك، ظلّ يسعى إلى خير البشريّة من خلال تعبئة الشبيبة. ومع أنّه توقّف عن توجيه نداءٍ سنويٍّ إلى الشباب، فقد لخّص لهم آراءه، عام ١٩٧٤، من خلال خطابٍ ألقاه في الجمعيّة العامّة لاتّحاد مؤسّسات فولّيرو، جاء فيه:

« إنّ مدّ يد العون هو الارتقاء. وليدرك جيّدًا من يتبعوني أنّ حملتنا على البرَص لم تكن إلاّ رحلةً، في هذه الحملة المباركة التي سيتعيّن علينا شنّها على البؤس والظلم والأنانيّات ».

لم يمعن في التفصيل والإيضاح تحاشيًا عن سجن أعوانه المختلفين في إطارٍ ضيّقٍ، تاركًا لكلٍّ منهم حرّيّة الالتزام باختيار السبيل الذي يسلكه، وفقًا لمؤهّلاته، ولمقتضيات الظروف.

وفي عام ١٩٧٧، وكان فولّيرو في الرابعة والسبعين من سنيه، دبّج ملخّصًا لمبادئه، وشهادةً عن حياته، أثبت، من خلالها، أنّه كان، في القرن العشرين، من منقذي روح العالم أمثال الأب پيير، والأُمّ تيريزا الكلكتّاويّة، والأُخت إيمانويل، وجان ڤانييه، وأعظمهم يوحنّا بولس الثاني. وحريٌّ بنا أن نورد، في ما يلي مقاطع رحبةً من هذه الشهادة الوصيّة:

« نهاية العالم تنتظرنا في نهاية الشارع.

أيّها الشبّان والشابّات، على مساحة الأرض، أنتم الذين يقولون "لا" لانتحار البشريّة.

كانت صلاة مراهقتي: "يا ربّ، إنّي أودّ أن أُساعد الآخرين على الحياة".

وأظنّ أنّني وفيتُ لهذا القصد، وها إنّي أرى، في مساء وجودي أنّني قد سُقتُه بأفضل ما استطعت، ولكنّ مهمّتي لم تكتمل.

والكنز الذي أتركه لكم، هو الخير الذي لم أُنجزه، أنا رغبتُ فيه، وأنتم ستحقّقونه...

إنّي أُعيّن شبيبة العالم، ورَثَتي، ومنفّذي وصيّتي،

شبيبة العالم بأجمعها: يمينيّين، ويساريّين، ووسطيّين...

بقدر ما تَحبو حياتي نحو نهايتها أشعر بواجب تكرار قولي:

"لن ننقذ البشريّة إلاّ بحبّنا لها"، وأكرّر أيضًا: إنّ المصيبة الكبرى التي قد نُبتَلى بها، هي ألاّ نكون نافعين لأحدٍ، وألاّ تكون حياتنا قد أفادت لشيءٍ.

المحبّة المتبادلة أو الزوال. اعملوا بأمر المحبّة، لقد قضى يسوع على العنف بالصليب.

احذروا أوغاد العقل لئلاّ يقودوكم على طرقاتٍ خاليةٍ من الزهور ومُفضيةٍ إلى العدم.

احذروا تأليه التقنيّات، وأحسنوا التمييز بين ما يخدُم وما يستعبِد.

أقلعوا عن الكلمات الرنّانة التي تدوّي بقدر ما هي فارغةٌ.

يجب تحرير العالم من مظاهر "التقدّم"، ومن تبعاتها الوبيلة، انأوا بأنفسكم عمّن يُثمّنون كلّ شيءٍ بأوراقٍ ماليّةٍ.

فالخزنةُ لم تكن، قطّ، مقفزًا إلى العلا.

سيطروا على المال، وإلاّ لن تتمكّنوا من أيّ عملٍ إنسانيٍّ.

المال مُفسدٌ، فاجعلوه خادمًا.

ولتكن ثروتكم هي إسعاد الآخرين.

لكلّ امرئٍ مصيرٌ فريدٌ، فحقّقوا مصيركم، وإذا افتقرت حياتكم لشيءٍ، فلأنّكم لم تتطلّعوا عاليًا.

لا تكونوا جميعكم متشابهين، بل كونوا متساوين، ومتّحدين وحينئذٍ ستكونون أحرارًا.

الحرّيّة إرثٌ مشتركٌ للبشريّة، ومن لم يكن قادرًا على احترامها لدى الآخرين، هو غير جديرٍ بها.

اِعملوا، فإحدى مصائب زماننا هي اعتبار العمل لعنةً، في حين أنّه فداءٌ.

آمنوا بالطيبة المتواضعة السامية.

الحقيقة الوحيدة هي المحبّة المتبادلة. محبّة بعضنا بعضًا هي محبّة الجميع.

أحبّوا المساكين، وأحبّوا السعداء الذين هم، غالبًا، مساكين.

أحبّوا الذين تجهلونهم. أحبّوا القريب الموجود في آخر الدنيا، والغريب القريب منكم. أحبّوا...

وحدَه سامٍ ورائعٌ كوننا إخوةً.

الغد سيكون لكم ».

جديرٌ بالتنويه، هنا، أنّ فولّيرو كان يكرّر في لقاءاته وأقواله عباراتٍ وأقوالاً طالما ردّدها، مثلما يدأب نجّارٌ على طرق مسمارٍ حتّى يُدخله عميقًا.

ومع أنّه كان كاثوليكيًّا في الأعماق، قلّما لجأ إلى الحجج الكنسيّة، لأنّ الجمهور الذي كان يخاطبه كان مسكونيًّا. ولم يعلن قطّ مناوءته للأحزاب القمعيّة والدكتاتوريّة، لأنّه كان يتوقّع انهيارها الوشيك. غير أنّه كان جادًّا وصارمًا في تنديده بإغراء المال، وبعبادة الأشخاص.

كانت صحّته، إذن، آخذةً في تدهورٍ متسارعٍ، وكان هذا الانهيار غالبًا، له، موضوع تهكّمٍ على ذاته. وكان داء المفاصل قد أوسعه ألمًا ملازمًا، بحيث كان يضطرّ، أحيانًا، إلى إلقاء محاضرته وإحدى رجليه مسندةٌ على كرسيٍّ. وقد تورّمت ساقاه، وتعسّر عليه استخدام أصابعه، وإمساك قلمٍ، فيقول مازحًا: "صرت صاحب مخلبٍ"، ولكأنّه يمثّل في جسده سمات إخوته البُرص.

كان قد شاخ باكرًا، لأنّه وهب حياته، وقواه، للبُرْص، ولمجروحي العالم. وكانت صحّة زوجته التي شاركته أتعابه وأسفاره وهمومه، قد انهارت، تسديدًا لفاتورة دوّامة أسفارهما المنهكة، وكان انهيار صحّتها يسبّب له قلقًا دائمًا.

ومع ذلك كان همّ الرسالة يلهيه عن أوجاعه. وعندما كان يُنصح بعلاجٍ في المياه المعدنيّة في مدينتي "إيـﭬيان" أو "ﭬيتيل"، كان يجيب "الماء هو الماء، وأنا أُفضّل مياه المحيط الهادئ"، ويطير إلى أوقيانيا. وقلّما أصغى إلى نصائح طبيبه "پـيير رينيه" (Pierre Reynier). ومع ذلك، كان قد خضع لمداخلةٍ جراحيّةٍ، عندما كاد التهاب الصفاق يقضي على أيّامه.

وكان يتندّر قائلاً: "كم على طبيبي أن يتحلّى بالصبر كي يتحمّل هذا المريض العسير، صعب القياد!". وكان طبيبه يردّ: "عندما ستقرّر الخضوع للعلاج، سأومن بالمعجزة".

وكان قد سبق لفولّيرو أن أمضى شهر العسل في الريـﭬييرا الإيطاليّة حيث استضافه الكاتب الإيطاليّ "غبرييلي دانّونزيو" (Gabriele D'Annonzio)، ومنذئذٍ اعتاد العودة إليها، لقضاء بضعة أيّام نقاهةٍ، كلّ سنةٍ، في ذلك الفردوس الأرضيّ. وإليه عاد في شهر آب ١٩٧٧، منهارًا، متهاوي الصحّة. ولكنّ جوّ الريـﭬييرا المنعش عجز أمام إعيائه. وفي خريف عام ١٩٧٧ تفاقم وضعه سوءًا، فعاد إلى باريس مصارعًا الموت، يوم ١٣/٩/١٩٧٧.

كان يشهد نهايته القريبة، بوضوح ذهنٍ، وعندما كان يقبّل صديقًا، قبلةَ وداعٍ، كان يقول: "لا نهجر أبدًا من نحبّهم".

وأقلق تسارع تدهور حالته الصحّيّة أصدقاءه، فأقنعوه بدخول مستشفًى لإجراء فحوصاتٍ شاملةٍ، بعد أن أفهموه أنّ إحجامه عن الخضوع للجراحة، سيضطرّه إلى حمل أجهزةٍ طبّيّةٍ دائمةٍ، ستكون له عبئًا لا يُطاق، جسديًّا ونفسيًّا.

وقد اتّضح لأطبّائه أنّ تسارع انتشار مرضه، ينذر بالقضاء على حياته، وأنّ عليهم الإسراع في جراحةٍ أجمعوا على اعتبارها الفرصة الأخيرة.

وفيما كانوا عاكفين على إكمال الاستعدادات لإجراء الجراحة، استغلّ فولّيرو هذه المهلة من أجل إنجاز أعمالٍ غاليةٍ على نفسه، فسجّل نداءه الأخير إلى الشبيبة التي عيّنها وصيّةً عامّةً على إرثه.

وأكبّ على تصحيح نسخة كتابه: "خمسون سنةً في خدمة البُرْص". وبذل جهدًا جمًّا من أجل مشاهدة عرض فيلمٍ يرسم مسيرة حياته ونضاله كان قد أعدّه وأخرجه صديقه "فريسني" ولعب أدواره ممثّلون من "الكوميدي فرانسيز".

وعلى سرير مرضه تسنّى له أن يستبحر في التفكير، والصلاة، وتجديد تقدمة نفسه لله، مُسفِرًا عن السكينة التي كانت تسكن نفسه، وأملى صلاته الأخيرة، حيث جاء:

« يا ربّ، في غسق حياتي، أقدّم ما أعطيته لي:

وجوه بُرْصك التي كانت ملطّخةً، وقلوبُهم التي كانت معتمةً، أُضيئت بالرجاء، وبالكرامة المستيقظة.

"أُقدّم لك أسمى نعمةٍ وهبها حبّك اللامتناهي للمتشرّد: الإرساء على أديم جُزُر الرحمة.

أُقدّم لك، يا ربّ، اكتشافاتي المنعشة، وجهودي الحثيثة، غير المكتملة،
أُقدّم لك الأفراح الكبرى التي مُنِحتُها، والمنغّصات الصغرى التي مُنيتُ بها.
عملي انتهى.
لم يكن عقيمًا ولا مُغرقًا في الهشاشة.
والمكافأة التي ألتمسها من ربّ السخاء هي
ألاّ تكفّ عن محبّتنا، يا ربّ ».

ثمّ طلب أن يُختَم هذا التأمّل، بفقرةٍ تقول:

« الموتُ يزرع في القلوب أزهار أُقحوانٍ.
الموت والحياة هما موضع بحثٍ واحدٍ،
ولادةٌ، ألَمٌ، حبٌّ، وإعلان حبٍّ.
ثمّ يحين وقت إزهار الأُقحوان في القلوب ».

لم يكن الموت يعني لفولّيرو المسيحيّ نهايةً، فقد طالما قال:

« منذ يوم الفصح، نحن نعلم أنّ الموت لا يقتُل،
إنّي أنتظره، أنتظر هذا الربيع الرحب
الذي به يستنير كلّ شيءٍ.
أنتظر الغفران الشامل،
فالله في آخر الطريق ».

وكان أحد أصدقائه قد استفسره، يومًا، هل هو يخشى الموت، فتفجّر جوابه: "أأخاف الله؟ لا، أبدًا. الله عطفٌ، وأنا سأمضي بكلّ ثقةٍ إلى موعدي العظيم معه".

صباح يوم الإثنين ١٩٧٧/١٢/٥، أُجريت له العمليّة الجراحيّة، وبدت، طبّيًّا، ناجحةً. وأَمِل الأطبّاء أن يكونوا قد وفّروا له، أيّام حياةٍ جديدةٍ مريحةٍ. غير أنّ هذا

الرجاء قد شابَهُ قلقٌ عميقٌ، فهم بعد أن دقّقوا النظر في الورم الذي استأصلوه تبيّن لهم أنّه من النوع الخبيث الذي قد يسبّب نزفًا.

عندما استيقظ فولّيرو من خَدَره، بدا صاحيًا، وعند الساعة العاشرة مساءً اتّصل طبيبه، الدكتور "رينييه" مستفسرًا عن وضعه، وأصرّ المريض على طمأنته بنفسه، وكرّر شكره له.

ولكنّه، بعد ساعتين، أي مع ولادة يوم السادس من كانون الأوّل، أطاح به نزيفٌ داخليٌّ صاعقٌ، وأتاح له قضاء عيد الميلاد، قبل موعده، مع صاحب العيد، الذي بذل فولّيرو نفسه في خدمته من خلال المحرومين والمتألّمين، وربّما سمع من يسوع قوله: "كنتُ أبرصَ، فقبّلتني، وها أنا أقبّلك!".

فاجعة وفاته مزّقت قلوب الأفريقيّين والآسيويّين. وعبّر عن أساهم وزيرٌ أفريقيٌّ بقوله: "مات بابا راوول، مُيتّمًا خمسة عشر مليون أبرص".

وفي "بَمَاكو"، عاصمة مالي، اجتمع المرضى في باحةٍ بحضور إمامٍ وكاهنَيْن من الآباء البيض، وعلّق أحدهما على مثل السامريّ الرحيم، بقوله: "كان فولّيرو المسافر الذي انحنى على جميع الجرحى في طريقه".

وفي داكار، ردّ الجنرال "ريشيه" لفولّيرو ما كان قد قاله على ضريح الدكتور "آجالات": "كيف استطاع قلبٌ مثل قلبك التوقُّف عن الخفقان؟". استانف قائلاً: "بابا راوول، هذه هي المرّة الأولى والوحيدة التي تسبّب لنا فيها ألَمًا".

وكتبت مديرة معهد في اليونان: "يبكي الطلاّب راوول فولّيرو، الذي كانوا يعدّونه دليل حياهم". فنصوصه كانت تُدرَّس في ذلك البلد على نطاقٍ واسعٍ.

وانهالت برقيّات رؤساء الدول معبِّرةً عن حزن شعوبها، فكتب "هوفويه بوانيي" رئيس جمهوريّة ساحل العاج: "سيحفر غياب فولّيرو فراغًا لا يُعوّض في قلوب

ملايين البشر. وسيظلّ، إلى الأبد، في الضمائر رمزًا لبشريّةٍ، نرجو أن نحقّقها، يومًا، بشريّةٍ أخويّةٍ، ومبادرةٍ إلى المعونة، تحترم وصايا الله، ومتفانيةٍ، جسدًا وروحًا، حبًّا للقريب".

وقال عنه رئيس جمهوريّة ڤولتا العليا: "لقد نقل إيمانه الجبال. لن يبكيه الكبار، قاطنو المدُن الكبرى، بل سيبكيه جميع ساكني الأكواخ، الذين يتمنّى العالم الغنيّ نفيهم عن المجتمع".

وكرّست صحُف مدغشقر، والبرازيل، وأميركا اللاتينيّة، مواقع رحبةً للإشادة بمنجزات ذلك الإنسان الفذّ. ودعت صحيفةٌ كنديّةٌ، قرّاءها إلى الإكباب على مطالعة مؤلّفاته، وإلى نهل "ڤيتامينات روحيّةٍ" منها.

واحتلّ نبأ وفاته الصفحة الأولى في صحيفة الڤاتيكان "الأوسّيرڤاتوري رومانو"، التي خصّصت صفحتين كاملتين للتّعريف بـ "متشرّد المحبّة"، ووفته حقّه صحفٌ سويسريّةٌ وإيطاليّةٌ.

وكانت الصحف الفرنسيّة هي الأكثر نكرانًا لجميله، وتقصيرًا بحقّه، وبُخلاً بإبراز منجزاته. فقد اقتصرت صحفٌ رائدةٌ، مثل "الفيغارو"، اليمينيّة، و"لومانيتي" الشيوعيّة بإشارةٍ مقتضبةٍ وعابرةٍ إلى رحيله، في حين أسهبت صحفٌ محلّيّةٌ، كانت تربط محرّريها بفولّيرو أواصر صداقةٍ، في إبراز مكانته العالميّة.

ولم تُظهر المحطّات التليفزيونيّة اهتمامًا بالحدث.

وكان الإعلام الفرنسيّ قد ارتكب مثل هذا الإهمال المخزي، قبل سنواتٍ بمناسبة وفاة الأب "جوزيف ڤريزنسكي"، مؤكّدًا قول الربّ "ليس لنبيٍّ كرامةٌ في وطنه".

فهل كان هذا التقصير إنكارًا لأحد أكثر مواطنيهم شهرةً عالميّةً، في دنيا المحبّة،

أم إنّ المجتمع المعاصر، تردّى حتّى أمسى أكثر اهتمامًا بأبطال الرياضة، وتفاهة أمراء المال، وأصحاب الأغاني المبتذلة؟

تمّ الاحتفال بجنّاز فولّيرو في كنيسة رعيّته، كنيسة القدّيسة جانّ دي شنتال، بمشاركة سبعةٍ وعشرين كاهنًا، وتألّف الحضور من سفراء الدول الأفريقيّة الناطقة بالفرنسيّة، ومن معظم وزراء الصحّة فيها، ولم يمثّل فرنسا سوى مستشارٍ في وزارة التعاون.

وتلبيةً لرغبة الفقيد أبّنه الأب "كَرّي" (Carrè)، عضو الأكّاديميّة الفرنسيّة، الذي كان قد أبّن صديق الفقيد، الكاتب جان روستان. وجاء في خطاب التأبين:

« في حين يجد بعض المسيحيّين أنّ لفظة المحبّة فقدت طعمها، أعاد فولّيرو للمحبّة كرامتها ورونقها، وأظهرها متفجّرةً من قلب الله تتسامى صعودًا نحو الله عبر خدمة البشر... نصلّي راحةً لنفسه. ودون أن نستبق حكم الله، لا يسعنا إلاّ أن نتخيّله صاعدًا إلى ربّه، محاطًا بموكب جميع البرص، والفقراء، والصغار الذين يؤثرهم المسيح. وهو، بعد اليوم، سيتابع عمله، أكثر من أيّ يومٍ مضى. فرؤية الله هي، أيضًا، رؤية شقاء البشر. وحسب تأكيد القدّيس توما الأكوينيّ، ليس لمختاري الله شيءٌ أكثر أُلوهيّةً، وقدسيّةً من غوث المتألّمين على الأرض ».

وحُفِر على قبره البسيط، المصنوع من الغرانيت الأسود:

راوول فولّيرو (١٩٠٣–١٩٧٧)

وتحت اسمه حُفِر بيتا شعرٍ، من تأليف صديقه، شارل مورّاس:

"دعني، يا ربّ، أرقد في أمان سلامك،

بين ذراعَيْ الرجاء والحبّ".

ومع أنّ محبّته البطوليّة، النابعة من الإنجيل، ومن عظة الجبَل، كفيلةٌ بأن تحجز له مكانةً رفيعةً، في مصافّ القدّيسين، غير أنّ خشية أصدقائه من اعتراضات القضاة الكنسيّين على استقلاليّة تفكيره، وحدّة طباعه، جعلتهم يُحجمون عن المطالبة بفتح دعوى تطويبه، فضلاً عن أنّ فولّيرو نفسه لم يكن ليرضى بأن يُطوَّب بمفرده، بمعزلٍ عن زوجته التي شاركته تضحياته، وإنجازاته. وكان من شأن المطالبة بتطويبهما معًا، استنهاض مزيدٍ من العوائق.

ومع ذلك، لا بدّ من الإقرار بأنّ هذا الثنائيّ الرائع، سيبقى مثالاً فذًّا للثنائيّ المسيحيّ المكرّس للمحبّة.

وفاة راوول حطّمت قلبَ مادلين، زوجته، وهزّت بعنفٍ صحّتها المنهارة، وأودتْ بها إلى سلسلةٍ طويلةٍ ومضنيةٍ من الاستشفاءات، إلى أن وُضعت في مؤسّسةٍ مختصّةٍ أغدقت عليها عنايةً فائقةً، حتّى وفاتها عام ١٩٩١.

لفولّيرو كتابٌ يحمل عنوان "سأنشد بعد وفاتي"، أكّد فيه ثقته، بل يقينه، بأنّ الربّ سيُرحّب به، فاتحًا ذراعيه، ترحيبَ كرّامٍ بالعامل الذي أخصب كرمه، وبالعامل الذي أحسن المتاجرة بالوزنات التي أوكلها إلى جهوده.

الفصل الثامن

مَن هو راوول فولّيرو؟

« طوبى لمن يستطيع أن يقرن، في معركةٍ واحدةٍ، أحلام مراهقته، وتطلّعات شبابه، وعزيمة كهولته »

« تاريخي هو تاريخ جميع فقراء العالم، وأشدّهم بؤسًا: البُرْص »

« قبل أن ندعو إلى الإخاء، عشناه، أنا وزوجتي، مدى نصف قرنٍ على دروب العالم الوجيعة، وصدَّقَنا العالم لأنّنا وعظنا بمثالنا وسلوكنا »

« أظنّ أنّه لو أعدّ كلّ امرئٍ مكانًا لفقيرٍ، على مائدته وفي قلبه، لحلّ ملكوت الله »

"فولّيرو"

وجه المحبّة

ما أكثر الألقاب التي استحقّها راوول فولّيرو! فهو شاعرٌ، وصحافيٌّ، وخطيبٌ مفوّهٌ، رجل قلبٍ، ورجل عملٍ، وهو "متشرّد المحبّة" و"رسول البرص" و"سيّد المنابر"، و"موقظ الضمائر".

وقد عرّف عنه مذيعٌ سويسريٌّ بقوله: "هذا الرجل خطيرٌ. لأنّه يطيح بكلّ مسلّماتنا. وهو مدهشٌ بدفاعه العنيد عن دوافعه ومبادئه، ومدهشٌ لأنّه، بهذا الدفاع الصارم، نسف حواجز دهريّةً من الأحكام الباطلة، والادّعاءات الزائفة المبنيّة على الأنانيّة، والجبن، والجهل. وبذلك أعاد الحرّيّة والكرامة لأكثر من خمسة عشر مليون أبرص، كانت قوانين حمقاء ومجرمةٌ تنفيهم عن مجتمعاتهم، وبيوتهم، وذويهم، وتقضي عليهم بالذلّ والانحطاط، قضاءً مؤبّدًا.

وهو لم يكافح بَرَص الأجساد، فحسبُ، بل كافح بعنفٍ، جميع أصناف البَرَص النفسيّ: الأنانيّة، والتعصّب، والكراهية.

ومن المؤكّد أنّ براعته الخطابيّة، لم تكن كافيةً، ولم تكن، وحدها، قادرةً على إبلاغ رسالة المحبّة. ولا بدّ من الاعتراف بأنّ مصداقيّته وتأثيره كانا انعكاسا لمسيرةٍ أُنفقت على خدمة رسالة المحبّة. وهذا ما أكّده فولّيرو بنفسه، معلنًا: "إنّ رسالة الإخاء والمحبّة التي أطلقها يسوع هي التي ألهمت وقادتْ حياتي كلّها". وهذا ما أكّده أيضًا كاتبٌ صديقٌ له بقوله: "من خلالك أدركتُ ما هو الله".

لم يؤمن فولّيرو، قطّ، بحواجز اجتماعيّةٍ أو سياسيّةٍ، أو دينيّةٍ بين البشر، وما انفكّ يردّد بأقواله، ويثبت بأفعاله، أنّ الإنسان هو إنسانٌ، أيًّا كان، ومن أينما جاء، وهو

يستحقّ محبّتنا واحترامنا. ولطالما رجّعت قناطر الكاتدرائيّات صدى تكراره قول القدّيس يوحنّا: "من يقول أحبّ الله، وهو لا يُحبّ أخاه، فهو كاذبٌ".

ولطالما تساءل: "بمَ ردّ البشر على هذا القول؟". وبَيّن، مفجوعًا، أنّهم ردّوا بالحروب، والمظالم، والمجاعة، والأنانيّة، والجنون المستحوذ على أذهانهم وقلوبهم.

وثبت له أنّه عندما يقول الأغنياء للفقراء، أفرادًا وجماعاتٍ، ومؤسّساتٍ: "اصبروا، وتقبّلوا مصيركم"، فهم حينئذٍ يخونون الإنجيل، وينضمّون إلى زمرة يهوذا".

كان فولّيرو يحمل إجازةً في الفلسفة وإجازةً في الحقوق. ولكنّ الفلسفة لم تساعده إلاّ على تفسير منطق المحبّة، وعلى نشر المحبّة في العالم أجمع. وهو لم يستخدم إجازة الحقوق، إلاّ لمحاربة المظالم الضاغطة على رقاب الفقراء، وعلى استعادتهم حقوقهم المُمتَهَنة، وحرّيّاتهم المسلوبة. فكان "النبيّ" المحذّر من عواقب الظلم، ومغبّات الأنانيّة.

وهو بدفء إنسانيّته، وبصوته الجريء، الذي كان، غالبًا، وحيدًا، سعى إلى افتداء خطايا القرن العشرين، قرن قنابل الفناء الشامل.

من كلّ ما تقدّم، ومن مجرى حياة فولّيرو، يمكن إيجاز وصفه بأنّه وجه المحبّة المتألّق، المحبّة التي كان مجنونها، ومتشرّدها. وفي سبيلها ركب المخاطر، وصار "حاجّ الجحيم" ومحامي الفقراء والأبرياء المظلومين، ومن أجلها تسوّل، وبذل حياته كلّها، وكلّ مواهبه وطاقاته.

وبها دوّن ملحمة وجوده.

محاضرته الأولى، وهو سنّ السادسة عشرة، حملت عنوان "الله محبّة".

وفي إحدى قصائده قال:

« أدركتُ كلّ أسرار الحياة.
والحكمة البشريّة،
ولم أعد أبحث لا عن الزمن، ولا عن العلم،
فقد تعلّمتُ الألم »

وما الألم الذي تعلّمه سوى أوجاع الآخرين التي قضى عمره في مواساتها وشفائها.

وخير ما يكمل رسم وجه راوول فولّيرو هو إيراد شهادات كبار معاصريه فيه.

شهاداتٌ

١- شهادة جان روستان (Jean Rostand) (١٨٩٤-١٩٧٧) عضو الأكّاديميّة الفرنسيّة

(من خطابٍ ألقاه في قاعة المحاضرات في اليونسكو، بتاريخ٧/١٠/١٩٦٥)

« كنتُ قد كتبتُ، إثر غياب الرجل الرائع، الدكتور شْڤايْتسر:

"لدينا علماء ومفكّرون، وقد يكون لدينا عباقرةٌ، ولكن أين هم الرسل؟

وها إنّ لدينا رسولاً، على مقربةٍ منّا، في شخص راوول فولّيرو، الذي يسعدني أن أُحيّيه اليوم، في هذا المكان.

إنّي معجبٌ بهذا الرجل، رجل الله العظيم، شاعر العمل المثاليّ الذي يحوّل الأحلام الجميلة، وقائع مذهلةً. إنّه أكثر من محبٍّ للخير، إنّه رسولٌ.

بأيّة غَيْرةٍ، وأيّة حرارة اندفاعٍ، وأيّ تفانٍ متحمّسٍ، وظّف فولّيرو نفسه، لسنواتٍ عديدةٍ خلت، في خدمة قضيّةٍ من أشدّ القضايا استثارةً للتأثّر، واستنهاضًا للعطف، قضيّة البُرْص.

من أجلها أطلق نداءاتٍ، ودبّج مقالاتٍ، وألقى محاضراتٍ، ونشر كتُبًا، وبخاصّةٍ قام برحلاتٍ على امتداد الكرة الأرضيّة، من أجل التواصل مع أولئك البشر المصابين، إصابةً أليمةً، في أجسادهم، وفي أرواحهم، لكي يقدّم لهم دعم أُخوّةٍ حارّةٍ.

بجهده الدائم، وباهتمامه العنيد استحقّ صفة المحبّة، فالمحبّة صفةٌ كبرى يصعب عزوها إلى إنسانٍ، بعد أن شوّهها رهطٌ من الفرّيسيّين، فغدت تبدو لنا مشبوهةً، عندما لا يضمن مصداقيّتها عملٌ رائعٌ، وماضٍ مثابرٌ.

عام ١٩٥٤، وجّه فولّيرو نداءً بليغًا إلى الزعيمَيْن الكبيرَيْن، اللذين كانا، آنذاك، ينفردان بامتيازٍ هائلٍ، يمكّنهما، بكلمةٍ واحدةٍ، إنهاء المسكونة. وكانت خلاصة ندائه: "فليتخلّ لنا كلٌّ منكما عن قاذفة قنابل واحدةٍ، فنستطيع معالجة بُرْص العالم أجمعين".

وكرّر هذا المسعى عام ١٩٥٥، وعام ١٩٥٩، وعام ١٩٦٢. وفي هذه الأثناء كان سيِّدا الكرة الأرضيّة قد تغيّرا، غير أنّ خلفاءهما استمرّوا في موقفهم الرافض للاستجابة، مؤثرين تصنيع طائرات القتل على غوث البُرْص.

إنّ مكافحة هذا الداء المريع، مكافحةً مجديةً، لا تقتضي ميزانيّةً باهظةً، بما أنّ الطبّ قد أوجد لها علاجاتٍ، واختبر جدواها، وباتت معروفةً، ولا تستلزم، كما يستلزم السرطان تمويل أبحاثٍ ثقيلة الكلفة، وغير مؤكّدة النتائج، في حين أنّ المال الذي يُنفَق على علاج داء البَرَص مضمون التأثير، وما الإحجام عن استخدامه إلاّ إيثار استمرار عذاب البُرْص، وموتهم.

وها إنّ فولّيرو يعيد الكرّة، ببراءة الأبرار، مشدّدًا، مثابرًا، موسّعًا آفاق رسالته، غير قاصرٍ استجداءه، الآن، على أعزّائه البُرْص، بل شاملاً جميع البشر في العالم الذين يعانون البؤس، والجوع، والمرض، الذين يمثّلون ثلثي سكّان الكرة الأرضيّة.

وأيّةً كانت، في الوقت الراهن، نتائج مبادراته الحديثة، أظنّ، بل أعتقد أنّ مساعيه تستأهل الثناء، وأنّها على المدى الطويل، ستُثبت خصبها، لأنّه من الجيّد، دائمًا، ومن الصحيح دائمًا، فضح التبايُن بين الميزانيّات الموقوفة على الأسلحة، وتلك المقرّرة من أجل التعليم، والتثقيف، والمستشفيات، ومن أجل حماية الضعفاء والعاجزين، مقابل ما يُهدَر على صنع أدوات القتل والتدمير...

لقد ارتقت مثاليّة فولّيرو، دائمًا، فوق الصراعات السياسيّة، ومع ذلك يسعني القول بأنّه من فئة الرجال الخطيرين، الذين يؤثرون رؤية بناء مستشفًى أو مخبرٍ على بناء معمل طائراتٍ ذرّيّةٍ... وهو من أصحاب الأفكار الشاذّة الذين لا يقيّمون الانتصارات بعدد القتلى، بل بعدد الحيوات التي أُنقِذت، ويفضّل تقديم سُلفوناتٍ للبُرْص، على إرسال صواريخ إلى حيث لا أدري.

قلتُ إنّه صديقٌ للبشر. وهو لا يتّخذ من هذه الصداقة منصّةً انتخابيّةً، ولا يستغلّها لغاياتٍ شخصيّةٍ، فحسبُه أن يكون رئيس "نظام المحبّة" النظام الذي يتعاطف تلقائيًّا، وبيولوجيًّا، مع كلّ إنسانٍ أيًّا كان جنسه، وأيّةً كانت عقيدته وفلسفته، وإيديولوجيّته، ويشعر نحوه بالعطف الذي يجب الشعور به، حيال قريبه، بمجرّد أنّه يحمل مثل القيم والأسرار التي تفرض علينا احترامها لدى الآخرين، حسب قول الدكتور شْفَايْتسر، منقطع النظير ».

٢- شهادة الأب پير (Pire) (١٩١٠-١٩٦٩) الحائز على جائزة نوبل للسلام

« لقد أمضيتُ بضع ساعاتٍ مع الدكتور "شْڤايْتسر"، طبيب الغابات البكر، ومع راوول فولّيرو، رسول البُرْص.

فلنحيِّ، باحترامٍ، مُنقذَي البشريّة هذين! إنّهما منقذان لأنّهما قبل كلّ شيءٍ إنسانان حقيقيَّان، وقامتان عملاقتان، صادقتان، ويدينان بأعظم احترامٍ للإنسان المتألّم، ويؤمنان بوجوب تبوّؤ المحبّة المكانة الأولى في العالم.

وما أطيب التقاء أشخاصٍ على هذا القدر من الرقيّ!

ومع ذلك ما لقّناه مغرقٌ في البساطة: على كلّ امرئٍ أن يبقى ويشعّ، حيث وضعه الله.

لم يسعَ أيٌّ منهما إلى استقطاب حشود قلوب محسنين كرماء، ولكنّهما استمالا قلوبًا رومنسيّةً تمزج المحبّة التي تهب ذاتها، بالانطباعات السطحيّة التي تنتجها ملامسة البؤس.

فليكن، إذن، كلّ امرئٍ في مكانه: فليدرس الطالب، ولتلتزم ربّة المنزل بمنزلها، وليجتهد الموظّف في عمله، وليهب الرسول ذاته، وليفكّر كلّ إنسانٍ بجميع الآخرين، إذ إنّ كلّ إنسانٍ مسؤولٌ عن جميع البشر الآخرين، وعن العالم أجمع ».

٣- شهادة الجنرال شارل ديغول:

بفضل وجه راوول فولّيرو المشرق، وبفضل عملـه الرائـع، مـا زال اسـم فرنسـا يقترن، في نظر أشدّ البشر حرمانًا، بمُثُل السخاء الذي يصنـع عظمـة بلادنـا

التوقيـع

٤- شهادة الكاتب الشهير "دانيل روبس" (Daniel Rops) عضو الأكاديميّة الفرنسيّة

في معرض دفاعه عن ترشيح فولّيرو لجائزة نوبل للسلام، كتب "دانييل روبس":

« لقد بادرت اثنتان وعشرون دولةً إلى ترشيح الفرنسيّ راوول فولّيرو، رسول البُرص، لنيل جائزة نوبل للسلام، وسرعان ما انضمّت إليها جمعيّاتٌ معنيّةٌ بالمشاريع الاجتماعيّة والخيريّة.

ولا معدى عن الإقرار بتميّز هذا الرجل ذي القبّعة العريضة، ورباط العنق غير المربوط، والذي ما انفكّ، منذ عشرين سنةً، يطوف العالم في سبيل قضيّة البُرْص التي يكاد ينفرد بالدفاع عنها، والإضاءة على عواقبها الوبيلة، والدعوة الملحّة إلى إيلائها ما تقتضيه من اهتمامٍ.

ولئن كانت البلدان التي بلغت مرتبةً رفيعةً من الحضارة، في القرون الوسطى قد عكفت على استقصاء أسرار هذا المرض الوبيل، الذي كان يشيع الرعب في المدن والأرياف، في فرنسا وفي بلدانٍ أوروپيّةٍ أُخرى. غير أنّ هذا الداء ما زال فتّاكًا بجماعاتٍ غفيرةٍ في العالم الثالث. وقد أخذ راوول فولّيرو على عاتقه، منذ خمسٍ وعشرين سنةً، بهذا الواقع المريع.

لقد أشار نائب رئيس مجلس كاليدونيا الجديدة، في رسالةٍ إلى لجنة نوبل في أوسلو، قال فيها: "لا ريب أنّ راوول فولّيرو هو الإنسان الذي اتّصل بالبُرْص، وضمّهم بين ذراعيه، وقبّل أكبر عددٍ منهم. وهو، بمصافحتهم وتقبيلهم، أعاد لهم، في أحيانٍ كثيرةٍ، كرامتهم الإنسانيّة، وشفى الأصحّاء من خوفهم الباطل حيال هذا المرض".

ولطالما صُوِّر وهو يقود، فتاةً برصاء إلى الهيكل، في موكب زواجٍ، في إطار محجر بُرْصٍ. وشوهد، مرّاتٍ عديدةً، حاملاً على ساعديه طفلاً أبرص، ولطالما سمعه كثُرٌ يتحدّث عن أصدقائه البرص، بقوّة إقناعٍ تُزري بكلّ أساليب الفصاحة.

وهو مؤسّس "يوم البَرَص العالميّ" الذي يُحتَفَلُ به، اليوم، في العالم أجمع.

ولقد راسل قادةً سياسيّين، مبيّنًا لهم أنّ ثمن قاذفتَي قنابل كفيلٌ بمعالجة جميع بُرْص المسكونة، وشفاء قسْطٍ كبيرٍ منهم.

في أكثر من خمسة عشر بلدًا، مراكز طبّيّةٌ واجتماعيّةٌ تحمل اسم راوول فولّيرو، وكان هو قد أسّسها من أجل مكافحة البَرَص.

وقد أعلن أحد الخطباء، في مؤتمر عُقد في طوكيو، عن البَرَص: "إنّ خمسة عشر مليون كائنٍ بشريٍّ قد وضعوا آمالهم في راوول فولّيرو".

أليست هذه مبرّراتٍ مقنعةً من أجل ترشيحه لجائزة نوبل للسلام؟

وتُرى كم منّا يستطيعون ادّعاء تحقيق إنجازاتٍ، على هذا القدر من الصعوبة والتجرّد؟

وهل عَمِل الدكتور ألبير شْفَايْتسر، والأب پير أكثر منه؟

لقد رشّحته دولٌ منتسبةٌ إلى الجماعة "الأفروآسيويّة"، أوَليس من المستحبّ أن يشارك في هذا الترشيح ممثّلون مؤهّلون عن الغرب؟

وألا يجدر بالحكومة الفرنسيّة الإسهام في هذه المبادرة؟

ولمَ لا يتشرّف بتبنّي هذه المبادرة فرنسيّون حاصلون على جائزة نوبل للسلام: "الدكتور ألبير شْفَايْتسر، والأب پير، وأيضًا فرنسوا مورياك، وهمنغواي، وآخرون، وحتّى الأكّاديميّة الفرنسيّة التي منحته جوائز؟

وعلى الأقلّ فلتكن هذه شهادةً لرجل الخير هذا، رجل الجرأة الذي طالما ردّد شعار: "الحقيقة الوحيدة هي المحبّة المتبادلة".

٥- مقتطفات من كتاب "جان ڤرني" (Jean Vernet)

"راوول فولّيرو متشرّد المحبّة" (١٩٥١)

إذا استفسرتَه عن صحّته، لرمقَكَ مدهوشًا، ثمّ حالمًا. وكأنّه حيال سؤالٍ غريبٍ، أو مسألةٍ صعبة الحلّ.

ولا تسأله هل كانت رحلته موفّقةً، لأنّه لن يذكر عن أيّة رحلةٍ تستوضحه. فهو في كلّ مكانٍ وكأنّ في العالم شخصين، أو ثلاثةً، أو عشرة أشخاصٍ يحملون اسم راوول فولّيرو. ومع ذلك، عندما تتعرّفه عن كثبٍ، ستتيقّن أنّه نموذجٌ فريدٌ.

لقد شاهده الهنود، ذات يومٍ، يحطّ بطائرته، على جبلٍ يعلو أربعة آلاف مترٍ، ورآه الزنوج يجتاز البحيرات على متن زورقٍ، ورآه الطوارق يترجّل على أقصى واحات الصحراء الكبرى، ذات مساءٍ. إنّه يجول، في القارّات الخمس، متحدّيًا داء مفاصلَ مزمنًا، يقابله بأعمق ازدراءٍ.

وفي كلّ مكانٍ، هو هو، بوجهه المستدير الفَرِح، وعينَين مراقبتَيْن لا تغيض لهما بسمةٌ، وبالوشاح الأسود المحيق بعنقه وصدره، وبعكّازٍ مزدانٍ برأس حيوانٍ، يتعذّر التأكيد هل هو رأس دُبٍّ، أو رأس كلبٍ. وقد أصبح هذا الزيّ التقليديُّ أُسطوريًّا، في العالم أجمع.

الأميركيّون يُسمّونه "متشرّد المحبّة"، والأفريقيّون "رسول البُرْص". فهو منذ عام ١٩٢٥ يجوب العالم، داعيًا إلى المحبّة. وقد قدّم آلاف المحاضرات، في معظم بلدان العالم، وفي ظروفٍ وأماكن غير متوقّعةٍ، أمام ملوك العالم، ورؤسائه، وعند البُرْص في قلب الغابات البكر، وحتّى على منابر الكاتدرائيّات.

واللافت هو وحدةُ تلك الحياة الرائعة التي اتّخذت من المحبّة محورًا لها. ففي شبابه باشر مهنةً أدبيّةً أثبتت أنّها واعدةٌ. وفي سنّ الخامسة والعشرين عُلِّقت

لافتـةٌ تحمـل اسـمه، علـى واجهـة مسـرح "الكوميـديا الفرنسـيّة" (la comédie française)، حيث كانت ممثّلةٌ شهيرةٌ تتلو قصائده.

وقُدِّمت بعض أعمالـه المسرحيّة آلاف المرّات، ولاقت بعض قصائده، ترحيبًا حارًّا، مثل قصيدة "فداء"، وقصيدة "أُومن"، حيث هتف: "أومن بالله المحبّة".

ولـم تكن مسرحيّة "دمًى صغيرةٌ" إلاّ دفاعًا بليغًا ومؤثّرًا عن مصالح الفقراء، والبائسين، والمنبوذين. ومن خلال الشاعر كان يتجلّى الإنسان، ومصيره الفذّ، علـى دروب المحبّـة، الـذي كـان قد حدّده بأنّـه "حمايـة الحضـارة المسيحيّة مـن جميع أصناف الوثنيّة، وجميع الهمجيّات".

ولمّـا استوضـحه صـحافيٌّ برازيلـيٌّ عمّـا يعنيـه بالحضـارة المسـيحيّة أجـاب: "المسيحيّة هي الثورة بالمحبّة".

- - - - - - - - - - -

وهو منـذ التقائـه بـالأب القدّيس شـارل دي فوكـو مـا انفكّ عملـه فـي ميـدان المحبّة يتّسع بدءًا بانكبابه على خدمة الأشدّ إهمالاً ويأسًا، أولئك الذين ينبذهم المجتمع ويلعنهم: البُرْص.

لقد نال مرّتين، عام ١٩٤٧، ثمّ عام ١٩٥٠ جائزة الأكّاديميّة الفرنسيّة، التـي تكرّم بها كبار المحسنين إلى البشريّة، والمعروفة باسم "مونتيون" (Montyon).

وهو، بلا منازعٍ، من أعظم خطبـاء زمانـه بلاغةً، ومن أشدّهم صرامةً، وقدرةً علـى الإيضـاح والإقنـاع، بحيث أقرّ رجلٌ أعمـى، وهو خـارجٌ من الاستماع إلـى إحدى محاضرات فولّيرو: "للمرّة الأولى أرى".

وقـال الصـحافيّ "لنجيـڤـان" (Langevin) عـن فـولّيرو: "إنّـه خطيـبٌ منقطـع النظير، وهو إحدى قوى الطبيعة. إنّـه نبـعٌ لا يخمد تفجّره، تـارةً يستولي عليـه جمـوح طبيعتـه الفـوّارة، وطـورًا يدفعـه حمـاس جمهـوره الـذي يسـتعذب العبـارات الجيّاشـة، والمـؤثّرات شـديدة الوقـع. وهو نقيض الـديماغوجيّ. إنّـه رجل صدقٍ

منيع الأركان. صدقه وتجرّده المطلق يسعّران حماس أصدقائه، ويفرضان تقدير الجميع. شخصيّته تفرض ذاتها، ومثاله يجرّ في إثره زرافات القلوب الشابّة القادمة من كلّ أُفُقٍ. وقد استأهل شهادة معاصرٍ له خاطبه قائلاً: "إنّك محامٍ، والقضيّة التي تدافع عنها، منذ عشرين سنةً، أمام جميع محاكم العالم، هي الأجمل. ولذلك أنت تربح كلّ دعاواك. ومع ذلك أنت، في الواقع محامٍ غريب السلوك، لأنّك لم تقبل أبدًا تقاضي أتعابٍ.

وبالإجمال، راوول فولّيرو هو "متشرّد المحبّة"، و"رسول البرص"، و"مبشّر الأخوّة". لعلّ العالم المنهك بالأنانيّات، والبؤس، يصغي إلى صوته المتّقد، ويتبنّى، بلا تلكّؤٍ، شعاره الذي يوجز برنامجه:

"ستنقذ المحبّة العالم".

٦- شهادة الجنرال ڤيغان (Wegand)

يوم ١٧ تمّوز ١٩٥٦، احتفلت بلديّة باريس بمنح راوول فولّيرو ميداليّة الشرف، بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لانطلاقه على دروب المحبّة.

و"على دروب المحبّة"، هو أحد كتب راوول فولّيرو الأولى، وقد سعدتُ بوضع مقدّمةٍ له، لعشرين سنةً خلت. ومن خلال هذا الكتاب اقتادنا فولّيرو، عبر الرسالات الأفريقيّة التي تضطلع بها راهبات سيّدة الرسل، اللواتي شاركهنّ فولّيرو، لاحقًا، بناء مدينة "أدزوپي" (Adzopé)، وظلّ فولّيرو، طوال حياته يطوف على دروب المحبّة. وقدّر أحد هواة الإحصاءات أنّه اجتاز، في سبيل خدمة الفقراء، نحو مليوني كيلومترٍ.

يعلم الجميع أنّ ما تعجز الأرقام عن قوله هو التأثير المزلزل الذي خضّ من سمعوا صوته الزاخر بتناوب الغضب المقدّس، والعطف الرقيق. ففي مسرح الشاتليه (Châtelet) في باريس، حيث كان يتراصّ، كلّ سنةٍ آلاف الفرنسيّين، من أجل سماعه، وكان هذا الصوت قد هزّ قلوب مستمعيه حتّى كيبك، وتاهيتي، وأمستردام، وجزر موريشيوس، حيث كان صوته الأَخويّ والصارم في آنٍ واحدٍ، قد خضّ الضمائر، واستنهض الهمم.

قيل إنّ فولّيرو وزّع خلال هذه السنوات الثلاثين، ملياري فرنك قديمٍ. هذا جميلٌ، ولكنّه ليس كلّ شيءٍ، وليس هو الجوهريّ، فما سيبقى منه هو مثال حياةٍ بُذلت بأكملها للأشدّ بؤسًا، وإهمالاً. وهو نموذج إنسانٍ انكبّ بشغفٍ على مشروع عدْلٍ وحبٍّ، وانتصر، في "معركة البرَص" على جهلنا، وأنانيّتنا، وفرض نفسه بجرأته وإيمانه، أكثر ممّا فرضها بمواهبه.

فولّيرو المراهق مع أسرته (الأول إلى اليسار)

عام ١٩٢٩، في سانتياغو - الشيلي - بين رهبانٍ

عام ١٩٧١ – افتتاح مدينة أدزوپـــي

في أدزوپـــي ١٩٧١: هنا لم يعد البَرَص لعنةً

برصٌ مشوهون منبوذون ملعونون

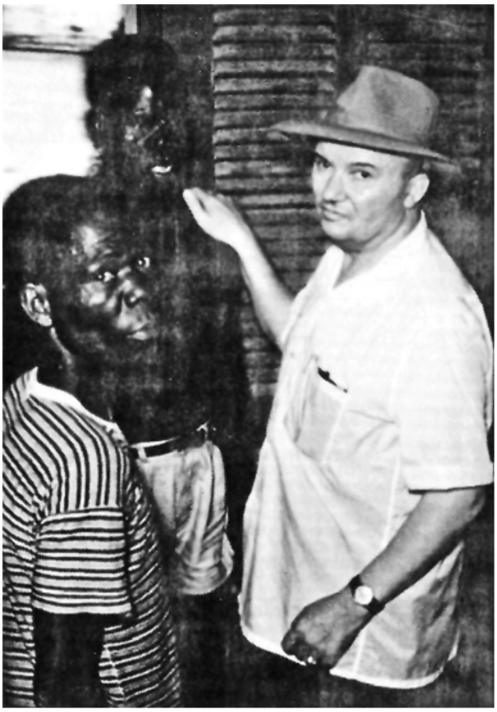

"هؤلاء هم أصدقائي،
ما تستطيعون فعله من أجلهم"؟

يقبّل البرص

قبل بعد

برصٌ عولجوا وشفوا

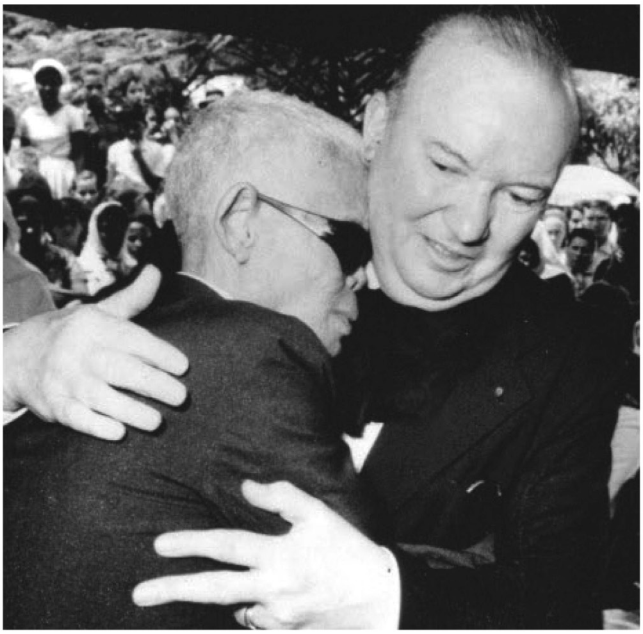

تعامله مع مريض الجذام

تبادل نظرات محبّةٍ

يخرج بصعوبةٍ من الكوخ

يداعب الأطفال بعصاه

في الباراغواي

وفي تاهيتي

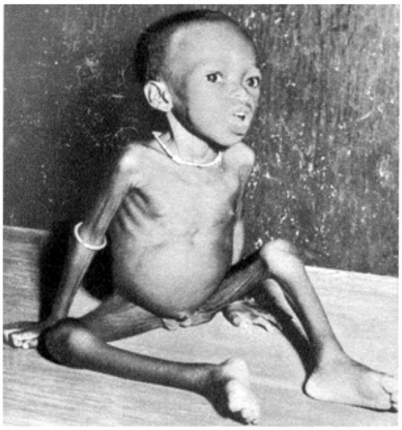

مناظر جوعٍ

رؤساء فولتا العليا ، وداهومي، والنيجر يعايدون البرص

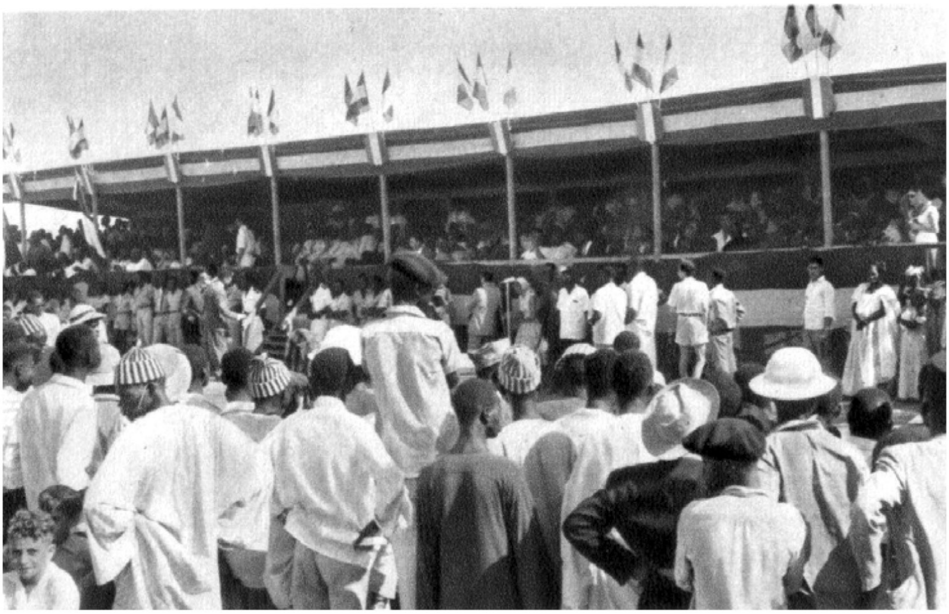

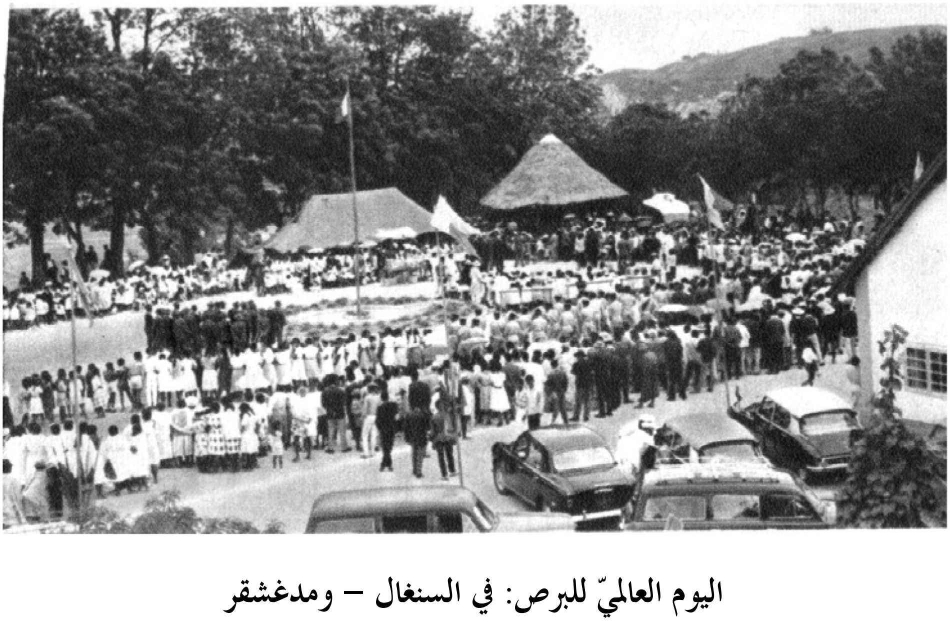

اليوم العالميّ للبرص: في السنغال – ومدغشقر

في جزيرة الريئيونيون

مرضى البرص في مستشفى ليوبولد فيل في الكونغو، يرحبون بـــ "بابا راوول"

بمناسبة يوبيل زواجهما الذهبي

"حظّ حياتي الأكبر هو زوجتي"

في ذكرى ميلاد راوول السبعين – ١٩٧٣

راوول ومادلين في ذكرى زواجهما الخمسين – ١٩٧٥

رئيس ساحل العاج "هوفيت بوانيي" يفتتح المعهد الوطنيّ للبرص

عام ١٩٥٥، بمناسبة يوم البرص العالمي في ساحل العاج

يراقبان معًا تشخيص المرضى في "عيادةٍ تحت الأشجار"

مستوصفٌ متجوّلٌ

الشبيبة تلتفّ حوله

و تصغي إليه بانتباهٍ

الخطيب

عام ١٩٤٨، فولّيرو واعظًا في كاتدرائيّة "تور" Tours

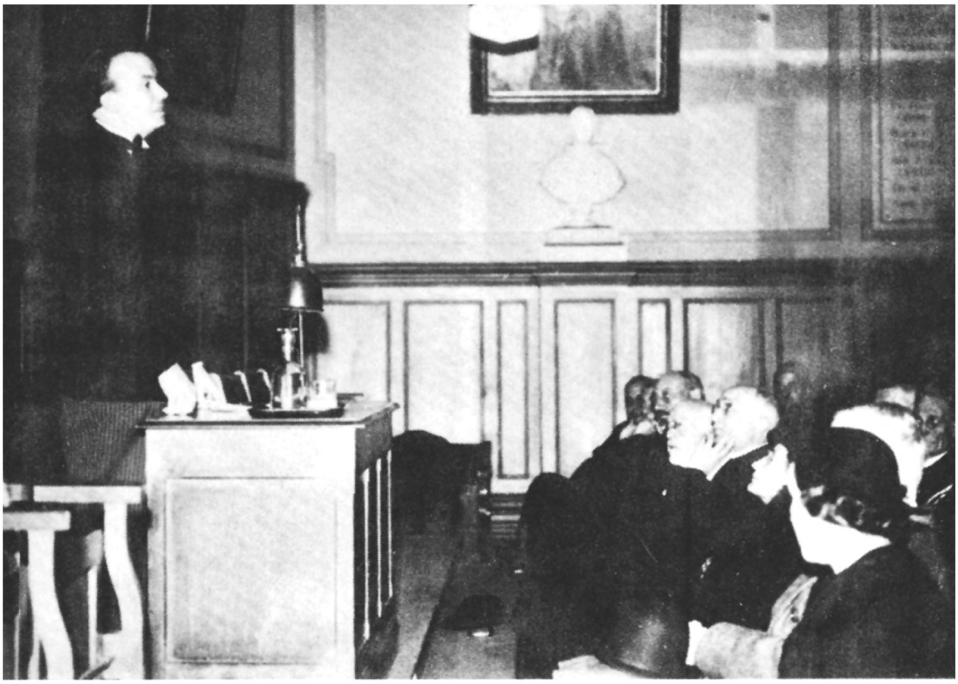

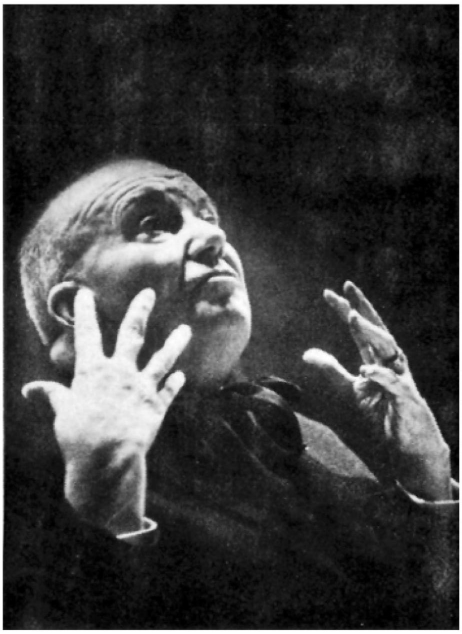

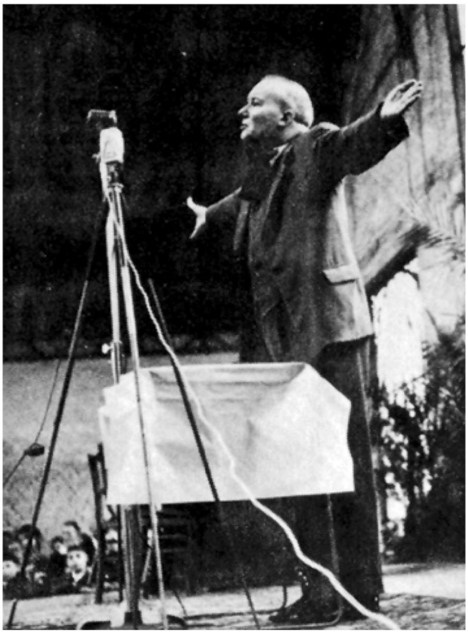

إشارات الخطيب

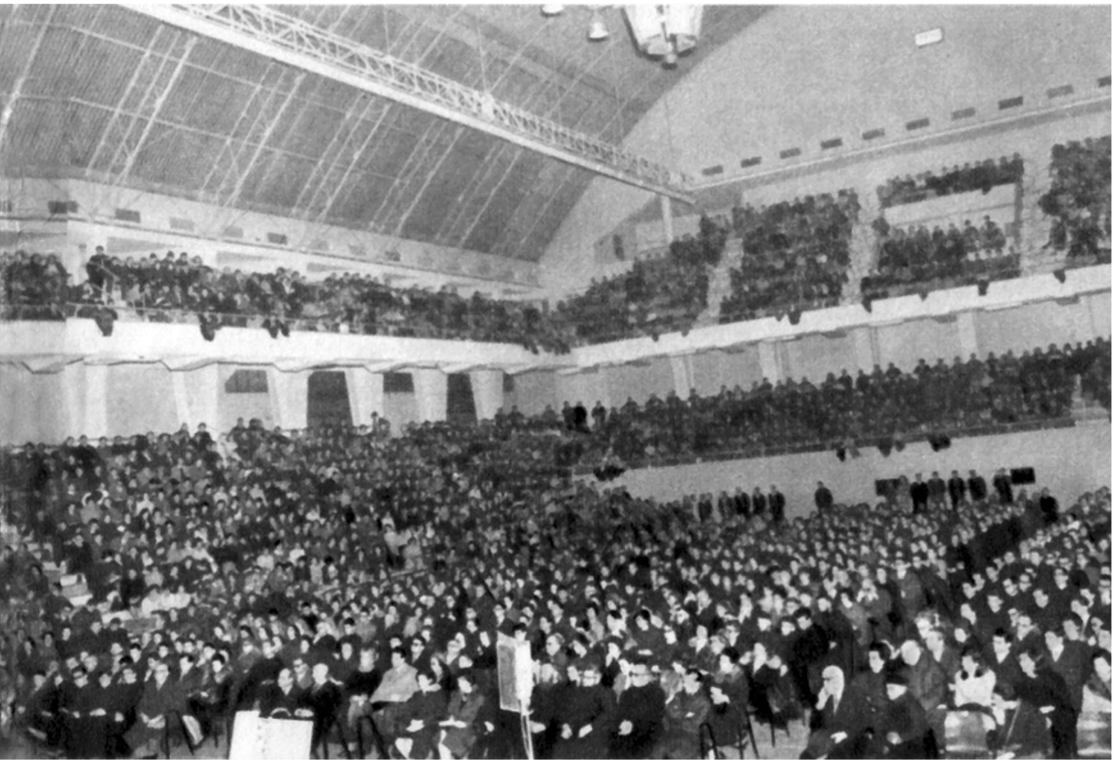

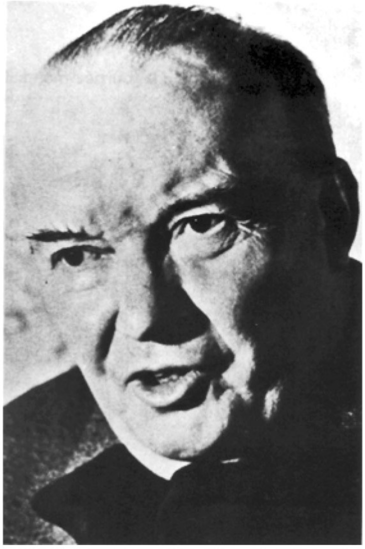

وعام ١٩٦٧

فولّيرو عام ١٩٥٠

البابا بولس السادس يستقبل راوول فولّيرو – ١٩٦٤/٧/٤

مع الرئيس اللبناني شارل حلو

تدشين شارع راوول فولّيرو في سانت إيتيّينّ

مرضى يتسابقون لنيل العلاج المفيد

١٩٦٩، مع أندريه ريسيبون ، رئيس مؤسّسات فولّيرو في فرنسا

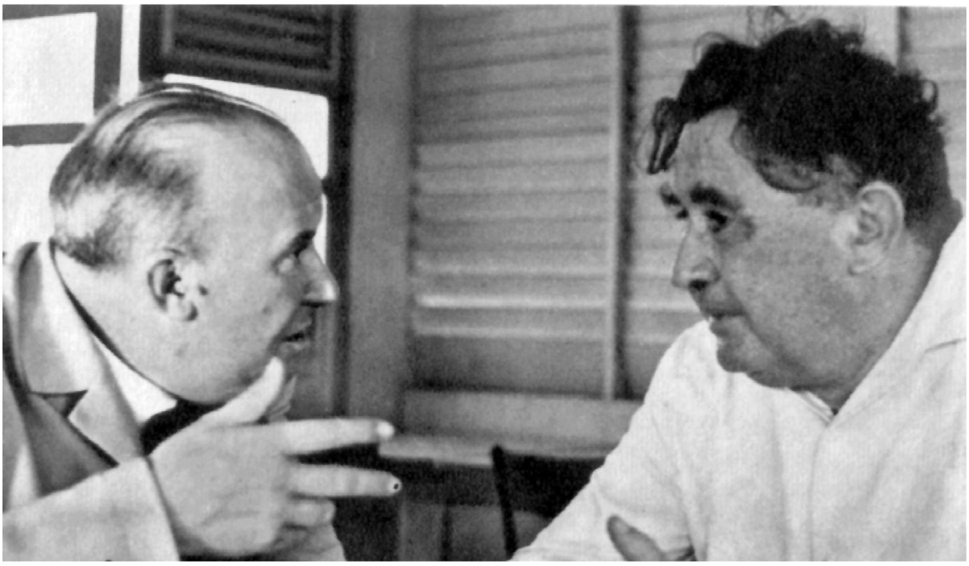

في المرتينيك، فولّيرو مع الدكتور "مونتستروك" مدير معهد پستور، ومن كبار مكافحي البرص

عند ضريح الأب داميان القدّيس في "مولوكاي"

مع البُرْص في أفريقيا

وفي آسيا

شكرٌ مدوٍّ من برصاواتٍ سابقاتٍ أصبحن فتياتٍ كالأخريات

البرص في تاهيتي يرقصون ترحيبًا بمنقذهم

الشباب المشاركون في التوقيع على بطاقات "يوم تسلّحٍ من أجل السلام"

فولّيرو وزوجته يعدّان الأرومات

بيير ريشيه وراوول فولّيرو

مع رئيس أساقفة مدراس وأمين عامّ الاتحاد الهنديّ لغوث البرص (وهو أبرص سابقٌ)

"يوم حربٍ من أجل السلام"

فولّيرو يتحدّث عن الحملة التي بدأها منذ ثلاثين عامًا ضدّ البرَص

مع ملك بلجيكا وزوجته في بولامباكّان (الهند)

بمناسبة يوم البرَص العالميّ الحادي عشر

الدكتور پيير ريشيه يقلّد فولّيرو وسام الشرف في أدزوپـــي

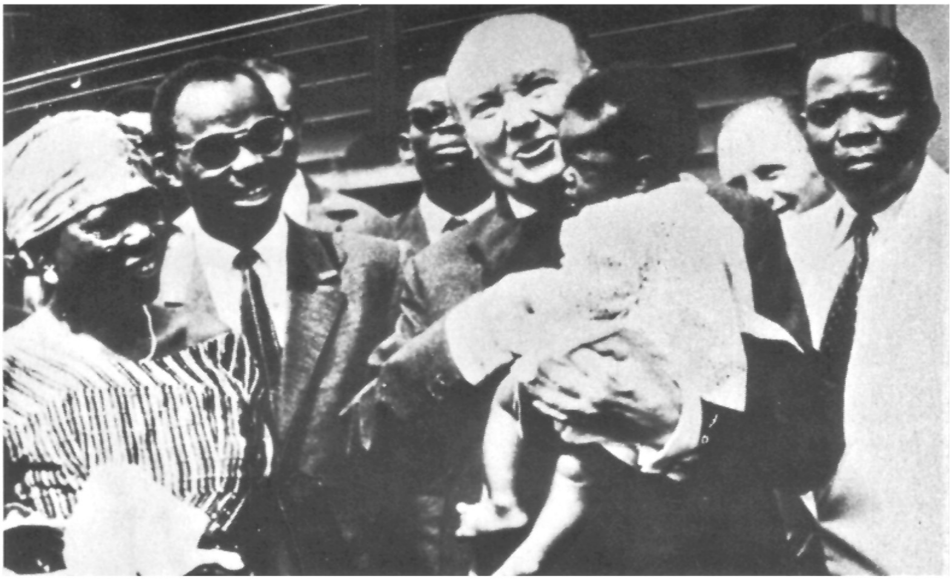

في الكونغو يوم الاستقلال عام ١٩٦٠

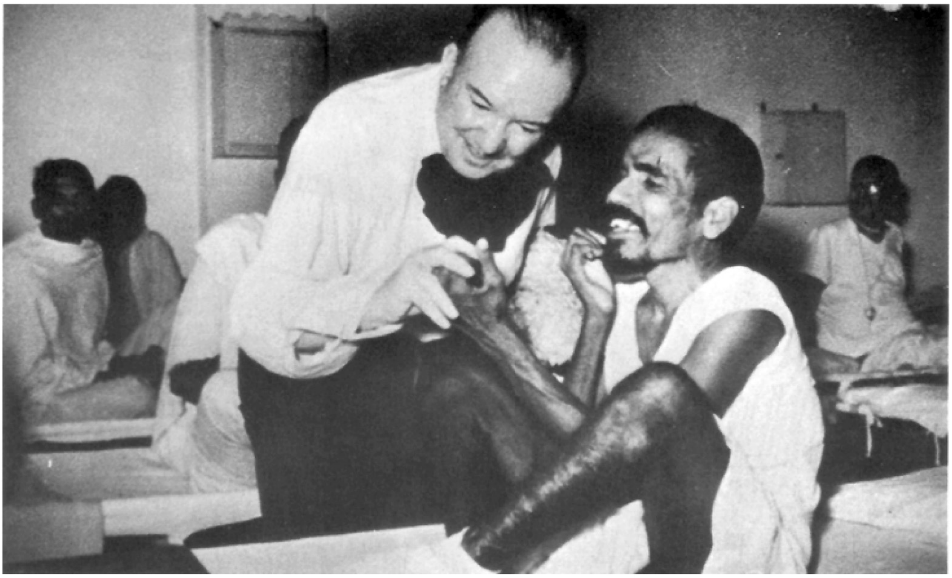

مع أبرص في الهند ١٩٦٥

أصدرت بعض الدول طوابع باسمه تكريمًا له

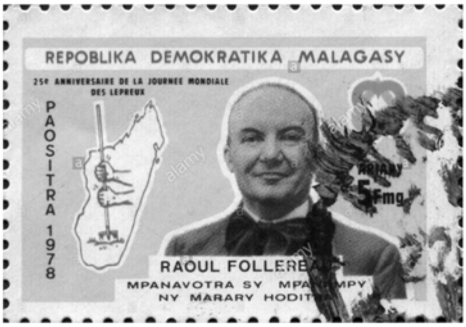

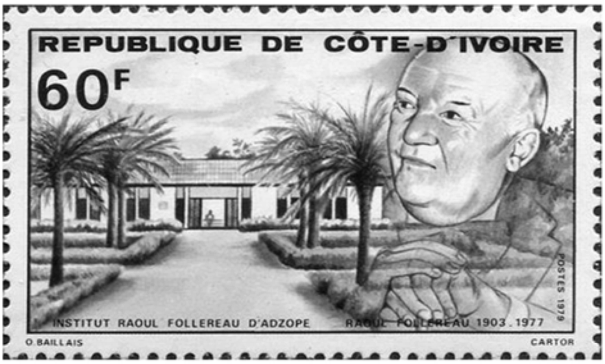
REPUBLIQUE DE CÔTE-D'IVOIRE
60F
POSTES 1979
INSTITUT RAOUL FOLLEREAU D'ADZOPE
RAOUL FOLLEREAU 1903 . 1977
O.BAILLAIS
CARTOR

REPUBLIQUE FRANÇAISE
1,90
PERE DES LEPREUX
RAOUL FOLLEREAU 1903-1977

REPUBLIQUE UNIE DU CAMEROUN
DISTRIBUTION DES FOYERS DE LEPRE DANS LE MONDE
100F
POSTE AERIENNE
25e journée mondiale des lépreux
Raoul FOLLEREAU
UNITED REPUBLIC OF CAMEROON
M. VUILLAUME
CARTOR

REPUBLIQUE POPULAIRE
DU BENIN
POSTES 1987
G. HANSEN
R. FOLLEREAU
LUTTE CONTRE LA LÈPRE 200F

150 F
RÉPUBLIQUE DE CÔTE-D'IVOIRE
Raoul FOLLEREAU
Cinquantenaire de la Croisade Mondiale de Lutte contre la Lèpre — 1942-1992
"Personne n'a le droit d'être heureux seul".
Raoul FOLLEREAU
POSTE 1994
M. BONDURAND

REPUBLIQUE POPULAIRE DU BENIN
POSTES 1978
1er ANNIVERSAIRE DE LA MORT DE
RAOUL FOLLEREAU (1903-1977)
200F
JOSEPH KPOBLY
CARTOR

مادلين فولّيرو مع الدكتور شفيتزر قبيل وفاته

رحلة مادلين فولّيرو الأخيرة إلى ساحل العاج ١٩٨١

الفَصْلُ التَّاسِعُ

قصائد، وصلواتٌ، وخواطر، وأقوالٌ

« إذا ابتغيتَ مساعدة الآخرين، فوطّن عزمكَ على كتابة ما قد يدينه بعضهم »

"توماس مرتُن"

« كلّ عملٍ عظيمٍ يقتضي قَسَمًا مع الذات، قد يكون الالتزام به شاقًّا. ولكن بمعزلٍ عن هذا القَسَم لا يتحقّق أمرٌ عظيمٌ »

"أندريه موروا"

قصائد وأدعيةٌ

وصيّتي

عندما ستنجز نفسي مهمّتها على الأرض، وتتأهّب للرحيل إلى الله، سعيدةً، رشيقةً، حاملةً سرّها العذب والرهيب، أريد إعلان هذا الوداع الأبديّ:

"أنتم، يا جميع المعذّبين، يا مَن تترجّع آهاتهم المفجعة بعيدًا، في عذوية الأُمسيات.

"يا من يبهظ جباههم الرازحة تحت عبء الخوف، ألمٌ أسودُ مُبهَمٌ. انهضوا، تحرّروا من هذا الأسر!

ومدّوا سواعدكم الهزيلة نحو النور المقدّس، لأنّ الحياة معرفةٌ.

انبذوا كلّ الشرور: الليل، والقبر، وكافحوا الكبرياء، والجبن، ببسالةٍ. آمنوا بالرأفة، تلك الإلهة الرقيقة، الرائعة التي ستنقذ الإنسانيّة. وكونوا مستعدّين للموت في سبيل التآخي، واجأروا بحكمكم في وجه العالم، لأنّ الحياة نضالٌ.

وليواكب رجاءكم إيمانٌ صافٍ، كلّيٌّ. وأعلنوا للعالم ظمأَكم إلى الجمال، وانشروا مُثُلكم العليا في جميع الأكواخ، وفي أصغر القلوب، واخلقوا صيفًا حافلاً، واعشقوا الشمس، والضوء، والنور، فالحياة إنشادٌ وغناءٌ.

أصمّوا آذانكم عن الأقوال الشرّيرة، واجعلوا الأحلام الكبرى المغروسة في التربة تزهر.

وافتتنوا، دائمًا، بنظرةٍ ضاحكةٍ، وفمٍ منشدٍ، لأنّ الحياة حبٌّ.

صلاة فولّيرو المراهق

« كم أودّ، ربّي، مساعدة الآخرين على الحياة، جميع الآخرين، إخوتي، الذين يعانون ويتألّمون، وهم يجهلون لماذا يعانون، ويتألّمون، بانتظار أن يحرّرهم الموت.

كم أرغب، يا ربّ، في مساعدة الآخرين على العيش، بمنأًى عن الصَدَقَة المُذِلَّة، التي توحي بها رأفةٌ عقيمةٌ. إنّ حماية الفقراء من الموت أمرٌ حسنٌ. ولكن، إذا كانت هذه الحماية تُفضي إلى تجرّعهم سكرات الموت مدى حياتهم كلّها، وإلى جعل حياتهم موتًا متواصلاً، سأكون متواطئًا على هذا الاغتيال، كلّما احتفظت لنفسي بالفائض الذي يلزمهم كي يحيوا بكرامةٍ.

إنّ تقاسم ثروات العالم، تقاسمًا تصبغه الصداقة، هو مساهمةٌ في عمل خلقك.

كم أودّ، يا ربّ، في مساعدة الآخرين، جميع الآخرين، إخوتي، الذين يتعاركون، ويترنّحون في الفراغ...

ويمزّق بعضهم بعضًا، ويدوس بعضهم بعضًا، بقلوبٍ مقيّدةٍ، وبضمائر خانعةٍ، طمعًا في جمع حفنة مالٍ باطلٍ، يفسد وجود مصائر لا تحصى.

هبني أن أقفَ حياتي على محاولة تحريرهم من استعجالهم، كي يتّجهوا إليك، متحرّرين، من صخبهم كي يسمعوك، ومن ثرواتهم كي يفهموك، ومن حقارة كبريائهم كي يستوعبوا معنى السلام الذي وعدتَهم به...

إذا كانت هذه هي مشيئتك ».

ماذا فعلنا بك يا ربّ؟

ماذا فعلنا بك، يا ربّ؟

أَمُحاسبًا، وأمين صندوقٍ؟

أَسَاحرًا ينتقم ويلعن؟

أَبَقّالاً يبيع للأتقياء الزائفين محاضر صغيرةً في الجنّة،

أنت يا مَن تتجلّى قدرتُه كلّها في أوضع مبادرة محبّةٍ!

ربّي، زد الأبرار قوّةً. ولكن أكثر ما نرجوك هو أن تجعل الأقوياء أبرارًا وعادلين.

رجاءٌ

إنّي أوكل ذاتي إلى الله، إلى من الرحمة هي كمال قدرته،
إلى من هو معونتي وملجأي!
وأُوكلها إلى من استنهضَتهم نعمته، وتلقّوا أنواره بمثابة رسالةٍ، ومن هم، معه، معلّمونا وأصدقاؤنا.
حبّه، حبّه الجمّ يدعم رجائي، ويساندني، وينير درب حياتي.

انظر إليَّ يا ربّ: أنا فقيرٌ لاطٍ بين ذراعيك، مثل طفلٍ، ومثل عصفور هوى من عشّه.
أكّد لي، يا إلهي، أنّك ما زلتَ تحبّني، فيزهر كلّ شيءٍ فيّ، من جديدٍ.
أنا لا أعرفك، يا الله، ولكنّك أنت تعرفني، وهذا هو رجائي.

صلاةٌ من أجل الأنانيّ

إرأف، يا ربّ، بهذا الوحيد الذي لم يفهم،
وعجز عن أن يحبّ.
كنْ رقّةً صرفًا، وصداقةً صافيةً.
لمن هم عنفٌ وكراهيةٌ.
لأنّهم لم يلتقوك.

حبٌّ

أنا لك، وأنت لي، إنّي أخصّك.
أنت مَلِكي، ويقودك إلى قلبي الرجاء والرحمة.

أنت قدرةٌ كلّيّةٌ، وعطفٌ، وأنا لستُ سوى غبارٍ وظلامٍ، ولكن، لأنّي أُودع رجائي فيك، ليس بين قلبك المشرق بوضوح الأبديّة، وقلبي الهشّ، منتصرٌ.

فلا منتصرٌ بين ابنٍ وأبيه.

صلاةٌ دعا إلى تلاوتها أتباع جميع الديانات، في يوم البرص العالميّ

علّمنا، يا ربّ، أن نكفّ عن حبّ ذواتنا، وعن الاكتفاء بمحبّة ذوينا، والذين نحبّهم.

علّمنا ألاّ نُعنى إلاّ بالآخرين، وأن نحبّ، في المرتبة الأولى، المفتقرين إلى الحبّ، واجعل آلام الآخرين توجعنا!

وأنعم علينا بإدراك أنّ في كلّ دقيقةٍ من حياتنا الهنيئة التي تنعم بحمايتك. ملايين البشر، هم أبناؤك، وإخوتنا، يموتون جوعًا، وبردًا، ولم يستحقّوا هذا الموت.

ارأف، يا ربّ، بكلّ فقراء العالم.

ارأف بملايين البرص الذين يمدّون، صوب رأفتك، أيادي لا أصابع لها، وأذرعًا لا أيدي لها.

واغفر لنا، يا ربّ، لأنّنا أهملناهم، أمدًا طويلاً، بدافع خوفٍ مُخزٍ.

ولا تسمح، يا ربّ، بأن نسعد بمفردنا.

ازرع فينا هاجس الفقر الشامل. وخلّصنا من ذواتنا،

إذا كانت تلك هي مشيئتك.

من الذكاء الخائن،

ومن الآلة المستعبِدة،

ومن المال المفسِد،

أنقذ المحبّة، يا ربّ.

أنت الحياة

لقد شنّ البشر مئة حربٍ، منذ مئة سنـةٍ.
فعلّم، يا ربّ، أبناءك، المحبّة.
فليس حبٌّ، بمعزلٍ عن حبّك.

هب عيونَنا الحسيرة النور

يا ربّ، هبْ عيونَنا الحسيرة النورَ الذي كان قبل ولادة الشموس، وقبل تناغم مجرّاتك السامي.

ولا يكنْ، بعدُ، أبدًا، مجاعاتٌ ولا حروبٌ.
لكي لا نخجل من كوننا ما نحن،
ولكي نصبح، دائمًا، وإلى الأبد،
بشرًا.

أنقذنا، يا ربّ، من فوضانا، وقصر نظرنا، ومن عَفَنِنا الكئيب،
ومن كلّ غرائزنا المتفلّتة.
وساعدنا على الخروج من ذواتنا،
كي يترجّع فينا، إلى ما لا نهايةٍ،
صدى تطويباتك المعجز.

لا تزدرِ ضعفي، يا ربّ

يا ربّ، إن لم أصنع الخير بالطريقة المثلى المقتضاة منّي، لا تزدرِ ضعفي.

إنّي أحاول، وأبذل قصارى جهدي كي أفهم،
ولكنّك، غالبًا، غائبٌ، ولا ينفذ صوتك إلى قلبي.
أعنّي، يا ربّ. أنت تعلم أنّي أبحث عنك، كي أدفن ذاتي في حبّك، أيّها المنتصر الدائم.
وأنت تعلم أنّي أحبّك، حتّى إن لم أرَك، ولم أسمع صوتك.

هؤلاء هم صالبوك

ربّي، هؤلاء هم بُرْصُك،
وهذه هي أيديهم التي لم يعُدْ لها وجودٌ،
وهذه أوجههم المتورّمة
إنّهم يحملون كلّ بؤس العالم، وكأنّه صليبك.
وهؤلاء هم، يا ربّ، البُرْص الحقيقيّون:
الأنانيّون، الفاسدون، الذين يعيشون في المياه الآسنة
في الرفاه والخوف
ولا يصنعون، من حياتهم، شيئًا.
هؤلاء، ربّي، هم البرْص الحقيقيّون
إنّهم، هم، الذين صلبوك.

صلاةٌ من أجل العام ٢٠٠٠

هل عام ٢٠٠٠ هو زمن رعبٍ، أو ربيع محبّةٍ؟
وهل الذرّة هي انتصار الإنسان، أو مشنقة الإنسانيّة؟
أعنّا يا ربّ.

لقد بتنا نملك ذرّةً من قدرتك، وها نحن أمامك، هزيلين، هشّين، وأشدّ شقاءً من أيّ وقتٍ، وخجولين بضمائرنا المرقّعة، وقلوبنا المهشّمة.
ارحمنا يا ربّ.

لقد بنينا كنائس، ولكنّ تاريخنا هو تاريخ حروبٍ متواصلةٍ. وبنينا مستشفياتٍ، ومع ذلك ارتضينا أن يجوع إخوتنا.

عفوك يا ربّ عن الطبيعة التي دُسناها، والغابات التي اغتلناها، والأنهار التي سمّمناها.

عفوك عن القنبلة الذرّيّة، ونظام العمل المسلسل، الذي يحوّل الإنسان آلةً، وعن الآلة التي تلتهم الإنسان، وعن امتهان المحبّة.

نعلم أنّك محبّةٌ، وأنّ محبّتك هي التي منحتنا الحياة. صُنّا من دنس الشهوة، ومن نكران الجميل، ومن عبوديّات السلطة المختلفة، وهبنا سعادة محبّة واجبنا.

يفتقر العالم إلى ملايين الأطبّاء، فألهمْ أبناءك أن يكونوا معالجين، ويفتقر العالم إلى ملايين المدرّسين، فألهم أبناءك الرغبة في التعليم.

ثلاثة أرباع سكّان العالم يتضوّرون جوعًا، فألهم أبناءك أن يستثمروا التربة، ويزرعوها.

وليكن لنا، كلّ يومٍ، وعلى امتداد حياتنا، في السعادة والألم، أخوةٌ بلا حدودٍ.

وحينئذٍ، لن يرضوا بسيطرةٍ سوى سيطرة عطفك، ولتُزْهِر، من جديدٍ، في السلم وفي العدل، حضارتنا التي تئنّ تحت طغيان الحقد، والعنف والمال.

ومثلما يصبح السَحَر فجرًا، فليرضَ حبّك أن يولد أبناء الألفين في الرجاء، ولينموا في السلام، ولينطفئوا في النور، لكي يلتقوك.

المسيحيّة هي الثورة بالمحبّة

خلاص العالم يقوم على رؤية الحياة من زاوية إخاءٍ فَرِحٍ، ويقظٍ، وفي القناعة بأنّ المرء لا يملك سوى السعادة التي يعطيها، وأنّ الأشرار هم البائسون الحقيقيّون...

وأنّ نور الحياة هو المحبّة، وأنّ المحبّة ليست مجرّد إحسانٍ، لأنّ المال أفسد كلّ شيءٍ حتّى مفهوم المحبّة الطاهر.

ليست المحبّة "مالاً"، بل هي فعل حبٍّ، هي بذلٌ للذات، يرقى بك، ويحوّل جهدك، وتضحيتك فرحًا.

رأيتُ في الحلم إنسانًا ماثلاً أمام محكمة الربّ، قائلاً: "انظر يا الله، ها قد حقّقت شريعتك، لم أرتكب موبقةً واحدةً، ولم أقمْ بأيّ عملٍ منافٍ للأخلاق وللشريعة، ويداي طاهرتان".

فأجابه الله: "صحيحٌ أنّهما نظيفتان، ولكنّهما فارغتان".

المطلوب قبل كلّ شيءٍ هو الحياة من أجل الآخرين.

فلنفكّر بما يتخطّى ذواتنا، ولنُدركْ أنّ في كلّ دقيقةٍ من حياتنا سواءٌ كنّا نأكل، أو ننام، أو لا نفعل شيئًا...

هناك ملايين من البشر، هم إخوةٌ لنا في المسيح، يموتون جوعًا، ولم يستحقّوا الموت جوعًا، ويموتون بردًا، ولم يستحقّوا الموت بردًا.

وطالما بقي، على الأرض، بريءٌ واحدٌ جائعًا، ومقرورًا، ومضطهَدًا، وطالما استمرّت، على الأرض، مجاعةٌ يمكن تفاديها، أو سجنٌ اعتباطيٌّ، لن تكون رسالة محبّة يسوع قد تحقّقت، ولن يحقّ للمسيحيّة أن تبطئ مسيرتها، وأن تهادن، ولن يحقّ لي، ولك، أن نصمت أو نستكين.

- المحبّة هي تاريخ المسيحيّة، وفخرها. والمسيحيّة هي محرّرة العالم. هي التي حبَتْهم الانعتاق الحقّ، والسعادة الراسخة والفريدة، والقوانين العادلة الوحيدة.

هي التي حطّمت قيود العبيد، وحنت أمام عدلها جباه الملوك وذوي السلطان، وجعلت من الأُمومة مهمّةً مقدّسةً ومحترمةً، وأعادت للمرأة عظمتها المكرّمة وسلطتها الرقيقة،

وجعلت من الفرد إنسانًا، وحمت الطفل الذي "له ملكوت السماوات"، ولعنت الحروب، وحالت، بقدر ما استطاعت، دون تكاثرها.

وأقامت المشافي، والمدارس، وجعلت من مبدأ التضامن فعل محبّةٍ، وعالجت، وواست، وشفت، بلا هوادةٍ، على امتداد عشرين قرنًا، باسم الفقير الذي كان يقول: "أحبّوا بعضكم بعضًا".

وعلّمت البشر أن يصلّوا من أجل أعدائهم، وأن يموتوا وهم يباركون جلاّديهم.

وقد نعم بنورها وصنائعها حتّى من يجهلونها، ومن يضطهدونها.

تمتلك المسيحيّة قوّة الزمن الهادئة، والصامدة، لأنّ القرون لن تقوى عليها. كم من أعاصير دمّرت الأرض، وعجزت عنها! وكم من اضطهاداتٍ، ومن استشهاداتٍ لم تنلْ من عنفوانها! وكم من أمواتٍ لم يستطيعوا اقتيادها إلى القبر!

الممالك، والأنظمة، والتطوّرات البشريّة تتزاحم، وتتلاحق، وتتردّى إلى الهوّة المشتركة.

والله لا يموت!

إذا قرع يسوع بابك غدًا

إذا قرع يسوع بابك غدًا، فهل ستتعرّفه؟

سيكون مثلما كان قديمًا: فقيرًا، وبلا ريبٍ، وحيدًا.

سيكون عاملاً مُضرِبًا، إذا كان الإضراب مبرّرًا.

أو سيكون بائع عقود تأمينٍ، أو بائع مراوح، متجوّلاً،
يصعد سلالم، بلا هوادةٍ، وسيتوقّف، بلا هوادةٍ، عند كلّ طبقةٍ من البناء، وسيتصنّع بسمةً رائعةً، فيما يجرح الحزنُ قلبَه.

وستكون عتبة البيوت غارقةً في العتمة، ولا تسمح برؤية الطارق الذي يريد أصحاب البيوت طرده.
وسيقولون له، قبل أن يستمعوا إليه "نحن غير مهتمّين".

أو ستجيب الخادمة الصغيرة: "لدى السيّدة فقراؤها"، ويُصفَق الباب في وجه الفقير، المخلّص.
وقد يكون لاجئًا، واحدًا من الخمسة عشر مليون لاجئٍ، يحملون جوازات سفر الأُمم المتّحدة.
واحدًا ممّن يرفضهم الجميع، واحدًا من المشرّدين في هذا العالم، الذي أمسى صحراءً...

واحدًا من الذين ينبغي أن يموتوا، لأن لا أحد يعرف من أين يأتون. وقد يكون أسود من أميركا، يسمّونه عبدًا، سئم استجداء مأوًى في أحد فنادق نيويورك، مثلما كانت السيّدة العذراء، في بيت لحم.

إذا قرع يسوع بابك، فهل ستتعرّفه؟

سيكون منهكًا، منهارًا، لأنّ عليه حمل كلّ مشقّات العالم.
ولا ريب أنّه لا يمكن استخدام إنسانٍ قد بلغ هذا القدر من التعب.

وإذا سُئل: "ما الذي تبرع في فعله، لن يستطيع إجابة: "كلّ شيءٍ".

وإذا سُئل من أين أنت آتٍ، لن يستطيع إجابة: "من كلّ مكانٍ".

وإذا سُئل: ما الذي تعتزم اكتسابه لما استطاع الإجابة: "أنت".

فينصرف أشدّ إنهاكًا وانسحاقًا.

والسلام في يديه العاريتين.

عمر الحقبة المسيحيّة ألفا عامٍ،
ولكن متى سنصبح، نحن، مسيحيّين؟

احيوا

(خطابٌ ألقاه بمناسبة يوم البَرَص العالميّ، عام ١٩٧٣)

توقّف عابر سبيلٍ أمام مقلع حجارٍ، حيث كان ثلاثة عمّالٍ دائبين على عملهم. فسأل أحدهم: "ماذا تفعل، يا صديقي؟" فأجابه، وهو ما زال مأخوذًا بعمله: "أكسب خبزي".

وطرح السؤال عينه على الآخر، فأجاب، وهو يداعب صخرةً بين يديه: "إنّي أنحت هذا الحجر الجميل".

أمّا العامل الثالث فرمقه بعينين تفيضان فرحًا، وأجاب على السؤال عينه: "إنّنا نبني كاتدرائيّةً".

كانوا، هم الثلاثة، يؤدّون العمل عينه، ولكنّ هذا العمل عينه، كان يعني لأحدهم الحصول على لقمة العيش، وكان يوفّر للآخر متعةً، وكان يُضفي على عمل الثالث عظمةً وكرامةً.

فأيّها الشباب، ابنوا كاتدرائيّاتكم بجهدكم اليوميّ، واذكروا أنّ كلّ عملٍ هو نبلٌ عندما نربطه بنجمٍ.

إنّ سرّ السعادة هو العمل بحبٍّ.

ومثل الكاتدرائيّة فليكن قلبكم مشرعًا لكلّ ما هو، في العالم، جميلٌ، ومشرقٌ، وطاهرٌ، وعظيمٌ، وأخويٌّ.

إنّ حضارتنا التي تعاني استشهاد التقدّم، ما زالت تحتفظ، في متاهاتها، بدروبٍ نحو الشمس.

وإنّ لجميع المشاكل المستعصية حلاً وحيدًا. فوسط صيحات التعصّب، وهتافات الديماغوجيّة، يعلو صوتٌ قارنًا القوّة بالرقّة، مُكرِهًا الأحقاد المتنقّلة على استعادة أنفاسها، هاتفًا "جميعكم إخوةٌ..."

أعداؤكم هم الظلم الاجتماعيّ، والأنانيّة، والتعصّب.

قادتكم هم فرنسيس الأسّيزيّ، وڤنسان دي پول، وشڤيتزر، ودونان (مؤسّس الصليب الأحمر).

وأبطالكم هم غاندي، ولوثر كينج، ومكسيميليان كولبي.

قد تدّعون أنّكم لستم بمستوى هذه القامات. ولكنّ المرء لا يعرف قامته إلاّ عندما يتخطّاها.

الكاتب رومان رولان قال: "البطل هو من يفعل كلّ ما يستطيع فعله".

وفولتير أعلن: "حياةٌ بلا جدوى هي موتٌ قبل الأوان".

فاحيوا.

هاجس بؤس الآخرين

سيّدتي،
هذا المساء، وفي كلّ مساءٍ، بعد تناولك العشاء،
ستمضين بهدوء إلى الحجرة الصغيرة، حيث يرقد، داخل أغطيةٍ بيضاء، وجهُ حياتك الحيّ، بهدوءٍ. وبرقّةٍ، وبمثل مداعبة ملاكٍ، تداعبين بإصبعك، ثمّ بشفتيكِ، الجبين الصغيرَ، اللاطي على الوسادة الطريّة،
بهدوءٍ لكيلا يستيقظ الصغير السعيد.

في هذا المساء، وفي كلّ مساءٍ، بعد اليوم، تذكّري، وأنتِ تقبّلين صغيرك، كنزكِ، حبّكِ، أنّ على الأرض طفلاً آخر، يحاكيه جمالاً، وبراءةً، ولكنّه لا يجد إلى النوم سبيلاً،
لا ينام، لأنّه جائعٌ،
ويبكي، لأنّه جائعٌ
وسيكون جائعًا، غدًا،
والأُسبوع القادم،
وكلّ يومٍ، ودائمًا.
سيكون جائعًا، مع أربع مئة مليون طفلٍ آخر، جائعين.

فعلامَ لا يجوع ابنك،أيضًا؟
ولمَ هو يحظى بالغذاء، والمأوى، والحماية؟
لمَ ابنك محظيٌّ، دون الآخرين؟

هل جال هذا السؤال ببالك، سيّدتي؟

المثابرة

- يسوع قال إنّ الإيمان يحرّك الجبال.

وفي الصين أُسطورةٌ تقول إنّ جبلَيْن شاهقَيْن كانا يسدّان أُفق منزل الرجل العجوز "يوكونغ" المطلّ على الجنوب. فقرّر إزالتهما بمساعدة أبنائه، وبواسطة الفؤوس والرفوش. ورآهم رجلٌ عجوزٌ آخر دائبين على هذا العمل، فأغرق في الضحك، وحذّرهم من فشل مسعاهم، الذي وصفه بالجنون.

ولكنّ يوكنغ أجاب: "عندما سأقضي نحبي، سيبقى أبنائي، وعندما يرحل أبنائي، سيكمل أحفادي المهمّة، وستتعاقب الأجيال إلى ما لا نهايةٍ. ومهما كانت الجبال شاهقةً، فهي لن تكبر بعد. وكلّ ضربة فأسٍ ستجعلها أوطأ. ومن المحتّم أنّنا سنصل إلى مستوى السهل.

واستمرّ الحفر، ورئفت السماء بالعجوز، وأرسلت إلى الأرض ملاكين حملا الجبلين على ظهرهما.

خواطِر

"عظمة البلاد لا تُقاس بثروتها،
بل بقدرتها على المحبّة، وبكثافة هذه المحبّة"

"فولّيرو"

المحبّة

- **الأشدّ خوفًا من الموت هم الذين لم يحبّوا، حقًّا، قطّ.**
- **تتعذّر علينا، في هذه الدنيا، معرفة الله، ولكنّنا نستطيع أن نحبّه.**
- **المحبّة هي أكثر الصلوات جدوى، لأنّها الأكثر تجرّدًا.**
- **العطاء، بمعزلٍ عن المحبّة، إهانةٌ.**
- **كلّ بذرة حبٍّ تزهر عاجلاً أو آجلاً.**
- **المعرفة، بمعزلٍ عن المحبّة، ليست بشيءٍ، بل ربّما كان اللاشيء خيرًا منها.**
- **الحقيقة الوحيدة هي المحبّة.**
- **ليست المحبّة عطاءً، بل هي مشاركةٌ.**
- **بمعزلٍ عن المحبّة، لا معنًى للحياة.**

- نحن أمام مفترقٍ: أن نحبّ بعضنا بعضًا، أو أن نزول. ليس لنا خيارٌ آخر. وقد اخترنا المحبّة، لأنّنا نحمل رسالة الميلاد، ولأنّنا واثقون من انتصار المحبّة.

- لا يحتاج البُرْص الذين نخدمهم، والفقراء الذين نحبّهم إلى شفقة الناس السعداء، بل يطلبون احترامهم، وتقديرهم وفق ما هم، بصفتهم بشرًا. حينئذٍ فقط، يقبلون أن "يساعَدوا"، بلا خجلٍ.

- عندما كان القديس ڤنسان دي پول يكلّف طلائع بنات المحبّة بزيارة جياعٍ، كان يوصيهنّ: "لا غنى عن المحبّة، كي يغفر لكُنّ الفقراء الخبز الذي تعطينَه لهم".

- ليست المحبّة شفقةً وتنازلاً، من قِبَل إنسانٍ متخمٍ، يُرضي بهما ذاته، بل هي واجبٌ مفروضٌ على جميعنا.

- غاية الوجود هي الخدمة.

- وحدها المحبّة قادرةٌ على الارتقاء بالإنسان فوق وضعه الزائل. إنّها رسول الله، وشرارةٌ من الأبديّة.

- المحبّة حضورٌ. والعطاء لا يكفي ما لم يرافقه عطاء الذات.

- لا تعترف المحبّة بالطبقات الاجتماعيّة، والأجناس، والأعراق، وتهزأ بالحدود، وتنبذ الحروب، وهي أقوى من الموت.

- ليست المحبّة صَدَقَةً، ولا تقدمةً يواكبها الازدراء، هابطةً من فوق إلى أسفل. فهذا مسخٌ للمحبّة، وشبحٌ لها. وإن لم تُهِن المتلقّي، فهي تُلحِق العار بعاطيها.

- ما من حُلْمٍ مفرطٌ في الكِبَر، فتابع سيرك ولا تتوقّف. إنّ عزّة الحياة الرفيعة هي أسمى الفضائل، وملجأك الوحيد هو المحبّة.
- المحبّة تتيح للإنسان أن يحيا فوق ذاته، لأنّه جعل نفسه، طوعًا، خادم الجميع.
- المحبّة تتقبّل المِحَن. وتبتسم للألم، وتبقى أقوى من الموت.
- المحبّة هي انعكاس وجه يسوع على الفقير، والمتألّم، والمضطهَد.
- الفردوس هو تبادل المحبّة.
- المحبّة هي، أوّلاً، اكتشاف الإنسان في الفقير، واحترامه فيه.
- ما أملِك هو ما أُعطيه.
- المحبّة لا تخدع، ولا تخطئ، وهي التي تبقى وسط أكوام الأخطاء، والخيبات، واليقين المنزّه من كلّ لوثةٍ. فلنربط مصيرنا بنجمٍ.
- المحبّة هي الجامع المشترك الأكبر.
- لا تسألني عن اسمي، ولا تقل لي ما هو اسمك. حسبنا أنّنا أخوةٌ في حبّ ذاك الذي يحبّ بلا حدودٍ.
- المحبّة هي وجه الأبديّة الإنسانيّ.
- لو استطعنا مجرّد التفكير بالآخرين، لتعذّر علينا التغذّي كالبهائم، والنوم كالبهائم، ومواصلة الشعور بالسعادة. ولو أدركنا مدى بؤس الآخرين لأمسينا بشرًا حقًّا.
- ما أسهل منح السعادة!
- أعطِ كلّ ما تستطيع إعطاءه، بل أكثر منه.
- ليست المحبّة "مالاً"، بل هي فعل حبٍّ. هي بذلٌ للذات، يرقى بك، ويحوّل جهدك، وتضحياتك فرحًا.

- عندما نفقد الحبّ نفقد كلّ شيءٍ.
- بمعزلٍ عن المحبّة كلّ علمٍ هو باطلٌ وكُفرٌ.
- إذا تعذّرت علينا ممارسة العدالة، فلنكن رحومين.
- البارّ هو من يحيا من أجل قريبه.
- لمَ لا أجعل من حياتي اليوميّة فعلَ حبٍّ دائمًا؟
- المحبّة هي أيضًا تقاسُم الرجاء عينه.
- ستخدم الله في كلّ مبادرة محبّةٍ، حتّى إن لم تعرف الله. أمّا الله فيعرفك في الذين تساعدهم.
- إن لم تحبّ، فلستَ مسيحيًّا.
- المحبّة هي ستنقذ العالم.
- مفتاح القلب هو، أيضًا، مفتاح السماء، فهو قوّة الكون الكبرى الوحيدة التي لا تُقهَر، وهو الخلاّق الوحيد.
- كلّ نفسٍ سطت عليها المحبّة تسير على درب الله.
- المحبّة هي ربيع عدالة الله.
- المعرفة بمعزلٍ عن معرفة المحبّة هي لا شيءٌ.
- الواجب الذي يحدّد كلّ شيءٍ، ويحلّ كلّ المشاكل هو المحبّة.
- فلنرَ في كلّ كائنٍ بشريٍّ إنسانًا، وفي كلّ إنسانٍ أخًا.
- لن تكون الغلبة للقوّة، ولا للمال، بل للمحبّة. فبمعزلٍ عن المحبّة لا شيء ممكنٌ، وبالمحبّة لا شيء مستحيلٌ.
- سرعان ما تحوّل فرن الذرّة إلى فرن القنبلة النوويّة. لماذا؟ لأنّ المحبّة هجرت العالم، ولأنّ ضمائر مشاهير العالم أسيرةٌ، أو مخدَّرةٌ، ولأنّ لفظة المحبّة فقدت معناها، وأمست أثرًا لماضٍ مضحكٍ، وحماقةً، وإهانةً.

- السعادة هي الشيء الوحيد الذي نضمن الحصول عليه عندما نحبّ ونعطي.
- في معركة المحبّة، ليس الشأن للنتائج. ففعل المحبّة يصلنا بالله حتّى إن لم يُؤتِ، في الحال، ثمارًا.
- ليس المطلوب إعطاء الفقير القليل من نافلنا، فحلّ القضيّة الاجتماعيّة لا يتحقّق بهدايا الميلاد، ومعضلة الجوع لا تُحَلّ بجباية الأموال. الفقير والمريض والمضطهَد يعانون عطشًا حارقًا إلى اعترافٍ بأنّهم بشرٌ مثل سائر البشر، وبأنّ لهم الحقّ بالحياة، وعليهم واجب الرجاء. وواجبنا أن نحقّق لهم وسائل تأمين عيشهم، وعيش ذويهم، بذاتهم، وعدم الاكتفاء بإعطائهم أصغر موجودات محافظنا، بل علينا مقاسمتهم آلامهم، وغضبهم، وتطلّعاتهم إلى الفرح، ومنحهم قسمًا من أفراحنا، تلك هي المحبّة.
- بائسٌ القلب الذي لا يستيقظ، ويستنكر أمام البؤس.
- علّمنا، يا ربّ، ألاّ يشغل بالَنا إلاّ الآخرون، وأن نحبّ، بالأولويّة، المحرومين من الحبّ.

المحبّة أو القنبلة الذرّيّة

إنّـها المعركة الكبرى.

فوحدها المحبّة قادرةٌ على إزالة القنبلة الذرّيّة من قلب البشر.

لأنّ القنبلة الذرّيّة تحاكي المحبّة. فقدرتها الرهيبة تكمن في عدم توقّفها على طريق الموت. فالذرّة تدمّر ذرّةً، والتالية تدمّر ما يليها، في تسلسل تدميرٍ لا حدود له ولا نـهاية.

من يلقي قنبلةً لا يعرف عدد الجثث التي يلقيها أرضًا.

هكذا هي المحبّة: فعملٌ واحدٌ جيّدٌ، أو بادرةٌ أَخويّةٌ صادقةٌ تولّد فرحًا؛ ومن هذا الفرح يولد فرحٌ آخر، وتتوالى مظاهر السعادة، بلا حدودٍ. والذي يقوم بعملٍ خيِّرٍ، لا يعلم كلّ الخير الذي يولّده.

إذن، قنبلةٌ أو محبّةٌ.

سلسلة موتٍ أو سلسلة حبٍّ.

لا بدّ من الاختيار في الحال، اختيارًا أبديًّا.

هذا ما قاله لنا الربّ لألفي سنةٍ خلت،

ولأنّه قاله، صلبه البشر:

ولأنّ تلاميذه، ردّدوا قوله، قُتِلوا.

ولكن البشر فشلوا في خنق الصوت الإلهيّ الرقيق، الذي ما انفكّ يتردّد منذ أَلفَي سنةٍ:

"أحبّوا بعضكم بعضًا".

المال

- ليس المال سوى مادّةٍ أوّليّةٍ، بوسع الإنسان أن يجعل منه تُحفةً أو وحشًا مفترسًا.

- المال هو جدار العار الأعتى قسوةً وهولاً.

- لقد أضحى المالُ علّةَ هذا القرن، ووجهَه الشرّير، ولعنتَه.

لطالما كان المال وسيلةً لبناء السعادة. ولكنّ الإنسان الذي جعل منه غايةً أضحى له عبدًا.

وفي هذا العالم المولع بادّعاء المساواة، لم يعهد قطّ، طاغوتًا أشدّ قسوةً من المال.

لا تظنّوا، إذن، أنّ المال يكفي لكلّ شيءٍ، وأنّ عطاء الزهيد من نافلكم يعفيكم من المحبّة.

- لقد أفسد المال كلّ شيءٍ، حتّى طهر فكرة الإحسان. فالإحسان ليس مالاً، بل هو فعلُ محبّةٍ، وهو عطاءٌ للذات، يسمو بك، ويكافئ جهدك وتجرّدك، فرحًا.

السعادة

- وحده من يُسعِد الآخرين يضمن الحصول على السعادة.
- وحده الذي عمل الكثير يراوده شعورٌ بأنّه لم يعمل بالقدر الكافي.
- الإنسان الأنانيّ حزينٌ يتظاهر بالسعادة. ولكنّه في غمرة أفراحه الزائفة يؤرّقه الشعور بكآبة حياته، وبسخافتها، وعبثيّتها، من جرّاء لاإنسانيّتها.
- لا يحقّ لأيّ إنسانٍ أن يسعد بمفرده.
- السعادة بمعزلٍ عن الآخرين سمٌّ. والسعادة غير المقتسمة مسروقةٌ.
- ليس المهمّ ما نحصد، بل ما نبذر.
- السعادة هي حيث يشاهدها الجميع، والشرّ وحده أعمى وأصمّ. فاسعَ إلى حياةٍ تفوق الحياة.
- السعادة هي حياة النفس في مكانٍ يتعذّر على الجبن بلوغه.

في رحاب الروح

- القداسة هي نعمة أداء أوضع الأعمال تحت راية الأبديّة.
- أَحَبّ القدّيسين لي هم الذين ليسوا ملائكةً.
- طوبى لمن يحيا بالله، ومباركٌ من يموت وهو يبحث عنه.
- كيف نيأس، وكلّ هذه السماء الرحبة فوقنا؟
- فوق العقائد: الإيمان. وفوق الطقوس: الصلاة. وفوق الواجبات: المحبّة.
- لا ثقة بمن لا يؤمن بشيءٍ.
- التأمّل هو أن نتيح لله فرصة التحدّث إلينا.
- نعم لتقديم الله للناس، ولكن لا نفرضه عليهم.
- طوبى لمن يستطيع، في غروب حياته، أن ينظر إلى الأمام ولا تأخذه الرعدة، وأن ينظر إلى الوراء، ولا تأخذه رغبةٌ في الفرار.
- طوبى لمن يستطيع أن يقرن، في معركةٍ واحدةٍ، أحلام مراهقته، ومطامح شبابه، وعزيمة كهولته.
- الحياة بمنأًى عن الله دربٌ لا يوصل إلى شيءٍ.
- الرجاء هو إشعاع وجه الله.
- قد يكون الرجاء هشًّا، ولكنّه لا يُقهَر.
- السلطة كهنوتٌ، من يمارسه على غير جدارةٍ، بائسٌ. والسلطة خدمةٌ من لا يمارسها بهدف إسعاد الجميع محتالٌ.

- أيّها الكهنة، إن لم تحملوا الرجاء، فما أنتم؟
- كلّ معموديّةٍ توجد مسيحيًّا جديدًا. ولكن ليس مؤكّدًا أنّها تُنقِص من عدد عَبَدة الأوثان واحدًا.
- لن نقوى على معرفة الله، في هذه الدنيا، ولكنّنا نستطيع أن نحبّه.
- أيّةً كانت قسوة الظلم الذي يحلّ بنا، والمِحَن التي نُمنى بها، فلن نبلغ، أبدًا، مدى آلام البريء العظيم، ولن نتعرّض لمِثْل النكران الذي تعرّض له، ولن نُصلَب مثله.
- إن لم ترفع عينيك إلى السماء للصلاة، فستتحرّى الأُفق، بحثًا عن أدوات الموت، التي صاغها حقدك.
- إنسانٌ هو كنيتي، ومسيحيٌّ هو اسمي.
- قديمًا عندما كان الإنسان يحيا في صلةٍ بنويّةٍ، وفي أُلفةٍ مع الله، كانت النفوس المنفتحة تتقبّل حدوث العجائب والمعجزات. وإن هي بدت لنا الآن مستحيلةً، فلأنّنا فقدنا الرؤية السليمة.
- عندما أقصى البشرُ الله عن المصير الإنسانيّ، ابتدعوا حضارة القَرَف والقنوط، وصاغ الإنسان لنفسه سيّدًا جديدًا، هو أشدّ السادة استبدادًا، وتسلّطًا، ودناءةً: المال.
- على من يحملون رسالةً أن يمتلكوا جرأة البطولة اليوميّة.
- بئس العلم المتكبّر، الذي، يسلب الإنسانَ الرجاءَ، بحجّة شرح ما هو الإنسان.
- أتأبَون الإصغاء إلى أصوات ضمائركم؟ فاحذروا من أن تصبح خرساء في نفس أبنائكم.
- لا يعاني المرء الوحدة، أبدًا، وهو يلاحق حلمًا كبيرًا.
- الفكرة التي لا تُسفر، في الحال، عن القوّة، هي وهمٌ.

الحضارة

- مدّ اليدين للغوث هو ترقٍّ.
- ليس المهمّ ما أنت، بل المهم هو ما تقدِّم.
- فلنرَ في كلّ كائنٍ حيٍّ إنسانًا، وفي كلّ إنسانٍ أخًا، ولنخلق حضارة الإخاء.
- قبل التفكير بتنظيم رحلاتٍ إلى القمر، أليس من الأولى الحؤول دون موت الناس على الارض بؤسًا وجوعًا؟
- إنّ الذين اقتلعوا الصليب، غرسوا مكانه الأنانيّة، والجبن، والقسوة، وابتدعوا حضارة القرف واليأس.
- لقد عاش الناس طويلاً، بعضهم إلى جانب بعضٍ، وعليهم أن يعيشوا جميعهم معًا، وعلينا أن نعلّمهم غدًا العيش معًا. فالحقيقة الوحيدة هي المحبّة المتبادلة.
- في طموحكم الساذج إلى تقديم سعادةٍ للجميع، بسعرٍ موحّدٍ، احذروا من تضليل البشر، ومن التضحية بالإنسانيّ على هيكل الاجتماعيّ.
- العقل البشري؟ لقد امتُهِن، وأُوديَ به إلى الانحطاط، وأذلّ الإنسان، وعلى امتداد خمس سنواتٍ، اقتاد البشريّة إلى الانتحار. وجعل الحفرة الجماعيّة هدف نشاطاته، وأفنى قواه في القتل، وفي تعلّم التخلّي عن الرأفة. فما السبيل إلى توحيد البشر؟ لقد دُفِنتْ الأحلام الكبرى في الحقد، والأفكار الكبرى أعلنت إفلاسًا داميًا، ولم تبقَ للعالم سوى المحبّة.

- لا يجوز التحدّث عن حضارةٍ، وخاصّةً عن حضارةٍ مسيحيّةٍ، طالما ارتضى كلٌّ منّا بالعيش، فيما آخرون يموتون لأنّنا نملك، بوفرةٍ، ما يفيض عن حاجتنا، وما يلزمهم للعيش، وطالما ارتضينا أن يغتني البعضُ غنًى مخزيًا، غير مبالٍ بجوع الآخرين وموتهم.

- كم مريعةٌ هي الحضارة التي تقيّم الشعوب، بمعيار ما تمتلك من ذهبٍ، وما تصنعه من قنابل، وبعدد الأطفال الذين يستطيعون قتلهم.

- المجتمع الذي يودي بمسنّيه إلى الإملاق والوحدة، والمجتمع الذي يدفع البؤسَ أجر حياةٍ مستقيمةٍ ووفيّةٍ، يدين نفسه، ويُلحِق بذاته الخزي.

- لست بعيدًا عن اعتبار أنّ كبار رجال الأعمال، وملوك الاقتصاد، والأقطاب في كلّ مجالٍ يستحقّون الرثاء، لأنّهم بثرواتهم، وسطوتهم، وكبريائهم، انفصلوا عن الإنسانيّة.

وأنتم، يا جماعة القابعين على هامش مجتمعكم، مجتمع الأنانيّين، والمخادعين، ارأفوا بالذين لا ينتجون شيئًا، ولا يستهلكون سوى الزهيد، والغارقين في الفقر والهشاشة، الذين باتوا على أبواب الموت، والذين يؤثرهم الله بحبّه.

تكرّموا بقتلهم، أو ساعدوهم على العيش.

أنا قايين

انطلقتم إلى القمر. وماذا بعد؟ فما زلتم عاجزين عن إلغاء البؤس، والمرض والجوع، والظلم الاجتماعيّ، لأنّ نبض ساعاتكم حلّ محلّ نبض قلوبكم.

عندما ينال ثماني مئة مليون كائنٍ بشريٍّ، في سنةٍ كاملةٍ، دخلاً يتدنّى عن دخل عاملٍ يدويٍّ في شهرٍ واحدٍ، وأقول: أنا لا أستطيع شيئًا، حيال هذا التفاوت، فأنا قايين!

وعندما نعلم أنّه لو تظاهر جميع الجياع، والفقراء، والمهملين، حول العالم لغطّت مواكبهم عشرين مرّةً مساحة الأرض، وإن لم تأخذني الرعدة، فقايين هو أنا!

وعندما تخبرني منظّمة الصحّة العالميّة، أنّه كان يمكن إنقاذ خمس مئةٍ وخمسين مليون إنسانٍ من الملاريا، بمئةٍ وخمسةٍ وستّين مليون فرنك، ولم نعثر على هذا المبلغ، مع أنّه لا يمثّل إلاّ أقلّ من ١٣٢% من ميزانيّة الدفاع في فرنسا، وأقلّ من ثلاثة آلاف بالمئة من ميزانيّة دفاع الولايات المتّحدة، ومع ذلك لم أناشد الضمير العالميّ، فقايين هو أنا.

نداءات إلى الشبيبة

غداة ثورة الشبيبة في فرنسا، عام ١٩٦٨، خاطب فولّيرو الشبيبة قائلاً:

« لا أحد يجهل أنّ العالم يجتاز تحوّلاً عارمًا.

إنّ المكانة الطاغية التي تحتلّها التقنية، ذلك الوحش النهم الذي لا يشبع، تهدّد بإخضاع الإنسان لعبوديّةٍ جديدةٍ. فإنسان اليوم يشعر، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، بحاجةٍ إلى "مزيدٍ من الروح" الذي طالب به الفيلسوف برغسون.

من الجليّ، ومن البدَهيّ أن يكون شباب اليوم أشدّ تحسّسًا لهذه التحوّلات من أسلافهم، وما استعجالهم في تسريع هذه التحوّلات إلاّ توافقٌ مع طبيعتهم ومع دعوتهم.

ولكن بعيدًا عن الفوضى، والعنف، والعشوائيّة،

وبمنأًى عن محاولة تدمير كلّ البُنى الاجتماعيّة القديمة، حتّى البالية منها، مثلما يُحطّم ولدٌ الدمى التي ملّها، ادّعاءً لإثبات نضوجه العقليّ، وبلوغه مرحلة الرجولة.

كان أرخيميدس يقول: "أعطوني نقطة ارتكازٍ، فأرفع العالم أجمع". ونقطة ارتكازكم هي المحبّة. ولا محبّةٌ ثاغيةٌ، لا تصلح إلاّ للتباكي على بؤس الآخرين، بل محبّةٌ ثائرةٌ على الظلم الاجتماعيّ، وعلى استعباد الفقراء...

أجل ثوروا عندما تعلمون أنّ حاملة طائراتٍ ذرّيّةً تساوي ثمن ثلاثة ملايين طنّ قمح؛ وأنّ كلفة صاروخٍ يمكّن من توزيع مئة ألف طنّ سكّرٍ على الفقراء، وأنّ غوّاصةً جديدةً تحرم الجياع من خمسين ألف طنّ لحم.

أجل ثوروا لصالح من سيرقدون هذا المساء، غالبًا على الحضيض، جائعين. إنّهم مليارا إنسانٍ، وستّون بالمئة منهم لم يبلغوا سنّ العشرين.

لقد حان أوان إغلاق عهد البشريّة التي فقدت إنسانيّتها. هذه هي الحقيقة التي يجب إدراكها وفرضها.

أكرّر قولي: نقطة ارتكازكم هي المحبّة.

هذه هي الكلمة التي تتّسع لاحتواء السعادة.

ولكنّ السعادة هي، أوّلاً، إسعاد الآخرين.

هي رفض أن يسعد المرء بمفرده، والقَرَف منه.

فلنعمل، يا رفاقي الشباب.

وفيما يُعِدّ الكبار لانتحار البشريّة، أو يلهون عابثين بالكرة، في الجزء الأعلى من الغلاف الجوّيّ، تجهد مجموعة الفقراء الساحقة في البقاء على قيد الحياة. فنحوَهم توجّهوا، ومن أجلهم كافحوا، وأحبّوهم.

أتبحثون عن هدفٍ لحياتكم؟

العالم يفتقر إلى ثلاثة ملايين طبيبٍ، فصيروا أطبّاء. وأكثر من مليار كائنٍ بشريٍّ لا يستطيعون القراءة والكتابة، فصيروا معلّمين. واثنان من أصل ثلاثةٍ من البشر، لا ينالون كفايتهم من الطعام. فكونوا مزارعين، ومن الأرضي المبوَّرة، استنبطوا غلالاً تُشبعهم.

إخوتكم بحاجةٍ إليكم: فكونوا، في كلّ مجالٍ، ببساطةٍ ونبلٍ "عمّالاً".

وكلّ عملٍ هو مصدر نبلٍ، عندما يُربط بنجمٍ.

كونوا ذوي شأنٍ كي تصنعوا شيئًا ذا بالٍ.

ارفضوا رَكْنَ حياتكم في مرآبٍ، وارفضوا أيضًا المغامرات التي تحتلّ فيها الكبرياء موقفًا أكبر ممّا تحتلّه الخدمة.

افضحوا، لكي تُصلِحوا. عارضوا كي تبنوا. ولتكن ثورتكم ذاتها، وليكن غضبكم، محبّةً.

حاربوا كلّ ما يحطّ الإنسان، ويقلّص حجمه. وكلّ ما يلطّخ بالقذارة، ويسفّه.

ابنوا جسورًا بين البشر الذين لا يتطلّعون إلاّ إلى تبادل المحبّة. أقيموا جسورًا إلى المستقبل.

كونوا وابقوا زارعي محبّةٍ، ولا تبيعوا حماسكم لتجّار الدخان، ولتَغْنِ لكم المحبّة مرادفًا للعمل.

انشروا وباء الخير، حتّى تشمل عدواه العالم أجمع.

لا تبالوا بأتعاب الأيّام الراهنة، ولا بضبابيّة الأيّام القادمة، ولا بالمِحَن، والعثرات والفشل،

فمن يكافح في سبيل مَثَلٍ أعلى، حتّى إذا أخفق، فهو مستعصٍ عن القهر.

وساعدوا النهار على الإشراق.

إلى جميع شبيبة العالم

أعيّنكم وصيًّا شاملاً. والكنز الذي أتركه لكم هو الخير الذي وددتُ تحقيقه، وأوكل إليكم تحقيقه ».

من محاضرةٍ في السربون

من محاضرةٍ ألقاها على مدرّج جامعة السربون الكبير يوم ١٥/١٠/١٩٦٧:

« في هذا العالم الماضي مترنّحًا، بين الهدْر المخزي، والمجاعات اليائسة، بين بطونٍ خاويةٍ، وبطونٍ متعفّنةٍ، ستتبيّنون أولويّة المحبّة، المحبّة التي بمعزلٍ عنها كلّ علمٍ هو باطلٌ، وكافرٌ.

ينبغي أن يكون شبابكم خَلْقًا، وارتقاءً، وخدمةً وفرحًا. ومن أجل ذلك لا بدّ من تكميم الآلة التي تهدّد بابتلاع الإنسان والسيطرة على السرعة التي أمسى الإنسان أسيرًا لها، وإعادة اكتساب وقتٍ للمحبّة.

– لمَ هي الحياة؟ من أجل المحبّة.

– إذا أسفرت حياتكم عن نقصٍ، فلأنّكم لم تتطلّعوا عاليًا.

– الأمر الأكيد لدينا هو أنّ الآخرين يحتاجون إلينا.

– في مواجهة حضارة خَبَث المعادن، العاجزة حتّى عن التحرّر من نفاياتها، احتفظوا، على الأقلّ، بقدرتكم على الدهشة.

– الذكاء الملحد يغشّكم، فهو عاجزٌ عن إعطاء معنًى لوجودكم. إنّه يخونكم، ويسجنكم، ويشوّهكم، ويدمّركم.

أديروا ظهركم لهؤلاء السحرة والدجّالين.

وأعيدوا وعي الله، وفرح المحبّة.

– أيقظوا صيفًا في أصغر القلوب، وتأهّبوا للموت من أجل الأُخوّة. ألقوا بأحلامكم في وجه العالم، لأنّ الحياة جهادٌ.

ارفضوا متابعة قيلولةٍ مطمئنّةٍ، عندما يهدر كلّ شيءٍ، ويجأر قنوطًا من حولكم.

ارفضوا الاستقالة من واجباتكم، واستمرار المسيحيّة السلبيّة التي يخنقها بورجوازيّو الآخرة بموانع، وتعابير لا تعني شيئًا.

وارفضوا أن تسعدوا بمفردكم.

في مواجهة الفقر والظلم والجبن، لا تتخاذلوا، ولا تساوموا، ولا تتراجعوا، أبدًا، بل ناضلوا وكافحوا.

لا تردّوا على الذين يدعونكم إلى التزام الحيطة، وأزروا بأبطال التوازن.

– آمنوا بطيبة العالم. ففي قلب كلّ إنسانٍ كنوز محبّةٍ مذهلةٌ وعليكم واجب استنباطها.

– كونوا أعزّاء، وشديدي الاقتضاء، ومتيقّظين لواجبكم ببناء سعادة البشر أجمعين، إخوتكم.

– لا تغرقوا في رمالٍ متحرّكةٍ، رمال متردّدي الإرادة الفاشلين.

– كافحوا بوجهٍ مكشوفٍ، وافضحوا الرداءة بصوتٍ عالٍ: ولا تسمحوا للغشّ من حولكم. كونوا حقيقيّين، فتنتصروا.

لكي تولد المحبّة، من جديدٍ، علينا أن نكافح كلّ يومٍ، بلا هوادةٍ، مُعرِضين عن كلّ شيءٍ آخر، أعني عن الصغارات، والحسابات الضيّقة، والجبانة.

إنّ عمل الممكن هو عملٌ ضئيلٌ جدًّا، فينبغي عمل المزيد، وأكثر ممّا نستطيع بكثيرٍ، ومحاولة مضاعفة العمل، كلّ يومٍ، وكلّ الأيّام.

– خلاص العالم هو أن نتعلّم، من جديدٍ، التطلّع إلى الحياة من زاوية إخاءٍ فرحٍ وساهرٍ، واقتناعًا بأنّنا لا نملك، حقًّا، سوى السعادة التي نمنحها، وأنّ الأشرار هم البائسون الحقيقيّون، وأنّ الأنانيّ هو، وحده، وحيدٌ.

– المحبّة نبع فرحٍ.

– المحبّة الحقيقيّة لا تعترف بطبقاتٍ، وشيَعٍ، وأجناسٍ. إنّها تهزأ بالحدود، ولا ترضى بالحروب، ومن المحقّق أنّها تنبذ القتل.

– المحبّة وصيّة الله وانعكاسٌ لصورة أبديّته.

فلنتعلّم العيش من أجل الآخرين، والتفكير بما يتخطّى ذواتنا، ولندرك أنّ، في كلّ دقيقةٍ من حياتنا، فيما نحن نأكل أو ننام، أو لا نفعل شيئًا، أو نفعل أسوأ من ذلك، هناك ملايين من البشر، هم إخوةٌ لنا في المسيح، يموتون جوعًا، وقرًّا.

لو أحللنا الآخرين في فكرنا، لما عدنا قادرين على أن نأكل مثل البهائم، وننام مثل البهائم، ونظلّ ننعم بسعادةٍ حمقاء.

ولو استطعنا استيعاب بؤس الآخرين لأصبحنا، حقًّا، بشرًا مسؤولين.

كُتُب راوول فولّيـرو

- Trente fois le tour du monde
  Flammarion, 1961

- Je chanterai après ma mort
  Association Suisse Raoul Follereau, 1982

- Une Bataille pas comme les autres
  Flammarion, 1964

- Aimer, Agir
  Flammarion, 1974

- La seule vérité, c'est de s'aimer (2 Tomes)
  Flammarion, 1974

- Si le Christ demain frappe à votre porte
  Flammarion, 1974

- Œuvres complètes (5 Tomes)
  Ed. Fondation Raoul Follereau, Paris

المراجع

- Jean Toulat: Raoul Follereau ou le baiser aux Lépreux.
  Flammarion-Salvator, 1978.

- Etienne Thévenin: Raoul Follereau, Hier et aujourd'hui.
  Fayard.

- Françoise Brunnschweiler: Raoul Follereau, messages d'espoir et de vie.
  Association Suisse Raoul Follereau, 1978.

- Jean d'Alaçon: Raoul Follereau: Fraternités spirituelles.
  Le serment, Fayard, 1995.

- Bernadette Chovelon: Raoul et Madeleine Follereau.
  L'itinéraire d'un couple.
  Éd. Artège 2019.

الفهرس

تقديم – الأب الياس زحلاوي ٧

تمهيد ١٥

الفَصْلُ الأَوَّل

شخصيّةٌ فذّةٌ تتكوّن ١٩

شخصيةٌ فذّةٌ تتكوّن ٢٠

خدمةٌ عسكريّةٌ وزواجٌ ٢٤

انطلاقةٌ أدبيّةٌ ووطنيّةٌ ٣٠

ترحالٌ حول العالم ٣١

الفَصْلُ الثَّانِي

رسول البُرص ٣٥

من تمنراسّيت (Tamanrasset) إلى أدزوپي (Adzopé) ٣٦

ملحمة مدينة أدزوپي (Adzopé) ٤٢

معركةٌ على البرَص ٥١

معركةٌ سياسيّةٌ وإعلاميّةٌ ٥٧

مشاهد موجعةٌ ٦٠

شهادةٌ شخصيّةٌ ٦٢

فولّيرو يُقحم الدولة في معركته ٦٤

"متشرّد المحبّة" ومستنبط السخاء ٦٨

الفَصْلُ الثَّالِثُ

يوم البَرص العالميّ ٧٣
يوم البَرص العالميّ ٧٤
تطوّراتٌ في الاحتفال بيوم البَرص العالميّ........................ ٨٥
نداء اليوم العالميّ الثامن عشر (١٩٧١) ٩٦
اليوم العالميّ التاسع عشر (١٩٧٢) ٩٧
اليوم العالميّ العشرون........................ ٩٨

الفَصْلُ الرَّابِعُ

من ذكريات معركة البرص ٩٩
من ذكريات المعركة ١٠٠
١- ماذا ينتظرون؟ ١٠٠
٢- دفنٌ ١٠١
٣- جزيرة الصداقة ١٠٢
٤- حسبُك أن تمسّ أيدينا ١٠٤
٥- داڤـــيد........................ ١٠٦
٦- النمر والولد ١٠٨
٧- سجنٌ........................ ١٠٩
٨- قيامةٌ سهلةٌ........................ ١١٠
٩- أجمل ملفوفةٍ في العالم ١١١
١٠- إنّي أرى ١١٢
١١- أقوى من الموت ١١٣
١٢- سائقٌ بأجرٍ مخفّضٍ ١١٤
١٣- انتصرت المحبّة، وانهارت الجدران........................ ١١٥
١٤- قريةٌ صغيرةٌ ١١٧
١٥- كنـــــزٌ ١١٨
١٦- ستنقذ المحبّة العالم ١١٩
١٧- أجمل قصّة حبٍّ ١٢٠

١٨- نصرٌ مزدوجٌ ١٢٢
١٩- المحبّة ١٢٣
٢٠- ضماداتٌ للمسيح ١٢٤
٢١- ذكريان ١٢٥
٢٢- في تاهيتي ١٢٦
٢٣- القفص ١٢٨
٢٤- تقبيل البُرْص ١٢٩
٢٥- قصّة حبٍّ مبهرةٌ ١٣١
٢٦- تقدّم الحضارة ١٣٢
٢٧- الفئران البيضاء الصغيرة ١٣٣
تمويل معركة البرص ١٣٤
قاذفتا قنابل ١٣٥
يوم حربٍ من أجل السلام ١٤٠
مئة فرنكٍ من أجل إنقاذ البرص مقابل كلّ مليون فرنكٍ يُنفق على قتل أبرياء ١٤٢
نهاية القاذفات ١٤٤
الملفّ الأزرق ١٤٧
أغنياء حقيقيّون ١٥٢
"السيّد قنسان" ١٥٧
فقراءٌ حقيقيّون: صَلَفٌ مجنونٌ، وهدرٌ مجرمٌ ١٥٩
واستمرّت المعركة رغم الخيبات ١٦١
مسيرة معركة البرَص ١٦٤
حصاد المعركة ١٧٢

الفصل الخامس

حربٌ على كلّ أصناف البرَص ١٧٥
القنبلة الذرّيّة أو المحبّة ١٧٦
حملة "يوم حربٍ من أجل السلام" ١٨٠
نجاحٌ أوّل ١٨٨

حربٌ على الجوع ١٩٠
قبل إرسال بشرٍ إلى القمر ١٩٦

الفصل السادس

زارع فرحٍ، وبستانيّ محبّةٍ........................... ١٩٩
عيد الميلاد مع الأب شارل دي فوكو ٢٠٠

الفصل السابع

مرض فولّيرو ووفاته........................... ٢٠٧
أيّامه الأخيرة ووفاته........................... ٢٠٨

الفصل الثامن

مَن هو راوول فولّيرو؟ ٢١٩
وجه المحبّة........................... ٢٢٠
شهاداتٌ ٢٢٣
١– شهادة جان روستان (Jean Rostand) (١٨٩٤–١٩٧٧) عضو الأكّاديميّة الفرنسيّة .. ٢٢٣
٢– شهادة الأب پير (Pire) (١٩١٠–١٩٦٩) الحائز على جائزة نوبل للسلام....... ٢٢٦
٣– شهادة الجنرال شارل ديغول:........................... ٢٢٧
٤– شهادة الكاتب الشهير "دانييل روبس" (Daniel Rops) عضو الأكّاديميّة الفرنسيّة . ٢٢٨
٥– مقتطفاتٌ من كتاب "جان ڤِرني" (Jean Vernet): ٢٣٠
"راوول فولّيرو متشرّد المحبّة" (١٩٥١)........................... ٢٣٠
٦– شهادة الجنرال ڤيغان (Wegand) ٢٣٣

الفصل التاسع

قصائد، وصلواتٌ، وخواطر، وأقوالٌ ٢٧١
قصائد وأدعيةٌ........................... ٢٧٢
وصيّتي ٢٧٢

صلاة فولّيرو المراهق ٢٧٣
ماذا فعلنا بك يا ربّ؟ ٢٧٤
رجاءٌ ٢٧٥
صلاةٌ من أجل الأنانيّ ٢٧٦
حبٌّ ٢٧٦
صلاةٌ دعا إلى تلاوتها أتباع جميع الديانات، في يوم البَرَص العالميّ ٢٧٧
أنت الحياة ٢٧٨
هب عيونَنا الحسيرة النور ٢٧٨
لا تزدرِ ضعفي، يا ربّ ٢٧٩
هؤلاء هم صالبوك ٢٧٩
صلاةٌ من أجل العام ٢٠٠٠ .... ٢٨٠
المسيحيّة هي الثورة بالمحبّة ٢٨٢
إذا قرع يسوع بابك غدًا ٢٨٤
اِحيَوا ٢٨٦
هاجس بؤس الآخرين ٢٨٨
المثابرة ٢٨٩

خواطر ٢٩٠
المحبّة ٢٩٠
المحبّة أو القنبلة الذرّيّة ٢٩٥
المال ٢٩٦
السعادة ٢٩٧
في رحاب الروح ٢٩٨
الحضارة ٣٠٠
أنا قايين ٣٠٢
نداءاتٌ إلى الشبيبة ٣٠٣
من محاضرةٍ في السربون ٣٠٦

كُتُب راوول فولّيرو ٣٠٩

المراجع ٣١٠

الفهرس... ٣١١

صدر للمؤلّف ٣١٧

أوّلاً. منشورات المكتبة البولسيّة – جونية – لبنان ٣١٧

ثانيًا. دور نشر أخرى.. ٣١٩

صدر للمؤلّف

أوّلاً. منشورات المكتبة البولسيّة - جونية - لبنان

- سلسلة النوابغ

١. السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي – ١٩٩٢

٢. فرنسيس... أصلح كنيستي – ١٩٩٢ و ٢٠٠٨

٣. صوت من لا صوت لهم: الأب پيير – ١٩٩٧

٤. حتّى يوجع العطاء: الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة – ١٩٩٨ و٢٠٠٣

٥. أنا الأخت إيمانويل، أشهد – ١٩٩٩

٦. بولس، رسول يسوع وقلبه ولسانه – ٢٠٠٣

٧. جان ڤانييه وسفينته – ٢٠٠٣

٨. سيرة المسيح (مترجم عن جيوڤانّي پاپّيني) – ٢٠٠٣

٩. البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني – ٢٠١٥

١٠. الكاهن القدّيس جان ماري ڤيانّي "خوري أرس" – ٢٠١٩

١١. عملاق المحبّة القدّيس ڤنسان دي پول (مار منصور) – ٢٠١٩

١٢. معجزة العناية الإلهيّة "البيت الصغير" (القدّيس جوزيف كُتّلينغو) – ٢٠٢١

• مؤلّفات متفرّقة

١. قدّيسة من بلادنا: الطوباويّة الأخت مريم يسوع المصلوب – ١٩٩٠
٢. يسوع في إنجيله – ٢٠٠٦
٣. يسوع في حياته – الجزء الأوّل – ٢٠٠٦
٤. يسوع في حياته – الجزء الثاني – ٢٠٠٦
٥. أمّ الله أمّنا – ٢٠٠٩
٦. مختارات مريميّة – ٢٠٠٩
٧. أمّ الرحمة – ٢٠١١
٨. باقاتٌ من حدائق رابندرانات طاغور – ٢٠١٦
٩. الأخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك" (١) السيرة – ٢٠١٩
١٠. الأخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك" (٢) الرؤى * – ٢٠١٩
١١. الأخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك" (٣) الرؤى ** – ٢٠١٩
١٢. مقتطفات من خواطر القدّيس ڤنسان دي پول (مار منصور) – ٢٠٢٠

• سلسلة الظهورات

١. ظهورات لورد – ٢٠١١
٢. ظهورات فاطمة – ٢٠١١
٣. ظهورات الصوفانيّة – ٢٠١١
٤. ظهورات مديوغوريه – ٢٠١١
٥. ظهورات لاساليتّ وظهورات الإسكوريال – ٢٠١٢
٦. ظهورات كيبيهو وظهورات غوادالوپـيّ – ٢٠١٢
٧. ظهورات العذراء لكاترين لابوريه (المدالية العجائبيّة) وألفونس راتسبون – ٢٠١٢
٨. ظهورات لوس وغيتشڤاود – ٢٠١٢
٩. لِمَ تبكي العذراء؟ – ٢٠١٢

١٠. الأمّ السماويّة تجوب العالم (١) – ٢٠١٢
١١. الأمّ السماويّة تجوب العالم (٢) – ٢٠١٣
١٢. ظهورات غَرَبَندَل وظاهرة سان داميانو – ٢٠١٣
١٣. ظهورات في فرنسا – ٢٠١٣

- سلسلة صفحات روحيّة

١. أبانا – ٢٠٠٥
٢. كتاب الحكمة والفضائل المستعادة (مترجم) – ٢٠٠٧
٣. العذراء في حياتنا (مترجم) – ٢٠٠٥ و ٢٠٠٧
٤. المسيحيّة في نظر رابندرانات طاغور وصلوات شاعر (مترجم) – ٢٠١٥
٥. على درب الحياة مع ألكسي كاريل،
الرحلة إلى لورد وخواطر مختارة (مترجم) – ٢٠١٦

- كتب مترجمة

١. يد الله – ١٩٨٨ (سلسلة الشهود)
٢. ثلاث عشرة قصة – ١٩٩٠ (سلسلة الوداع)
٣. أيدٍ ملطّخة بالدم – ١٩٩٥ (سلسلة الوداع)
٤. اذكروا الله: تأمّلات من وحي رسائل الصوفانيّة – ١٩٩٥
٥. حدّثني عن الحبّ (طبعة ثالثة) – ٢٠٠٥ (سلسلة الشباب مستقبل الغد)

<u>ثانيًا. دور نشر أخرى</u>

١. على درب الحياة مع ألكسي كاريل (مطبعة الأديب – دمشق) – ١٩٨٤
٢. حدّثني عن الحبّ (مطبعة اليازجيّ – دمشق) – ١٩٩٨ و٢٠٠٠

المطبعة البولسيّة
جونيه – لبنان